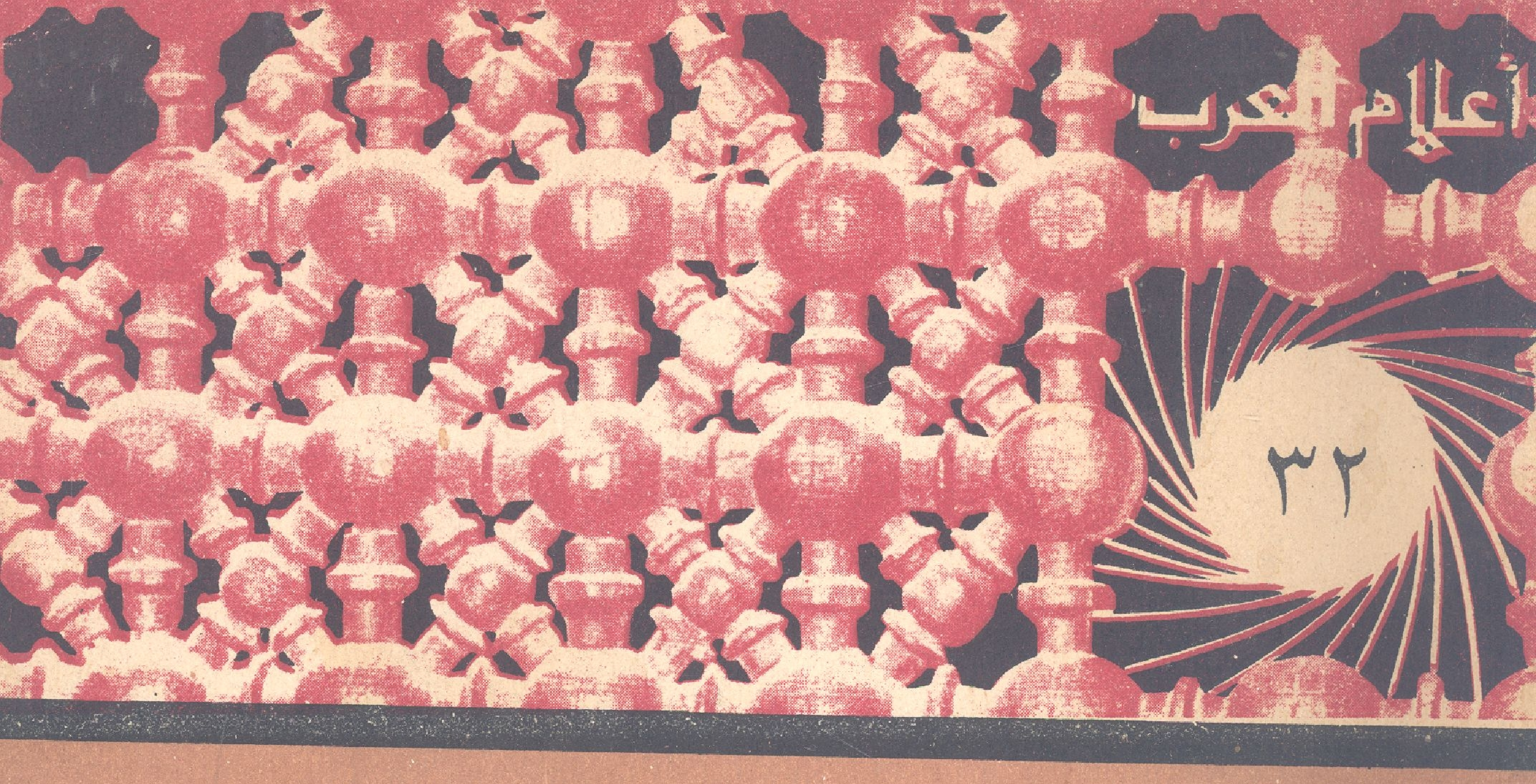


مظفر الدين كوكبورى

أمير اربل

تأليف
عبد القادر أحمد طليمات

زارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
أليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٣٢

مُظَفَّرُ الدِّينِ كُوكُبُورِي

أُمِيرُ إربل

تأليف

عبد القادر أحمد طليمات

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

هل مظفر الدين كوكبورى عربى الجنس والدم حتى نعده من العرب فننشر سيرته فى سلسلة أعلام العرب ؟

أو هو تركمانى الجنس والدم كما يدل عليه بعض اسمه ، فيقتضى ذلك اخراجه من زمرة العرب ، فلا ننشر سيرته فى سلسلة أعلام العرب ؟

وقبل الاجابة عن هـذا السؤال ، نسأل ، هل يشترط فى الرجـل أن يكون عربى الجنس والـدم لكى يكون عربيا ، أم لا يشترط ذلك ما دام أنه يحوز المقومات التى تجعله يساوى العربى ويقف معه جنبا الى جنب فى كثير مما هو عند العربى ؟

وقبل الاجابة عن السؤالين : أريد أن أوضح سبب اثارة السؤال عن عروبة مظفر الدين ، وذلك لأن هناك من اعترض على نشر سيرة الظاهر بيبرس فى سلسلة أعلام العـرب ، لأن الظاهر بيبرس — فى عرف المعترضين — جركسى الأصل ولم يكن عربيا ، فأردت هنا أن أحدد من هو العربى لا برأيى ، وانما برأى النبى العربى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . فقـد خطب عليه السلام فى المسلمين خطبة جامعة ، حدد فيها من هو العربى ، فقال :

« يا أيها الناس ، ان الرب واحد ، والدين واحد ، والأب

واحد ، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن دخل فى هـذا الدين فهو من العرب » [1] .

وما دمنا قد ذكرنا تعريف النبى العربى ، للعربى ، نرى من اللازم أن نذكر مناسبة هذا التعريف وسببه ، ليكون أقوى فى الاقناع وأثبت فى الذهن .

فقد روى أن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ، دخل المسجد ليصلى فى عهد الرسول ، فوجد فيه سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسالم الفارسى مولى أبى حذيفة مجتمعين فى حلقة يتحدثون ، فدخل سعد فى الصلاة ، وبينما هو فى صلاته ، سمع أعرابيا يقول لهـم ساخرا : تحلقتم يا معشر العلجة[2] كأنكم من الأوس والخزرج[3] ، فهال سعد ما سمع من الأعرابى فعجل فى صلاته حتى اذا انتهى منها أسرع الى الأعرابى وأخذ بتلابيبه وهو يعنفه ويقول له : ياعدو نفسه ، تقول هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم !! ثم سحبه وذهب به الى النبى فأخبره بما قاله للصحابه ، فعظم ذلك على النبى ، فجمع المسلمين وخطبهم الخطبة التى ذكرناها [4] .

---

(١) القرب فى محبة العرب ، ص ٢٧ .

(٢) العلج ، هو الكافر من العجم أو الروم .

(٣) يريد أن يعيرهم بأنهم من غير العرب حتى يجلسوا فى حلقة كما يجلس العرب . والأوس والخزرج قبيلتان عربيتان .

(٤) القرب فى محبة العرب ، ص ٢٧ .

فليس العربى اذن من هو من أرومة عربية وحسب ، وانما العربى أيضا كل من اعتنق الاسلام وهو دين العرب ، وكل من اتخذ اللغة العربية لغة له وهى لغة العرب ، وأن كل من عمل على الحفاظ على الاسلام ، وعلى أمجاد الاسلام ، وعلى أرض الاسلام ، فهو من العرب .

فالظاهر بيبرس كان يملك كل هذه الحيثيات ، فهو اذن من العرب . فهو اسلامى العقيدة ، عربى اللسان ، وقد جاهد حق الجهاد فى سبيل الاسلام وأمجاد الاسلام وأرض الاسلام ، ويشهد له تاريخه المجيد بذلك .

ومظفر الدين كوكبورى ، صاحب هذه الترجمة ، كان يملك كل هذه الحيثيات أيضا ، كما سنرى من سيرته .

فهو مسلم العقيدة ، ولد مسلما ومات مسلما .

واتخذ اللغة العربية لغة له ، فكان يحسنها قراءة وكتابة وحديثا .

وشارك فى الدفاع عن دين الاسلام وأمجاد الاسلام وأرض الاسلام باشتراكه فى الحروب الصليبية .

وفضلا عن هذا ، فقد حكم بلاده حكما اسلاميا ، فرعى حق الله فى رعيته فأحسن سياستها ، وعدل فى حكمها ، واهتم بمصالحها ، ولم يأل جهدا فى اسعادها ، فاهتم بالفقير ، ورعى المسكين ، واحتضن الضعيف ، وأخذ بيد المظلوم ، وضرب على يد الظالم ، وهو الحكم الصحيح الذى ينادى به الاسلام ، ويدعو اليه نبى المسلمين .

وبعد . فلماذا اخترت مظفر الدين كوكبورى موضوعا لهذا الكتاب ؟

والجواب عن ذلك ، أن مظفر الدين قد جذبنى اليه بعدة عوامل :

فهو كحاكم ، لمست فيه الحاكم المستنير الذى لم تشغله الحروب والاضطرابات السائدة فى عصره ، عن الاهتمام بمصالح امارته « اربل » ، فحول المدينة المغمورة — قبل أن يحكمها — الى وحدة سياسية أدلت بدلوها فى الأحداث الجارية ، وجعل لها كيانا سياسيا قائما بنفسه .

ووجدته قد جعل من المدينة المهملة طيلة تاريخها الاسلامى وما قبله بقليل ، مدينة عامرة زاخرة بالعمران والزراعة والتجارة ، حتى نالت اعجاب كل من رآها فى عصره ، وحتى جذبت اليها كثيرا من السكان المجاورين لها فأقاموا بها ، أو قضوا بها وقتا طويلا .

ووجدته قد اهتم بمجتمعه اهتماما بالغا حد الروعة ، وتنبه الى ما فيه من أمراض صحية واجتماعية ، فأقبل على علاجها اقبال الرجل المتسع الأفق ، فأنشأ مستشفى للمرضى ، وملاجىء للعميان والأرامل واليتامى الصغار واللقطاء ، وخصص لهذه المنشآت الانسانية الأموال الضخمة . كذلك اهتم بنشر التعليم فبنى مدرسة ، واحتضن المدرسين والعلماء وأكرمهم وأبرهم ، فلازموه وأضفوا على مجتمعه مسحة جميلة من الثقافة الدينية والأدبية .

وأعجبنى منه كانسان ، ما كان يتحلى به من الشعور الرقيق والعواطف الكريمة ، والانسانية الراقية ؛ فقد كان يرعى نزلاء الملاجىء ويتفقدهم بنفسه ، ويسألهم عما ينقصهم فيستكمله ، وعما يزعجهم فيزيله ، فكان هذا الشعور الانسانى الكريم ما هزنى منه واستثار اعجابى كما سيستثير اعجاب وتقدير قارىء سيرته . بالاضافة الى أنواع البر المالى الذى كان يمطره على الفقراء والمحتاجين دون أن يسألوه الحافا ، فى المناسبات الدينية وغيرها ، فكان بره متواصلا على مدار السنين التى عاشها حاكما على شعبه . ثم تعدت انسانيته الى أبعد من هذا ، حيث أنشأ فى « اربل » دارا للضيافة ، يستضيف بها كل عابر سبيل يمر بمدينته ، فيريح نفسه ودابته فى هذه الدار — بلا مقابل — ما شاء له أن يستريح ، ثم يواصل بعد ذلك سفره مشكورا بعد أن يتزود — بلا مقابل أيضا — بما يكفيه أثناء سفره حتى يصل الى المكان الذى يقصده .

يضاف الى ذلك ، حياته الخاصة والعامة ، ففى شقيها كان يحيا حياة البساطة ، بل هى حياة أقرب الى التصوف منها الى أية حياة أخرى ، فلم يكن يهتم بمظاهر الملك والامارة ، وما كان يقيم فى قصر فاخر أو فى دار مرفهة ، وانما كانت اقامته اما فى قلعة المدينة أو فى دار من دور الصوفية ، وقد حببت اليه ثقافته الدينية هذه الحياة المبسطة الرضية ، وكانت أحلى أوقاته وأعذبها ، هى تلك التى يقضيها مع العلماء من فقهاء ومحدثين

وصوفية ، أو تلك التى يقضيها على صهوة جواده يخوض غمار المعارك ضد الصليبيين بالشام .

وبعد كل هذا ، قد أعجبنى من مظفر الدين دوره الكبير الذى أداه مع صلاح الدين فى حركة الجهاد المضنى ضد الصليبيين — وقد كان الصليبيون مشكلة الساعة بالنسبة للعالم الاسلامى كله فى ذلك الوقت — فساهم فى الانتصارات الصلاحية الكبيرة على الصيلبيين .

واذا كان هذا الكتاب مخصصا للحديث عن مظفر الدين ، فانه يتحدث أيضا عن أسرته : والده وأخيه ؛ ذلك أنه لا يستساغ الحديث عن مظفر الدين دون التعريف بأسرته ، خاصة وأن والده كان أول من حكم مدينة « اربل » ، ثم حكمها أخوه زين الدين يوسف ، ثم حكمها هو من بعده . فضلا عن أن والده وأخاه شاركا فى أحداث العصر ، فكان لوالده دور كبير فى ظهور دولة كبيرة هى دولة بنى زنكى فى الموصل والشام ومصر . فمن الضرورى اذن ، أن نفرد فصلا خاصا عن والد مظفر الدين وأخيه ، وما أدياه لعصرهما من خدمات .

وأرجو بعد هذا ، أن أكون قد وفقت فى تقديم ما يفيد .

وعلى الله قصد السبيل .

عبد القادر أحمد طليمات

مصر الجديدة فى { رجب ١٣٨٣ / نوفمبر ١٩٦٣ }

الفصل الأول

مولد إمارة

كان الكيان السياسى للعالم الاسلامى فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) قائما على وحدات اقليمية كبيرة وعلى وحدات مدينية صغيرة . وأبرز ما نراه من هذه الوحدات الاقليمية والمدينية هو ما يقع غرب بغداد مركز الخلافة : فى العراق ، والجزيرة ، والشام [1] . أما ما يقع شرق بغداد : فى فارس ، وخراسان وغيرهما : فان الوحدات الاقليمية كانت هى الغالبة . وهذا هو المظهر الواضح لتفكك الدولة الاسلامية الكبرى الى دول ودويلات متعددة .

وقد بدأ تفكك وحدة العالم الاسلامى منذ العصر العباسى الثانى ، حيث ظهر الولاة المتغلبون بسبب ضعف الخلفاء ، فأنشأوا الدول الاقليمية الكبرى ، أو ما نسميه اليوم حكم الأسرات ، فكان كل اقليم تحكمه أسرة متغلبة لا يربطها بالخلافة الا الولاء الدينى ، أما علاقة الأسر بعضها ببعض فهى علاقة التنافس والتقاتل من أجل التوسع والامتلاك .

---

(١) المقصود بالشام هنا ، سوريا ولبنان وفلسطين .

ويحدد المؤرخ المعاصر ابن مسكويه ، سنة ٣٢٤ ، بأنها السنة التي بلغ فيها التفكك أقصاه ، فقد كانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدين بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن الياس ، والرى وأصبهان والجبل يتنازع عليها كل من ركن الدولة بن بويه ووشمكير ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والموصل ودياربكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الأخشيد ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى ، والمغرب وافريقية فى يد الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله ، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى [١] .

وظل الوضع هكذا حتى ظهرت الأسرة السلجوقية سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، فأخذت على عاتقها حكم المشرق الاسلامى نيابة عن الخلفاء العباسيين ، فاستطاعت أن تخضع معظم الأقاليم المشرقية [٢] الى سلطانها ، وبذلك عادت وحدة هذا الجزء من العالم الاسلامى الى ما كانت عليه الى حد ما ، وبخاصة فى عهد السلطان ملكشاه أعظم سلاطين بنى سجلوق (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ = ١٠٤٢ — ١٠٩٢ م) ، ولكن ما أن مات ملكشاه حتى عادت الوحدة الى التفكك من جديد ، ولكن بصورة أوسع ، ففضلا عن عودة الدول الاقليمية — أو دول

(١) تجارب الأمم : جـ ٥/ص ٣٥٣ .
(٢) المقصود بالمشرق هنا ، مايقع شرق البحر المتوسط .

الأسر — مرة أخرى فانه ظهرت الى جانبها دول المدن فى داخل الدول الاقليمية ، أى أن الكثير من هذه الأقاليم تفتتت الى وحدات سياسية صغيرة ، يحكم كل وحدة أمير ، حكما مستقلا .

وكان نظام الاقطاع العسكرى الذى عممه السلاجقة ابان حكمهم هو السبب فى ظهور دويلات المدن ، فقد اتبع السلاجقة نظام الاقطاع ، لكى يقوم الاقطاع مقام العطاء والمرتبات التى كانت تدفع لولاة الأقاليم ولقواد الجند .

وكان لهذا النظام امتيازات كبيرة للمقطع ، أهمها أنه كان له حق حكم الولاية أو الاقليم حكما داخليا مستقلا ، وله تبعا لذلك أن يقطع مدن الولاية لقواد جنده وكبار موظفيها عوضا عن دفع مرتبات لهم . فلما مات السلطان ملكشاه ، كان على الأقاليم ولاة اقطاعيون ، فانتهز معظم الولاة فرصة النزاعات الأسرية بين خلفاء ملكشاه على السلطنة والملك ، فاستقل كل وال بولايته ، وقطع صلته بالسلطة المركزية العليا ، ولا يدين بالطاعة الا للخليفة ، وهى طاعة دينية نظرا لمركز الخليفة الدينى ، حتى اذا ما انتصف القرن السادس ، كان العالم الاسلامى مشرقه ومغربه عبارة عن ولايات اقليمية ومدينية .

وليس أدل على ذلك من ظهور مدينة اربل المغمورة ، كوحدة سياسية مستقلة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وكان ظهورها عن طريق اقطاع اقليمى هو اقليم الموصل ، فقد كانت قبل ظهورها كوحدة سياسية قائمة بنفسها ، مجرد مدينة مغمورة من ضمن اقليم الموصل ، فأقطعها أمير الاقليم عماد الدين زنكى لقائده

زين الدين على بن بكتكين فى سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) ، فتحولت المدينة بذلك الى امارة صغيرة لها حكم ذاتى داخلى فقط ، يدين أميرها لأمير الموصل ، الا أنه أصبح للمدينة كيان سياسى يختلف عن كيانها السابق ، فأصبحت تسهم فى الأحداث الجارية ، بعد وفاة زين الدين على ، وولاية ابنه زين الدين يوسف عليها ، ففى عهده قامت حروب المنافسة بين صلاح الدين الأيوبى وبين بنى زنكى بعد وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى سنة ٥٦٩ (١١٧٣ م) ، فرأى زين الدين يوسف أن من مصلحته ومصلحة امارته أن يحول تبعيته من الموصل الى صلاح الدين ، وان كان هذا التحول لم يغير من وضعه شيئا ، فقد ظل فى مركز التابع لصلاح الدين ، مقيدا بسياسته لا يحيد عنها ، الا أنه أثر فى ميزان القوى بين الخصمين المتنافسين ، حيث أضعف قوة الموصل ، بينما زاد من قوة خصمها . ثم لما توفى زين الدين يوسف وخلفه أخوه مظفر الدين — وكانت امارته عليها عن طريق صلاح الدين بصفته السيد الأول للمدينة — استمر مظفر الدين على ولائه لصلاح الدين ، غير أن دور المدينة فى عهد مظفر الدين كان أخطر وأهم ، بسبب اسهام مظفر الدين فى الحروب الصليبية مع صلاح الدين اسهاما كبيرا .

ثم تغير وضع المدينة تماما بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، بحيث تحولت من وحدة سياسية تابعة الى وحدة سياسية مستقلة استقلالا كاملا فى سياستها الداخلية والخارجية على السواء يتصرف صاحبها مظفر الدين بوحى من مصالحه

ومصالح مدينته ، وقد ساعده علـى هذا التحول تفكك دولة صلاح الدين الموحدة بعد وفاته ، بسبب ما حدث بين أبناء الأسرة الأيوبية خلفاء صلاح الدين من التنازع والحروب من أجـل السلطنة والملك — كما حـدث بين أبنـاء الأسرة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه ، وكما حدث بين أسرة بنى زنكى بعد وفاة نور الدين محمود — فاستقل كل أيوبى بمدينته التى كان يقوم على حكمها أيام صلاح الدين ، وبذلك تفككت الدولة الأيوبية وتحولت الى دويلات مدينية ، فاقليم الشام — مثلا — بعد أن كان موحد الأجزاء والادارة على عهد صلاح الدين ، تفكك بعد وفاته الى دويلات مدينية ، ففى دمشق حاكم ، وفى حلب حاكم آخر ، وفى حمص حاكم ثالث ، وفى الجزيرة حاكم رابع ، ففقد الاقليم بذلك وحدته ، واذا عرفنا أن مصر كان لها حاكمها الأيوبى الخاص بها ، تبين لنا مدى تفكك الدولة الأيوبية الموحدة ، علاوة على ما ترتب على هذا التفكك من نتائج ، فقد كان كل حاكم لا يعمل الا بما فيه مصلحته الخاصة ومصلحة مدينته ، دون العمل للمصلحة العامة للاقليم كله ، فضـلا عن حروب المنافسة التى كانت تحدث بينهم .

فانتهز مظفر الدين فرصة النزاع الأسرى الأيوبى فاستقل بمدينته وحولها الى امارة . ثم اتخذ لنفسه لقب الملك المعظم .

وعلى ذلك ، فان امارة اربل ولدت فى عصر ، أصدق وصف له ، هو « عصر الغلبة » ، فقد كان صاحب كل وحدة سياسية كبيرة أو صغيرة يجد فى نفسه المقدرة الحربية على التوسع على

حساب جيرانه لا يتوانى فى شن الحرب على المستضعفين منهم ، وقد حاول مظفر الدين نفسه أن يجارى عصره فى التوسع عن طريق الغلبة مرتين ، ولكنه فشل فى كليهما . فأما المرة الأولى فحين كان أميرا على حران (كما سيأتى فى الفصل الثالث) فحاول أن يستولى على مدينة حلب فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ولكنه فشل لضعف قوته فى ذلك الوقت وعــدم مواتاة الظروف له وأما المرة الثانية ، فقد كانت بعد أن أصبح أميراً على اربل ، وفشل فيها أيضا ، ولكن فشله فى هذه المرة — على ما يبدو — لم يكن عن ضعف فيه ، وانما كان مرجعه وازع خلقى .

كذلك تعرض مظفر الدين لأطماع الغير فى امارته ، فقد طمع فيها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وطمع فيها الأشرف موسى صاحب دمشق ، كذلك طمع فيها جلال الدين خوارزم شاه ، وأخــيرا طمع فيها التتار ، ولكنه استطاع أن ينقذ امارته من براثنهم جميعا ، بالحرب أحيــانا ، وبمعاهدات الصداقة أحيانا أخرى . وسوف نتعرض لكل هذا بالتفصيل فيما يلى من الكتاب .

الفصل الثانى

أسرة مُظَفَّر الدين كُوكُبُورى

نشأ مظفر الدين فى أسرة تركمانية الجنس تتكون من أبيه زين الدين على بن بكتكين بن محمد وأخيه الأصغر زين الدين يوسف . وقد شاهد مظفر الدين من أمجاد أبيه ما كان له أثره فى حياته العامة والخاصة ، فقد بلغ والده من المجد والسؤدد مكانة عالية . حتى أصبح محط أنظار أهل عصره فى المنطقة التى كان يعيش فى محيطها ، وهى الموصل والجزيرة واربل .

ويحدثنا المؤرخون : بأن زين الدين عليا ، كان فى مبدا أمره مملوكا من مماليك قسيم الدولة آقسنقر الحاجب أمير حلب ، ولكن جاء الوقت الذى أصبح فيه هذا المملوك سيدا خطيرا من سادات مدينة الموصل ، يخطب ملوكها وده ، ويعتمدون عليه فى ادارة مملكتهم وقيادة جيوشهم .

وقسيم الدولة آقسنقر ، الذى كان زين الدين من مماليكه ، كان أحد كبار قواد السلطان ملكشاه السلجوقى ومن أخص أصحابه ، وفى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) استولى السلطان ملكشاه على مدينة حلب وكانت تابعة للخلافة الفاطمية فى مصر ، وكان

قسيم الدولة يرافق السلطان فى مسيره الى حلب ، فأقطعه ملكشاه المدينة وأعمالها ليقوم على حكمها ، فتحول قسيم الدولة بذلك من قائد فى جيش الى حاكم مدينة عظيمة كمدينة حلب وما يتبعها من مدن وقرى ، فانتقل اليها قسيم الدولة بأسرته وجنده وغلمانه — ومنهم زين الدين على — واستقر بها (١) .

ولا نعرف على وجه التحديد كيف ومتى دخل على بن بكتكين فى ملك قسيم الدولة . ولذلك نرجح — فيما يختص بكيفية دخوله فى خدمته — أن ذلك حدث اما عن طريق الأسر فى احدى غزواته الحربية ، واما عن طريق الشراء . أما متى دخل فى ملك قسيم الدولة ، فان من الصعوبة بمكان تحديد السنة ، وانما الذى نرجحه أن عمر زين الدين كان فى سنة ٤٧٩ نحو ست عشرة سنة ، اعتماداً على ما يذكره المؤرخون بأنه توفى سنة ٥٦٣ وله من العمر نحو مائة عام (٢) ، فيكون مولده اذن حوالى سنة ٤٦٣ ، فاذا عرفنا أن قسيم الدولة انتقل الى حلب بغلمانه وأهله فى سنة ٤٧٩ ، فبعملية حسابية بسيطة بين سنتى مولد علىّ وانتقال قسيم الدولة الى حلب ، نجد أن عمره كان نحو ست عشرة سنة .

ويبدو أن زين الدين عليا ، كان له من الميزات ما حببه الى سيده ، فقربه اليه ، وأضفى عليه الكثير من العناية والرعاية ، مما جعل زين الدين يحفظ له فضله فى شخص ابنه عماد الدين

---

(١) التاريخ الباهر ، ص/٤/٦ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج/٣/ص/٢٧٠ .

زنكى ، فقد لزم علىّ ، عماد الدين بعد مقتل والده ولم يفارقه حتى وفاته ، أى وفاة عماد الدين .

ظل علىّ — وقد اتخذ لنفسه فيما بعد لقب زين الدين — فى خدمة قسيم الدولة حتى مقتله فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) فى حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تتش صاحب دمشق [١] .

وأصبح عماد الدين — وكان له من العمر نحو عشر سنين — وحيدا ليس له من يأخذ بيـده أو يقوم على شئونه من أفراد أسرته ، غير أنه كان لوالده بعض الأصدقاء المخلصين ، فاحتضنه واحد بعد واحد ، هو وغلمان أبيه ومنهم زين الدين ، حتى اذا اشتد عوده ، اختار القتال مهنة له فالتحق بجيوش أمراء الموصل ، وكان يلازمه صاحبه ورفيقه علي — الذى اختار القتال أيضا مهنة له — فكانا يتلازمان ولا يفارق أحدهما الآخر ، فأخذت الصداقة تتوثق بينهما كلما امتد بهما العمر .

وقد حارب كل من عماد الدين وزين الدين ، وهما فى خدمة أمراء الموصل ، فى عشرات المعارك ، سواء تلك التى كانت تدور فى حروب المنافسة بين أمراء الموصل وبين جيرانهم الأمـراء المسلمين ، أو تلك التى كانت تقـوم بينهم وبين الصليبيين فى الشام ، فتمرس كل منهما فى القتال ، وأصبحا من رجال الحرب المشهورين فى عصرهـما .

ولكن حين بلغ عماد الدين الأربعين من عمـره ، وذلك فى

---

(١) التاريخ الباهر ، ص/١٥ .

سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ضاق ذرعا بعمله كمحارب يحركه أمير الموصل الذى يعمل فى خدمته كيف يشاء ومتى شاء ، فلا يملك لنفسه حرية التصرف والعمل ، وانما يتنقل من ميدان قتال الى ميدان آخر بحسب ما تقتضيه مصالح صاحب الموصل وظروف الأحداث . فهو آنا يقاتل فى الجزيرة ، ومرة فى الشام ، وأخرى فى العراق ، ونفس عماد الدين الطموحة ترفض الاذعان لأمير يتحكم فيه وفى ارادته ، فهو يريد أن يتحرر من كل هذا ، ولكن كيف السبيل الى هذا التحرر ؟ وفى ساعة ضيق كان يجلس مع بعض خلصائه فى الجيش ، ومنهم صاحبه زين الدين على ، فصارح عماد الدين أصحابه بما يثور فى نفسه ، قال : قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم قد يملك البلاد (أى الموصل) أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة هو بالعراق : وتارة بالموصل ، وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام ، فبم تشيرون أن أصنع ؟ فسكت أصحابه لا يحيرون جوابا ما عدا زين الدين ، فانه أجابه : يا مولانا ، التركمان تقول فى أمثالها : اذا أراد الانسان أن يضع على رأسه حجرا فليكن من جبل كبير ، ونحن اذا كان لابد أن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى . ونصيحة زين الدين على هذه ، تدل بوضوح على أنه كان أيضا ذا نفس طموحة كصاحبه عماد الدين ، وأن عوامل الضيق كانت تثور فى نفسه كما كانت تثور عند صاحبه ، وأنه عزوف عن الصغائر ، ولعل ملازمة الرجلين كل منهما للآخر سببها هذا التجاوب بينهما ، فكل منهما ذو نفس كبيرة وآمال واسعة ، ولذلك نرى عماد الدين

يتقبل اقتراح صاحبه بارتياح ، ثم وضع الاقتراح موضع التنفيذ ، فترك خدمة قسيم الدولة آقسنقر البرسقى أمير الموصل ، واتجه مع صاحبه الى السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقى سلطان العراق — وكان بهمذان — وعرض عليه الدخول فى خدمته ، فرحب به السلطان محمود لسابق معرفته بوالده وخدمته للأسرة السلجوقية على عهد أبيه ملكشاه ، بالاضافة الى ما سمعه عن شجاعة عماد الدين نفسه ، وبطولته فى حروبه ضد الصليبيين بالشام ، فألحقه فى جيشه وزوجه أرملة أحد كبار قواده ، ثم أقطعه مدينتى البصرة وواسط ، فسار الى واسط وفى رفقته زين الدين على . ولما رأى السلطان شجاعة عماد الدين ومهارته الحربية فى الحروب التى خاضها معه ضد الخليفة العباسى ولاه شحنكية [1] بغداد . وفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) انتقل عماد الدين من أمير صغير لولايتين صغيرتين الى أمير كبير على امارة من كبريات الامارات الاسلامية ، وهى امارة الموصل .

فقد كانت الموصل حتى سنة ٥٢٠ هـ تحت حكم قسيم الدولة آقسنقر البرسقى ، وكانت الموصل فى ذلك الوقت تتزعم حركة المقاومة الاسلامية للغزو الصليبى بالشام ، وقد حدث أن قتل البرسقى فى تلك السنة غدرا [2] ، فخلفه ابنه عز الدين مسعود ، ولكن بدلا من أن يوجه مسعود مجهوده الحربى ضد

---

(١) الشحنة : لفظ فارسى ، معناه : محافظ المدينة ، أو نائب الملك أو رئيس البوليس والمعنى الأول هو المقصود هنا .

(٢) الكامل ، جـ/٨/ص/٣٢٠ .

الصليبيين كما كان يفعل أبوه ، فانه وجهه ضـد مدينة دمشق الاسلامية طمعا فى الاستيلاء عليها [1] ، فخرج بجيش الموصل اليها ، ومرّ وهو فى طريقه الى دمشق على مدينة الرحبة فحاصرها واستولى عليها ، ثم أخذ يتجهز لكى يواصل مسيره الى دمشق ، الا أنه مرض مرضا شـديدا توفى به على الاثر ، فأقام نائب مسعود بالموصل ، ابنا قاصرا لمسعود أميراً عليها [2] .

ولما كانت الموصـل تقـع تحت حكم السـلطان محمـود السلجوقى ، كان لابد لنائب الموصل من أن يحصل على موافقة السلطان على احلال الطفل مكان أبيه فى الامارة ، ومن ثم أرسل رسـولين الى السلطان للحصول على هذه الموافقة ، فلما علم عماد الدين وهو ببغداد بذلك ، اتصل بالرسولين بواسطة بعض أصدقائه يعرض عليهما أن يتولى هو امرة الموصل فى مقـابل اعطائهما اقطاعات فى الموصـل اذا تمت ولايتـه عليها ، فأجابه الرسولان الى ذلك ، وقد دفعهما الى الاجابة أيضا كراهتهما لنائب الموصل وتخوفهما منه . ولما اجتمعا بالسلطان نجحا فى اقناعه بتولية عمـاد الدين امرة الموصل بدلا من ابن مسعود القاصر ، متذرعين بدقة موقف الموصل بالنسبة لخطورة الصليبيين، وأن زعامة الموصل لحركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين تتطلب أن يولى عليها رجل ذو خبرة وكفاءة حربية ممتازة ، وأن عماد الدين

---

(١) طمع مسعود بدمشق هو أحد الأمثلة لـ « عصر الغلبه » الذى ذكرناه فى الفصل السابق .

(٢) الكامل ، ج ٨/ص/٣٢٤ .

هو خير من يتولى امرة الموصل ، فاقتنع السلطان بحجتهما ، وولى عماد الدين أميرا عليها ، فسار عماد الدين اليها ، وفى رفقته صاحبه زين الدين على [1] .

وما أن استقر عماد الدين فى الموصل ، حتى كافأ صاحبه زين الدين مكافأة طيبة ، بأن جعله من كبار قواد جيشه ، وقربه منه حتى أصبح من أقرب الناس اليه ، اذ بفضل مشورته المباركة بدخوله فى خدمة السلطان محمود ، وصل الى ما وصل اليه من مكانة رفيعة بعد أن كان قائدا أجيرا فى خدمة أمراء الموصل .

ومنذ أن عين زين الدين قائدا كبيرا فى جيش عماد الدين أصبحت حياته كلها حياة حرب وكفاح فى ميادين القتال ، أسوة بحياة صاحبه عماد الدين .

فقد كان عماد الدين ذا نفس طموحة وآمال واسعة ، وكان طموحه يمتد الى انشاء دولة كبيرة تحمل اسمه واسم أبنائه من بعده ، أسوة بالأسر الاسلامية الحاكمة العديدة فى دولة الخلافة ، ففى الشام أسرة بنى طغدكين ومقرها دمشق ، وقد كان طغدكين — مثله — قائدا فى جيش صاحبها تاج الدولة تتش السلجوقى ، ثم استطاع بمواهبه أن يبرز وأن ينشىء له مكانة ممتازة بدمشق ، فلما مات تاج الدولة ومن بعده ابنه دقاق ، نصّب نفسه حاكما على المدينة وما يتبعها من مدن ، ونال موافقة كل من الخليفة والسلطان على ذلك ، ثم أورث الحكم لأبنائه

---

(١) الكامل ، جـ ٨/ص/٣٢٤ .

من بعده ، فلماذا لا يكون عماد الدين مثل طغدكين وينشىء دولة تحمل اسمه واسم أبنائه ؟ يضاف الى ذلك الخطر الصليبى الجاثم فى قلب العالم الاسلامى ، أعنى الشام ، وعماد الدين يعد نفسه — كمسلم — مسئولا عن ازاحة هذا الخطر ، ومن ثم قرر أن يكرس حياته لجهاد الصليبيين حتى يطهر أرض الاسلام منهم ، ولكنه فى الوقت نفسه ، يعلم أنه لا يمكن تحقيق ذلك الا بوجود قوة كبيرة موحدة يستطيع بها مواجهة الصليبيين ، وقوة الموصل وحدها لا تكفى لانجاز هذه المهمة ، وتحالفه مع القوى الاسلامية المجاورة له فى منطقة الجزيرة والشام لا تجدى نفعا ، فقد جرت محاولات سابقة لمثل هذا التحالف وباءت كلها بالفشل ، وسبب ذلك ما كانت عليه الجزيرة والشام من تفكك وانحلال ، بالاضافة الى روح المنافسة الطاغية التى كانت تسود أمراء المنطقة ، فكل أمير طامع فيما يملكه جاره يحاول جاهدا الاستيلاء على بلاده ، فكان الحسد المستحكم بينهم ، يحول بينهم وبين تكوين حلف جدّى يقوم أساسا على الثقــة المتبــادلة فيما بينهم جميعا ، وعماد الدين يعلم هذا جيدا حين كان يعمل فى جيوش الموصل ، وحين كان يحارب فى صفوف الجيوش المتحالفة ، فهو خبير بها ، لذلك وجد أن الطريق الأمثل لتكوين قوة كبيرة متحدة لمحاربة الصليبيين ، هو جمع الامارات العديدة المبعثرة فى منطقة الجزيرة تحت حكمه ، فيضع قواتها المحاربة تحت قيادته ، ويضمن فى الوقت نفسه موردا ثابتا لزيادة أعداد جيشه بما يجنده من أبناء الامارات ، وكذلك يضمن موارد تموينية ثابتة لجيوشــه من

نزاعاتها ، وهكذا ساعدت الظروف الصليبية عماد الدين ومهدت له الفرصة لتحقيق مشروعه فى بناء دولة تحمل اسمه .

وعلى ذلك ، كان على عماد الدين أن يحارب فى جبهتين ، الجبهة الاسلامية فى الجزيرة والشام لتكوين دولته ، والجبهة الصليبية فى الجزيرة والشام أيضا لتطهير البلاد منهم .

وقد ألقى عماد الدين عبء انشاء الدولة فى قسمها الجزرى على عاتق زين الدين ، فقد كان زين الدين هو قائد الجيوش التى قامت بعملية توحيد امارات الجزيرة ، ففتح بنفسه واشترك مع عماد الدين فى فتح كثير من هذه البلاد ، كبلاد الأكراد الهكارية وقلاعها ، وبلاد الأكراد الحميدية وقلاعها [1] .

كذلك اشترك زين الدين فى حروب عماد الدين ضد الخلفاء العباسيين وضد السلاطين السلاجقة ، فقد كانت علاقة عماد الدين بهم جميعا تحددها مصالحه الخاصة والعامة ، فهو أحيانا مطيع للخلفاء ينتصر لهم ضد السلاجقة ، وأحيانا أخرى معاند لهم ينتصر للسلاطين ضدهم ، أو هو ينتهز فرصة حدوث خلاف بين الخليفة والسلطان فيعمل لحسابه الخاص ؛ من ذلك موقفه من الملك مسعود السلجوقى ، فقد انتهز فرصة النزاع بين الملك وبين الخليفة المسترشد بالله على السلطنة فى سنة ٥٢٦ هـ ، فزحف على مدينة اربل — وهى من أملاك الملك مسعود — وحاصرها للاستيلاء عليها ، فلم يستطع الملك مسعود الدفاع عنها ، فساوم

(١) التاريخ الباهر ، ص/١٣٥ .

عماد الدين عليها ، واتفق معه على تسليمها له فى مقابل أن يعاونه عسكريا ضد الخليفة لكى يتولى سلطنة العراق ، فقبل عماد الدين ذلك ، واشترك معه فى حرب الخليفة ، وتسلم مدينة اربل وضمها الى ممتلكاته ، ثم أقطعها لزين الدين على[1] ، فسلمها زين الدين لنائب له ليقوم على حكمها وادارة شئونها ، وفى سنة ٥٤٩ ، سلمها لمملوكه مجاهد الدين قايماز ليحكمها نيابة عنه .

واشترك زين الدين أيضا مع عماد الدين فى تطهير اقليم الجزيرة من الصليبيين ، فقد كان لهؤلاء الغزاة فى هذا الاقليم مدينة الرها ، وكانت هذه المدينة أول مدينة اسلامية حولهـا الصليبيون الى امارة صليبية ، وأقاموها فى بلاد الاسلام فى أول غزوتهم سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) ، وظلت المدينة فى يدهم حتى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) بالاضافة الى ما احتلوه من البـلاد المجاورة لها ، وقد صبر عليهم عماد الدين حتى استكمل قوته ، ووثق من نفسه بأنه أصبح من القوة بحيث يستطيع انتزاعها منهم ، فعزم على استردادها فى تلك السنة ، فجرد عليها جيوشه ، وكان هو الذى يقود المعركة بنفسه ، ويعاونه فيها كبار قواده ومنهم زين الدين على . وأرى أنه لا بأس من ايراد وصـف للمعركة بقلم مؤرخ معاصر لها هو ابن القلانسى ليقف القارىء على المجهودات الضخمة التى كان يبذلها المسلمون لاسـترداد البـلاد من الصليبيين ، والصراع العنيف الذى كان يدور بين الفريقين فى المعارك ذات الأثر الفعال . قال ابن القلانسى فى أخبار سنة ٥٣٩ هـ

(١) مفرج الكروب ، جـ ١ / ص ٩٧ .

ان عماد الدين « فتح مدينة الرها بالسيف ، مع ما هى عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها ، والحماية على طالبيها » ثم يقول ، ان عماد الدين استدعى جميع التركمان فى الجزيرة ، « فوصل اليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير ، بحيث أحاطوا بها (أى بالرها) من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصل اليها من الميرة والأقوات ، وأن الطائر لا يكاد يقرب منها خوفا على نفسه من صوائب سهام منازليها ، ويقظة المضيقين عليها ، ونصب على أسوارها المجانيق [1] ترمى عليها دائما والمحاربة لأهلها ، وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقوب ، فنقبوا فى عدة مواضع عرفوا أمرها ، وتيقنوا نفعها وضرها ، وما زالوا على هذه الحال فى الايغال فى النقب ، والتمادى فى بطن الأرض ، الى أن وصلوا الى تحت أساس أبراج السور ، فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة ، وفرغوا من ذلك ولم يبق غير اطلاق النار فيها ، فاستأذنوا عماد الدين أتابك فى ذلك فأذن لهم بعد أن دخل فى النقب وشاهد حاله ، واستعظم كونه وهاله ، فلما أطلقت النار فى تعليق النقوب ، تمكنت من أخشابها وأبادتها ، فوقع السور فى الحال ، وهجم المسلمون على البلد ؛

(١) جمع منجنيق : وهو آلة حربية تستعمل لهدم أسوار المدينة المحاصرة • ويصفه القلقشندى فى كتابه (صبح الأعشى ، ج ٢/ص ١٤٤) بأنه «آلة خشب ، له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل وذنبه خفيف تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئا الا أهلكه» •

بعد أن قتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم »[1] . وهكذا سقطت امارة الرها ، أول حصن حصين أقامه الصليبيون فى أرض الاسلام ، وتحقق ما كان يتوقعه عماد الدين من سقوطها ، فان المدن المغتصبة فى اقليم الجزيرة ما لبثت أن سقطت فى يده الواحدة تلو الأخرى ، حتى أنه لم يبق صليبى واحد فى أرض الجزيرة .

ثم انتقل زين الدين من ميدان الحرب — مؤقتا — ليدخل ميدان العمل الادارى ، وذلك أن مدينة ألبيرة — وهى من بلاد الجزيرة — كان معظم سكانها من الأرمن ، وكان الأرمن ضالعين مع الصليبيين ضد المسلمين ، فلما انتهى عماد الدين من أمر الرها وغيرها ، عطف على مدينة ألبيرة ليفتحها ويدخلها تحت حكمه . وبينما كان يحاصرها بجيشه ، جاءه نبأ مقتل نصير الدين جقر نائبه فى الموصل ، فجزع عماد الدين بادىء ذى بدء لفقده رجلا فذا من رجاله ، كان يعتمد عليه ويأمنه على الموصل حين يتركها لفترة من الزمن تطول أو تقصر ، ولكنه لم يلبث أن هدأ روعه حين تذكر أن معه رجلا لا يقل عن نصير الدين مقدرة وكفاءة ، هو صاحبه زين الدين على ، وكان زين الدين مع عماد الدين على حصار ألبيرة ، فأعفاه عماد الدين من القتال وأرسله على جناح السرعة ليحل محل نصير الدين فى نيابة الموصل ويضبط أمورها ، فسار زين الدين اليها وشغل منصب نصير الدين ، فأخذ الناس يتساءلون عن سياسة زين الدين وكيف تكون ، هل هى سياسة القسوة والعنف التى كان يتبعها

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

قصير الدين ، أم أنه سيكون أشد قسوة منه وعنفا بحكم مهنته كمقاتل ، ولكن زين الدين خيب ظن المتشائمين ، حيث ساس الناس سياسة أرضت الجميع ، فقد اتبع سياسة العدل واللين ، فحمده الناس وشكروا له حسن معاملته لهم (١) .

وفى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) قتل عماد الدين زنكى وهو يحاصر قلعة جعبر ، وكان زين الدين نائبا عنه فى الموصل ، وكادت أن تحدث مأساة يفقد بسببها أبناء عماد الدين دولة أبيهم ، لولا أن تدخل كبار رجال الدولة : زين الدين على ، وجمال الدين محمد ، وصلاح الدين الياغيسانى ، فعملوا على حفظ الدولة لأبناء عماد الدين .

وقبل أن نذكر دور زين الدين على فى الدولة الزنكية الجديدة ، نريد أن نذكر ماذا كان نصيب زين الدين من عماد الدين مكافأة له على جهوده الكبيرة التى بذلها من أجله ، والجواب على ذلك أن عماد الدين كافأ صاحبه ورفيقه مكافأة جليلة ، حيث أقطعه كثيرا من المدن والقلاع مثل مدن الأكراد الهكارية والحميدية وقلاعها ، كذلك أقطعه مدينة اربل ، فأصبح زين الدين بذلك من الأمراء الكبار ، فكان لمتانة مركزه أثر كبير فى ازدياد نفوذه فى الموصل بعد عماد الدين .

ونعود الى زين الدين بعد مقتل عماد الدين ، فقد ذكرنا أن عماد الدين قتل وهو محاصر قلعة جعبر ، وكاد مقتله أن يخرج الدولة من أيدى أبنائه ، وذلك أنه كان مع عماد الدين على

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ٧٢ .

حصار جعبر الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقى ، فحدثته نفسه بأن يحل محل عماد الدين فى الدولة ، فأخذ يجمع حوله بعض قواد عماد الدين ويرغبهم بالعطاء والأموال حتى اجتمعوا عليه ، ولكن جمال الدين محمدا وزير عماد الدين وصلاح الدين الياغيسانى أحد قواده — وكانا مع عماد الدين على الحصار — استطاعا أن يمكرا بالملك ، فتظاهرا له بالطاعة ، وأقنعاه بالمسير معهما الى الموصل كملك عليها ، فسار معهما الى حيث لقى مصيره دون أن يحس به أحد .

وكان زين الدين قد أسرع بمجرد أن سمع بخبر مقتل عماد الدين ، فأرسل الى سيف الدين غازى بن عماد الدين — وكان بمدينة شهرزور — من أخبره بمقتل والده ويدعوه الى الموصل على جناح السرعة ليجلسه مكان أبيه ، فسار سيف الدين من شهرزور الى الموصل فدخلها واستقر بها [1] ، وهكذا حافظ زين الدين على استمرار الدولة التى كان هو سبب وجودها .

وبمقتل عماد الدين انقسمت دولته قسمين : القسم الغربى ويشمل الموصل والجزيرة وقد اختص به سيف الدين غازى ، والقسم الشرقى ويشمل حلب وما يتبعها من مدن الشام ، وقد اختص به نور الدين محمود — أخو سيف الدين .

وقد عرف سيف الدين غازى لزين الدين فضله فى حفظ الموصل للبيت الزنكى ، فأقطعه مدينة شهرزور الى جانب ما بيده

(١) التاريخ الباهر ، ص ٨٥ .

من البلاد ، فزادت بذلك اقطاعات زين الدين وعظمت قوته ، كذلك فوض سيف الدين اليه أمور الدولة كلها بالاشتراك مع وزيره جمال الدين محمد بن على الأصفهانى .

وكان سيف الدين يقدر مواهب زين الدين الحربية ، فقد سمع كثيرا عن شجاعته وبطولته وجرأته فى القتال أثناء أن كان يحارب مع أبيه ، فولاه امرة جيش الموصل ، أى قائدا عاما له [1] ، وبذلك اطمأن سيف الدين الى أنه سلم قياده الى رجل كفء ، يجمع بين الاخلاص والمقدرة الحربية .

واشترك زين الدين مع سيف الدين فى حروبه ، فان عماد الدين كان قد استولى من بنى أرتق أمراء دياربكر على بعض بلادهم ، مثل : دارا ، ونصيبين وغيرهما ، فلما قتل عماد الدين ، استرد بنو أرتق بعض هذه البلاد ، فعندما استقر سيف الدين فى الموصل ، خرج بجيشه وعلى رأسه قائده زين الدين ، وحارب الأراتقة ، واستعاد منهم ما استردوه من البلاد [2] .

ولم يطل العهد بسيف الدين غازى ، فقد توفى بعد نحو ثلاث سنوات من ملكه ، أى فى سنة ٥٤٤ هـ [3] (١١٤٩ م) .

ولما توفى سيف الدين ، لم يكن هناك من يخلفه على الملك من ذريته ، وكان قبل موته قد أوصى بملكه الى أخيه قطب الدين

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٢٤ .
(٢) التاريخ الباهر ، ص ٩٠ .
(٣) التاريخ الباهر ، ص ٩٢ .

مودود ، كذلك أوصى بأن يكون زين الدين المستشار الخاص له ، لما لزين الدين من الخبرة والتجارب الطويلة ، فضلا عما يمتاز به من الاخلاص للبيت الزنكي والوفاء له ، وأوصى أيضا بأن يظل جمال الدين وزيرا له ، فجمع زين الدين وجمال الدين — بعد وفاة سيف الدين — الأمـــراء والكبراء وقواد الجيش وحلّفاهم على الولاء لقطب الدين والطاعة له ، فلما تم ذلك كله ، عيّن قطب الدين ، زين الدين نائبا عنه فى بلاده كلها ، وعيّن جمال الدين وزيرا له (١) .

ظل زين الدين أميرا على جيش الموصل الى جانب مباشرته أمور الدولة ، فكان لذلك أكبر رجل فى الدولة بعد قطب الدين ، فقد « تمكن زين الدين فى دولة قطب الدين تمكنا عظيما » (٢) و « كان هو الحاكم فى الدولة » (٣) ، فكان لا يتبرم أمـــر الا بموافقته ، ومع ذلك لم يكن قطب الدين برما بقوة زين الدين ، ثقة منه بأنه يعمل لما فيه مصلحته ومصلحة دولته ، لذلك كان يكافئه بزيادة اقطاعه كلما استدعى الأمر ذلك .

واتبع قطب الدين سياسة والده عماد الدين مع الخليفة العباسى والسلاطين السلاجقة فى الخلافات التى كانت تنشب بينهم ، هذه السياسة التى كانت تكيفها مصالح الدولة والفائدة التى تعود عليه من ورائها .

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٣ ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٧.
(٢) التاريخ الباهر ، ص ٨٢ .
(٣) الكامل ، ج ٩/ص ٩٧ .

ففى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، اضطربت العلاقة بين الخليفة لأمر الله وبين الملك محمد بن السلطان محمود السلجوقى بسبب السلطنة أدت الى الحرب ، فلجأ الملك محمد الى قطب الدين مودود يطلب منه معونة عسكرية ، فأمده قطب الدين بجيش على رأسه زين الدين .

فقد طلب الملك السلجوقى محمد بن السلطان محمود صاحب اقليم الجبل : الرى وهمذان وغيرهما ، من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة فى بغداد ، فرفض الخليفة طلبه وخطب لعمه — عم الملك محمد — سليمان شاه ، واتفق الخليفة مع سليمان شاه على حرب الملك محمد وأمده بالمال والرجال ، فخرج سليمان شاه بالجيش الى قتال ابن أخيه ، وأرسل الى ملكشاه — أخى الملك محمد — لينضم اليه فاستجاب له ، فلما علم الملك محمد بذلك ، أرسل الى قطب الدين مودود والى زين الدين علىّ يطلب منهما مساعدته ، وبذل لهما بذولا سخية فى مقابل ذلك ، فاستجابا اليه ، وخرج زين الدين بجيش الموصل الى همذان لينضم الى الملك محمد ، ثم نزل على مدينة شهرزور لاراحة الجيش ، وبينما هو مقيم بها ، جاءته الأخبار بأن القتال قد نشب بين الملك محمد وسليمان شاه ، وأن الهزيمة قد حلت بسليمان شاه وأنه فى طريقه الى بغداد عن طريق شهرزور ، فرابط له زين الدين فى الطريق وقبض عليه وعاد به الى الموصل واعتقله بها ، وأرسل الى الملك محمد يبشره بنبأ القبض على سليمان شاه ، ويعده « المعاضدة له

على كل ما يريده منه والمساعدة له»[1] . وهكذا نرى أن قطب الدين وزين الدين قد وقفا الى جانب الملك محمد السلجوقى ضد الخليفة ، واذا كان ظاهر الخبر يشير الى أن القتال كان بين ملكين سلجوقيين ، الا أن الحقيقة ، أن القتال كان بين الخليفة وبين الملك السلجوقى محمد ، لأن الخليفة كان يساند سليمان شاه ، حيث أمده بالمال والرجال ، بل ان هناك خبرا يقول ، ان الخليفة خرج بنفسه حتى مدينة حلوان [2] تشجيعا لسليمان شاه .

وقد أثار تصرف الخليفة ، الملك محمدا ، لرفضه أولا الخطبة له ببغداد وتفضيله عمه سليمان شاه عليه ، ثم تحريضه سليمان شاه على حربه وقتاله ، فسار بجيشه الى بغداد لحصارها ومقاتلة الخليفة ، وأرسل الى قطب الدين وزين الدين مرة أخرى لكى يمداه بالجند ، فسار زين الدين الى بغداد يقود جيش الموصل وانضم الى الملك محمد ، فدار القتال عندئذ بين الجيوش المتحالفة وبين جيش الخليفة ، وكان نصيب زين الدين من القتال كبيرا ، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس ، فتر زين الدين عن القتال فجأة وتخلى عن الملك محمد ، الأمر الذى أدى الى اضعافه وأخر انتصاره على الخليفة مما أطمع أعداؤه به ، فاستولوا على همذان ، فلما سمع الملك محمد بذلك عاد اليها لاستردادها ، وبذلك فشلت حملته على بغداد . أما سبب فتور زين الدين عن

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٤٨ .

(٢) حلوان : مدينة فى آخر حدود سواد العراق مما يلى جبال بغداد (معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٣٢٢) .

القتال ، فان الخليفة كان يراسله سرا ويستميله اليه ، فاستجاب له زين الدين [1] ، ولم يذكر المؤرخون الثمن الذى قبضه زين الدين من الخليفة فى مقابل تخليه عن نصرة الملك محمد ، وان كان من المؤكد ، أنه لم يتخل عنه الا فى مقابل عوض ، قبضه مقدما أو وعد به .

وكاد زين الدين أن يصبح قائداً لجيش سلطان سلجوقى ، هو سليمان شاه نفسه الذى كان قد قبض عليه زين الدين ، ذلك أن الملك محمدا — ابن أخى سليمان شاه — توفى سنة ٥٥٤ ، فأرسل المسئولون فى حكومة الملك محمد فى همذان الى قطب الدين مودود يطلبون منه أن يرسل اليهم سليمان شاه ليولوه سلطانا مكان الملك محمد ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وأن يكون قطب الدين أتابكه ، أى المدبر لشئون سلطنته ، وأن يكون جمال الدين — وزير قطب الدين — وزيرا لسليمان شاه ، أما زين الدين على فيكون قائدا عاما لجيش السلطنة . وبعد أن تم الاتفاق بين قطب الدين وسليمان شاه على ذلك ، جهز قطب الدين جيشا بقيادة زين الدين لمرافقة سليمان شاه الى همذان مقر سلطنته ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت عساكرها لاستقبال سليمان شاه ، حتى تجمع لديه جيش ضخم ، فخافهم زين الدين على نفسه ، لأنه رأى من تسلطهم على سليمان شاه « واطراحهم الأدب معه

---

(١) الكامل ، جـ ٩ / ص ٥١ ، التاريخ الباهر ، ص ١١٤ .

ما أوجب الخوف منهم » ، فترك سليمان شاه وعاد بجيشه الى الموصل ، ففشل المشروع لهذا السبب [1] .

وكما كان زين الدين على موضع ثقة ملوك الموصل الذين كان يعمل فى خدمتهم ، فانه كان أيضا موضع ثقة نور الدين محمود صاحب الشام ، بحيث أقطعه نور الدين مدينة حران — وهى من أملاكه — لحمايتها ثقة منه به . فقد مرض نور الدين فى سنة ٥٥٤ مرضا شديدا فى حلب حتى أرجف بموته ، وكان أخوه نصر الدين أمير أميران فى مدينة حران ، وكان نور الدين قد أقطعها له ، فلما بلغ نصر الدين مرض أخيه وتوقع موته طمع فى أن يحل محله فى الحكم ، فسار من حران الى حلب للاستيلاء عليها ، ولما دخلها أغرى بعض قواد جيش أخيه وكبار رجال الدولة فيها بالانضمام اليه ، ولكن لما أخذ نور الدين يتقدم الى الشفاء ، ندم نصر الدين على ما أقدم عليه ، وتنبه الى خطئه الذى اقترفه فى حق أخيه ، فرحل عن حلب الى حران ، وكان قد بلغ نور الدين ما فعل أخوه ، فغضب منه وعزم على تأديبه بأخذ حران منه ، فلما أن تماثل للشفاء ، خرج بجيشه من حلب الى حران وحاصرها ، فلما اشتد الحصار على نصر الدين وعرف عجزه عن المقاومة فر من المدينة ، فاستولى نور الدين عليها . ويبدو أن نور الدين استعان بجيش الموصل وبقائده زين الدين علىّ ، حيث سلم نور الدين المدينة لزين الدين ليقوم على

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٤ .

حكمها [1] . وبذلك زادت اقطاعات زين الدين فازدادت لذلك قوته .

ولما كان نور الدين قد انفرد بحكم البلاد التى كانت لأبيه فى الشام ، فانه قد وقع عليه وحده عبء مقاتلة الصليبيين ومواصلة عملية استرداد البلاد منهم التى بدأها أبوه عماد الدين ، وكان عماد الدين قد استطاع أن يسترد كثيرا من البلاد منهم ، فكان على نور الدين أن يواصل عملية الاسترداد هذه من ناحية ، وأن يعمل على الاحتفاظ على ما بيده من البلاد من خطرهم من ناحية أخرى .

غير أنه كان هناك تعاون بين الأخوين نور الدين وقطب الدين، وقد اشترك قطب الدين بنفسه وبجيشه مع أخيه فى بعض المعارك الهامة ضد الصليبيين ، وكان لزين الدين دوره فى هذه المعارك بحكم قيادته العامة لجيش الموصل .

من ذلك ما حدث فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ، فقد عزم نور الدين على فتح مدينة حارم [2] ، وكانت بيد الصليبيين ، وسبب ذلك أنه فى تلك السنة قامت فتنة فى مصر بين وزيرها شاور ومنافس له على منصب الوزارة يقال له ضرغام ، وقد تمكن ضرغام من اقصاء شاور عن منصبه ، فهرب شاور الى الشام ولجأ الى نور الدين محمود يطلب مساعدته على اعادته الى

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ ، الكامل ، ج ٩/ص ٦٧ .

(٢) حارم : مدينة تقع غرب حلب قرب أنطاكية، وهى من أمنع الحصون وأحصنها (التاريخ الباهر ، ص ١٠٩) .

منصبه ، وبذل له فى سبيل هذا المسعى بذولا سخية ، وذلك
بأن تعهد له أن يعطيه ثلث ايراد مصر ، وأن يعطى جنده ثلثا
آخر علاوة على ما ينفقه عليهم أثناء اقامتهم فى مصر من النفقات
وحلف له على ذلك ، فرأى نور الدين أن يستجيب له ، فجرد
جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه الذى استطاع أن يتغلب على
ضرغام وأن يعيد شاور الى منصبه ، ولكن ما ان استقر شاور فى
الوزارة وضمن حياته بموت ضرغام ، حتى حنث فى يمينه
لنور الدين وأبى تنفيذ ما وعد به ، بل انه فعل أكثر من هذا ،
فقد أمر أسد الدين بمغادرة مصر فورا والعودة الى الشام
بجنده ، فغضب أسد الدين على شاور ، وعزم على ارغامه على
تنفيذ ما تعهد به بالقوة ، فلما رأى شاور الجدّ من أسد الدين ،
ثم رأى أنه لا يستطيع مقاومته ، لجأ الى الصليبيين يستنجد بهم ،
فأرسل اليهم واستدعاهم من الشام لكى يساعدوه على اخراج
أسد الدين من مصر ، وكان هذا الاستدعاءفرصة طيبة للصليبيين ،
فقد كانوا يتحرقون شوقا للاستيلاء على مصر ، وحاولوا ذلك
مرارا ، ولكنهم فشلوا فى كل محاولة قاموا بها ، فحين استدعاهم
شاور لمساعدته ، طمعوا فى تثبيت أقدامهم فيها بحجة حماية
شاور ، فساروا اليها فى جيش لجب ، واشتبكوا مع أسد الدين
— يظاهرهم شاور وجيشه — فى معارك عديدة ، انتهت
بما يشبه الهزيمة لأسد الدين ، وان كانت انتهت أيضا بتحطيم
أمل الصليبيين فى بقائهم فى مصر ، فقد انتهت الحرب بالاتفاق

بين أسد الدين وبين الصليبيين على أن يرحلوا جميعا عن مصر ، ويعود كل منهم الى بلاده [1] .

وكان نور الدين قد علم — وأسد الدين لايزال بمصر — بما حدث من شاور من غدر ومن استدعائه الصليبيين من الشام لحرب أسد الدين : فعزم على ازعاج الحملة الصليبية التى سارت الى مصر ، وذلك بالاغارة على البلاد التى بأيديهم بالشام ، فتضطر الحملة — أو بعضها — الى العودة الى الشام للدفاع عن بلادها ، وبذلك يخف ضغطهم على أسد الدين .

واختار نور الدين ميدان المعركة اختيارا موفقا ، اختار مدينة حارم ليوجه اليهم ضربته منها ، لما لها عند الصليبيين من مكانة دينية مقدسة .

وكان نور الدين يعلم أنه مقدم على عمل خطير لا يستطيع أن يقوم به وحده ، لأنه يعلم أن الصليبين جميعا لن يتركوه يستولى على حارم وانما سوف يقاتلونه قتالا مريرا ، لذلك لجأ الى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والى الأمراء المسلمين فى الجزيرة يدعوهم الى الاشتراك معه فى هذه الحرب ، فاستجاب له أخوه وسار اليه بجيش الموصل وعلى رأسه زين الدين على كذلك استجاب له الأمراء المسلمون ، فساروا اليه بجيوشهم ، فتجمع لدى نور الدين من هذه الجيوش جيش يصفه ابن الأثير المؤرخ لعظمته بأنهم « كانوا جيش الطواويس ، وكل منهم فى

(١) التاريخ الباهر ، ص ١١٩ .

بيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس » [1] ، فسار نور الدين بجيش الطواويس هـذا الى حـارم ، ونزل عليها وحاصرها .

أما الصليبيون ، فقد تحقق ما توقعه نور الدين منهم ، فقد حشدوا كل من يصلح للقتال من محارب وغير محارب ، حتى رجال الدين أشركوهم معهم فى المعركة ، يقودهم كبار قوادهم وأمرائهم . ويصف ابن الأثير استعداد الصليبيين وتكتلهم للدفاع عن حارم بقوله : « وجـاءوا فى حدهم وحـديدهم ، وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا أنهم رزق الذئاب والخوامع [2] ، وأقبلوا اليه رجالا وعلى كل ضامر ، فى كل قرن مساور وبطل مهاصر ، قد ألف النزال ، واعتـاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حدب ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون ، وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية ، والقمص [3] صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين — وهو

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٢٣ .

(٢) الخوامع : جمع خامع ، وهى الضبع .

(٣) القمص : تعريب حرفى للفظة اللاتينية Comes أى الأمير . ومعناها الأصلى فى اللاتينية « الرفيق » لأنه فى بادىء الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقـلاته . ولفظة Comes اللاتينية هى التى حورت فى اللغة الفرنسية الى Comte . واعتادت المراجع العربية أن تعربها الى : كد ، وكند ، وقند . (التاريخ الباهر ، ص ٤١ / حاشية ٤) .

من مشاهير الفرنج وأبطالها — واندوك — وهو رئيس الروم ومقدمها — وجمعوا من الراجل ما لا يقع عليه الاحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء » .

ثم تقابل الفريقان ، المسلمون والصليبيون ، وجها لوجه ، ودارت بينهم معركة من أشد المعارك هولا ، صبر فيها الخصمان صبرا عجيبا ، وظهر من الخصمين من البطولة ما يدعو الى الاعجاب ، وكان دور زين الدين فيها دورا له خطره وأثره .

يصف ابن الأثير المعركة الخالدة فى تاريخ معارك الحروب الصليبية ، فيقول : « فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأ الفرنج (الصليبيون) بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا الى الفرار ، فتبعهم الفرنج ، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فاذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون اليه ، ولا وزرا [1] يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون فى آثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيعجل لهم بوارهم وحتفهم » . وجازت الحيلة على الفرسان الصليبيين ، اذ أنهم

(١) : ألوزر : بفتحتين، الملجأ. وأصله الجبل. (مختار الصحاح).

ما كادوا يرون ميمنة المسلمين تترك الميدان هاربة ، حتى لحقوا بهم لكى يبيدوهم ، فخلا الميدان منهم ، وأصبح المشاة الصليبيون وحدهم فى الميدان ، وهنا جاء دور زين الدين لحسم المعركة ، واستئصال مشاة الصليبيين استئصالا تاما ، فما أن رأى زين الدين الفرسان الصليبيين يطاردون المسلمين المنهزمين ؛ حتى عطف على رجالتهم بجيش الموصل ، فانحطوا عليهم بالسلاح يطيحون منهم الأعناق ، ويأسرون منهم من لم يستطع الفرار ، وبذلك زال خطرهم عن المسلمين .

ثم تنبه الفرسان الصليبيون الى أنهم تركوا مشاتهم من غير حماية ، فخافوا عليهم من الفناء ، وهم لا يدرون ما حل بهم ، فعادوا اليهم ليحموهم من المسلمين ، ولكنهم وجدوا أن أمرهم قد انتهى الى ما بين قتيل وجريح وأسير ، فكانت المفاجأة المذهلة لهم ، فأسقط فى أيديهم ، ثم فاجأتهم المفاجأة المذهلة الثانية ، وذلك أنه حين رأى المسلمون المنهزمون أن الفرسان الصليبيين قد كفوا عن مطاردتهم وعادوا الى ميدان القتال لأجل مشاتهم ، كروا عليهم من ورائهم ، فأصبح الصليبيون فى الوسط بين شقى الرحا ، فكان القتل من أمامهم ومن خلفهم ، وسد المسلمون عليهم المنافذ ، فأخذوا يتهاوون تحت سلاح المسلمين بين قتيل وجريح . ويصف ابن الأثير هذه المرحلة النهائية من المعركة ، فيقول :

« وكان الأمر على ما دبر ، والحال على ما قدر ، فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين فى عسكر الموصل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين ، وبدمائهم مضرجين ، فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون أعنتهم ، وعاودوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقى العدو فى الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمى الوطيس ، وباشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل [1] وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم قددا ، وألقى الفرنج بأيديهم الى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة [2] والفرار ، فأكثروا فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت القتلى على عشرة آلاف ، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة » [3] .

فكانت هذه الوقعة أشر وقعة نزلت بالصليبيين ، ففضلا عن الألوف من جنودهم الذين سقطوا قتلى وجرحى وأسرى ، فان المسلمين أسروا جميع قوادهم وأمرائهم ، ثم سار نور الدين بعد هذا الانتصار الرائع الى المدينة فملكها فى ٢١ رمضان [4] ،

---

(١) هو عامل الرمح مما يلى السنان ، وهو دون الثعلب .
(٢) أى الارتداد .
(٣) التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ .
(٤) التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ .

وبذلك عادت المدينة الى أصحابها المسلمين . ويقال ان سبب قبول الصليبيين الذين كانوا فى مصر الصلح مع أسـد الدين وعودتهم الى بلادهم ، هو ما بلغهم من حصار نور الدين حارم ، فأرادوا العودة لكى ينقذوا مدينتهم من السقوط فى يده ، ولكن حين وصلوا الى الشام ، وجدوا أن المدينة قد خرجت من أيديهم الى الأبد . ولما انتهى أمر حارم ، عاد قطب الدين وجيشه الى الموصل رافعين لواء النصر ، بعد أن أدوا واجبهم أداء كريما .

أمضى زين الدين على حياته كلها فى خدمة بنى زنكى منذ أن دخـل فى ملك قسـيم الدولة والد عمـاد الدين زنكى حتى سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) ، تقلبت به الأحوال من مملوك الى أن أصبح السيد الأول فى الدولة بعد ملكها، بل لقد بلغ مبلغ ملوكها من القوة ، فقد كان له من الاقطاعات المدن الكبيرة ذات المساحات الواسعة والثراء ، مثل : اربل ، وشهرزور ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، كذلك كان له من القلاع الحصينة ، مثل : قلاع الأكراد الهكارية والحميدية بديار بكر وغيرها [1] ، فكان له فى كل مدينة وقلعة نائب ينوب عنه فى حكمها ويدين له نوابه بالولاء والطاعة ، كذلك كان لكل مدينة وقلعة جيشها الخاص بها ، ولها أيضا دواوينها وموظفوها ، ولها مصادرها المالية ، فكان زين الدين فى الواقع ملكا غير متوج ، ولو داخل زين الدين الطمع بالانفصال عن الموصل وتكوين دولة تحمل اسمه لحقق أطماعه فى سهولة ويسر ، فقد كانت الامكانيات من أموال وجيش

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

متوفرة لديه ، ولكن وفاءه للبيت الزنكى الذى نشأ فيه ، منعه من الاقدام على هذا التصرف الخطير والاضرار بهم .

وكانت سنة ٥٦٣ ، نهاية حياة زين الدين من الدنيا ، فقد أصابه العمى والصمم بعد أن بلغ نحو المائة من عمره كما يجمع على ذلك المؤرخون ، فعجز عن الاستمرار فى العمل ، ومن ثم قرر الاعتكاف فى بيته ، ولكن ليس فى الموصل وانما فى اربل ، حيث فيها أسرته وأولاده وأمواله ، ويوم أن عقد العزم على ذلك ، تنازل عن جميع اقطاعاته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، ما عدا مدينة اربل التى قرر أن يجعلها دار اقامته [١] .

وقد تنازل عن اقطاعاته كلها لأنه لم يكن له من الأبناء من يصلح لحكم هذه الاقطاعات ، فانه لم يكن له سوى ولدين أكبرهما ، وهو مظفر الدين كوكبورى كان يبلغ من العمر أربع عشرة سنة ، وهو سن يعجز فيه صاحبه عن حكم هذه الاقطاعات الكثيرة ، وقدّر زين الدين أنه لو تركها لولديه ، فسوف ينتهز نوابه فرصة موته ، فيستقل كل منهم بما فى يده وينفصل عن الموصل ، فقد سبق أن قلنا أن ذلك العصر وما قبله وما بعده كان الشعار فيه « الحكم للغالب » ، وقد تحقق ظنه فى نوابه فى حياته، فانه حين عزم على التنازل عن اقطاعاته لصاحب الموصل أرسل الى نائبين له فى تكريت وشهرزور فى تسليم المدينتين اليه فرفضا ، وقال له نائب تكريت : أن المولى أتابك (أى صاحب الموصل) لا يقيم بتكريت ولابد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

فليس له مثلى ، فما أمكن ارغامه على تسليمها بالقوة خوفا من أن يسلمها للخليفة ، وحذا حذوه نائب شهرزور ، فأبقى نائبا فيها [١] .

وانتقل زين الدين من الموصل الى اربل ليستريح بقية عمره فى هدوء وراحة ، ولكن لم تطل به الأيام ، حيث توفى فى شهر ذى الحجة من نفس السنة ، سنة ٥٦٣ [٢] .

وقبل أن نترك زين الدين عليا لنتحدث عن ابنه زين الدين يوسف ، نذكر بعض ما امتاز به الرجل من أخلاق طيبة وصفات ممتازة ، فقد انعكست أخلاقه وصفاته على ابنه مظفر الدين ، فكان مظفر الدين صورة طبق الأصل من أبيه فى سجاياه .

كان زين الدين رجل حرب وقتال ، شجاعا لا يخاف من قتال ولا يتهيب من معركة ، وتاريخه الحربى يشهد له بذلك ، وكان لانغماسه فى الحياة العسكرية مستعدا لتلبية نداء الحرب أينما كان ، ولذلك قضى معظم حياته وهو لابس لباس الحرب الخشن ، ويشد على وسطه ما يحتاج اليه الجندى فى ميدان القتال ، من : سكين ، ودرفش[٣] ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودسترك [٤] .

وكان « خيرا ، عادلا ، حسن السيرة ، جوادا ، محافظا على

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .

(٣) درفش : كلمه فارسية ، معناها : مخراز . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

(٤) دسترك : كلمة فارسية معناها ، منشار . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان اذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله وان كان فعله خطيرا » [1] .

وكان كريما ، معطاء ، محسنا ، يبر الفقـراء ويجزل لهم العطاء ، فكان يتصدق بحيث لا يبقى فى خزائنه شيئا من المال برغم كثرة ايراداته من اقطاعه [2] .

ويروى أسامة بن منقذ خبرا عن انسانية زين الدين فيقول : « حدثنى القائد الحاج أبو على فى شهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة بحصن كيفا ، قال : كنت بالموصل جالسا فى دكان محمد بن على بن محمد بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعى ضخم غليظ الساقين ، فدعاه محمد ، وقال : يا عبد ، علىّ ، بالله حدث فلانا (يعنى أبا على) حديثك . قال : أنا رجل أبيع الفقاع [3] كما ترى ، فبتُّ ليلة أربعاء وأنا صحيح ، فانتبهت وقد انحل وسطى فلا أقدر على الحركة ، ويبست رجلاى ودقّتا حتى بقيت الجلد والعظم ، فكنت أزحف الى وراء لأن رجلى ما كانت تتبعنى ولا كان فيها حركة بالجملة ، فقعدت فى طريق زين الدين على كجك رحمه الله ، فأمر بحملى الى داره فحمّلت ، وأحضر الأطباء ، وقال : أريد أن تداووا هذا ، فقالوا : نعم ، نداويه ان شاء الله . ثم أخذوا مسمارا فأحموه ثم كووا به رجلى فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ما نقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(٣) الفقاع ، شراب يصنع من الشعير .

لى دينارين وحمارا ، فبقى الحمار عندى نحوا من شهر ومات ، فعدت قعدت فى طريقه ، فوهب لى حمارا آخر ، فمات ، فوهب لى حمارا ثالثا ، فمات ، فعدت الى سؤاله ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه فى الخندق ، فقلت له : بالله ارمنى على وركى ، فانى ما أحس فيها بما يكون . فقال : ما أرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين — رحمه الله — قد جاءنى فردنى اليـه — وكان الذى قاله من رميى مزاحـا ، فلما أحضرونى بين يديه أعطانى أربعة دنانير وحمارا ، فبقيت على ما أنا عليه ، الى ليلة رأيت فيما يرى النائم ، كأن رجلا وقف علىّ ، وقال : قم . فقلت : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، فقمت وقفت ، فأنبهت امرأتى ، وقلت : ويحك ! قد أبصرت كذا وكذا ، فقالت : ها أنت قائم . فمشيت على رجلى وزال ما كان بى ورجعت كما ترانى . فمضيت الى عند زين الدين الأمير عـلى كوجك — رحمه الله — فقصصت عليه منامى ، ورآنى وقد زال ما رآه بى فأعطانى عشرة دنانير » [1] .

وكان زين الدين مفرط الذكاء ، رقيق الاحساس والشعور ، وكان من رقة احساسه أنه كان يتظاهر بالغفلة لئلا يحرج أحدا . يذكر ابن الأثير عنه : « وكان حاله من أعجب الأحوال ، اذ بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء » . ثم يذكر الحادثة التالية :

(١) الاعتبار ، ص ١٥٧ .

جاءه نفر من جنده وبيده ذنب فرس ، وقال له ، ان فرسه قد نفق ، فأمر له زين الدين بفرس غيره ، ثم جاءه آخر ومعه نفس الذنب وقال له ، ان فرسه قد نفق ، فأمر له بفرس غيره ، ثم جاءه ثالث ورابع حتى جاء اثنا عشر جنديا ومع كل جندى نفس الذنب وكل منهم يدعى أن فرسه نفق ، ثم جاءه جندى وبيده الذنب وادعى أن فرسه نفق وهنا نفد صبر الرجل فقال للجندى : أما تستحيون منى كما أستحى منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم ، أتظنون أنى لا أعرفه ؟ بلى والله ، انما أردت أن يصلكم عطائى بغير مَنٍّ ولا تكدير فلم تتركونى . ثم أمر له بفرس (1) .

وكان زين الدين نزاعا الى الاصلاح ، واذا كان أثره الاصلاحى غير معروف فى مدينة اربل وغيرها من اقطاعاته ، الا أن أثره فى الموصل واضح فى الناحية الزراعية . فقد كانت الطرق الزراعية تقطعها الأنهار والمجارى المائية ، فعمل على ربط هذه الطرق بانشاء الجسور عليها ، فتيسر بذلك نقل المحاصيل الزراعية فى سهولة ونفقات قليلة ، كذلك بنى القناطر على الأنهار لخزن المياه أيام التحاريق ، فتيسر بذلك رى الأراضى ريا دائما (2) .

وقد شارك زين الدين ملوك الموصل فى نشر العلم بها ، فبنى عدة مدارس فى الموصل ، أشهرها المدرسة التى سميت باسمه

(1) التاريخ الباهر ، ص ١٣٥ .
(2) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٢٧٣ .

وهى المدرسة الزينية ، وأوقف عليها وعلى غيرها الأوقاف الكثيرة ، كذلك بنى جامعا فى الموصل [1] .

زين الدين يوسف :

وهو الأخ الأصغر لمظفر الدين ، وقد أهمل المؤرخون وأصحاب التراجم التأريخ له والترجمة لحياته ترجمة مفصلة ، حتى أنهم أهملوا تاريخ مولده ونشأته . وكل ما نعرفه عنه أنه كان قاصرا حين توفى أبوه ، حيث يذكر المؤرخون ، أن أخاه الأكبر مظفر الدين كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما حين توفى أبوهما فى سنة ٥٦٣ ، كذلك أغفلوا أخباره فى اربل التى كان أميرها وحاكمها بعد والده نحو ست عشرة سنة ، ولا ندرى سببا لذلك ، الا أنه لم يكن له من المآثر ما يستحق التسجيل ، أو أن تكون سيرة أبيه وأخيه مظفر الدين قد طغتا على سيرته ، وكل ما ذكروه عنه هو بعض صفاته وسجاياه ، فقالوا : انه كان أميرا كبيرا ، شجاعا ، مقداما ، مدبرا ، أريحيا ، كريما ، سخيا [2] ، فان هذه الصفات والسجايا هى نفس صفات وسجايا والده ، وهى أيضا نفس الصفات والسجايا التى كان يتحلى بها أخوه مظفر الدين ، مما يدل على طيب عنصر هذه الأسرة وأصالتها .

وطبقا لتقاليد الوراثة ، ورث مظفر الدين حكم اربل بعد

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٠ ، مرآة الزمان ، ج ٨ / ص ٢٧٣ ، الموصل فى العهد الاتابكى ، ص ١٣٧ .

(٢) الروضتين ، ج ٢/ص ١٦٤ ، مفرج الكروب ، ج ٢ / ص ٣٣٩ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦/ص ١١٢ .

وفاة أبيه ، ولكن مظفر الدين لم يكن هو الذى يحكم بنفسه ، وانما كان الذى يقوم بالحكم وادارة شئون الامارة وقيادة الجيش وصيه مجاهد الدين قايماز النائب على اربل منذ أن تسلمها من صاحبها زين الدين على ، وذلك لصغر سن مظفر الدين ، فظل مظفر الدين بضع سنين أميرا ، ثم خلعه مجاهد الدين عن الامارة لخلاف حدث بينهما ، وولى عليها أخاه زين الدين يوسف ، وذلك حوالى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، فلجأ مظفر الدين الى سيف الدين غازى (الثانى) بن قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فأقطعه سيف الدين مدينة حران فأقام بها ، وسوف نتعرض لموضوع عزل مظفر الدين بالتفصيل فى الفصل الثالث من الكتاب .

استقر زين الدين يوسف اذن أميرا على اربل ، ولكن لم يكن له من الامارة الا اسمها ، فقد كان الأمر كله لمجاهد الدين ، بيده الحل والعقد وقيادة الجيش ، أو على حد تعبير المؤرخ ابن الأثير ، « وكان البلد لولد زين الدين—أى ليوسف بن زين الدين على— اسما لا معنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى » (١) . الأمر الذى لم يرض به زين الدين يوسف بعد أن شب عن الطوق وتعدى مرحلة الوصاية ، وأحسب أن الخلاف وقع بين يوسف ومجاهد الدين كما وقع بين مظفر الدين ومجاهد الدين ، الا أن زين الدين لم يستطع التحرر من مجاهد الدين والتخلص من

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٧ .

قبضته الا بعد أن ترك مجاهد الدين اربل ، والتحق بخدمة سيف الدين غازى الثانى صاحب الموصل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥م) ، وذلك حين استدعاه سيف الدين ليعاونه فى الحرب ضد صلاح الدين الأيوبى ، عندئذ لم يستعد يوسف سلطته فقط ، وانما أخرج تبعيته لصاحب الموصل ، وانتمى الى صلاح الدين ودخل فى طاعته .

وبيان ذلك ، أن صلاح الدين كان نائبا لنور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى على مصر ، فلما توفى نور الدين فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) لم يخلف سوى ولد صغير يبلغ من العمر أحد عشر عاما ، هو الصالح اسماعيل ، فنشب صراع بين الرجال المسئولين فى حكومة نور الدين فى كل من دمشق وحلب على الوصاية على الصالح اسماعيل ، كل فريق يدعى أحقيته بالوصاية عليه ، وأحقيته فى ادارة شئون الدولة ، كذلك انتهز سيف الدين غازى (الثانى) فرصة وفاة عمه نور الدين فاستولى على الموصل وبعض بلاد الجزيرة التابعة لها [١] ، وبذلك انشقت الدولة على نفسها .

وكان صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الوقت فى مصر ، فانتهز فرصة هذا الانشقاق ، وأدخل نفسه طرفا فى النزاع بحجة أنه المسئول عن سلامة دولة الصالح اسماعيل وحفظها بصفته النائب عنه على أكبر أقاليم الدولة وأعظمها ، وهو اقليم

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ .

مصر ، فهو لهذه الصفة ، مسئول عن الدفاع عن الدولة ، وعلى حماية حقوق الصالح اسماعيل الحاكم الشرعى للدولة .

وقد ساعدت الظروف صلاح الدين على أن يصبح الرجل الأول فى الدولة ثم وارثها فيما بعد . وذلك أنه عندما تأزمت الأمور بين الرجال المسئولين فى كل من دمشق وحلب ومال الميزان الى جانب رجال حلب باتفاقهم مع سيف الدين غازى ضد رجال دمشق ، خاف هؤلاء من أن يتغلب عليهم منافسوهم فى حلب ويخرجوهم من دمشق ، فراسلوا عندئذ صلاح الدين يعرضون عليه تسليم دمشق اليه فى مقابل أن يخصهم بالمناصب الكبيرة فيها ، ومن ثم خرج صلاح الدين من مصر وسار الى دمشق ودخلها فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ .

غير أن صلاح الدين كان فى حقيقة الأمر يهدف الى احلال نفسه محل نور الدين محمود فى الملك ، ذلك أنه ما كاد يستقر فى دمشق حتى أخذ يستولى على بلاد الشام التابعة لدولة نور الدين ، بعضها بالحرب وبعضها بالاتفاق مع نوابها ، وذلك بدخولهم فى طاعته وحكم البلاد التى بأيديهم باسمه ، وكان أهم ما يحرص عليه صلاح الدين هو الاستيلاء على مدينة حلب — العاصمة الثانية للشام — فسار اليها فى نفس السنة — سنة ٥٧٠ — وحاصرها ، وأنشب مع جيشها القتال ، ولكنه لم يستطع فتحها ، فعاد عنها وفى عزمه الاستيلاء عليها حين تواتيه الفرصة .

وكان لظهور صلاح الدين المفاجىء بهذه القوة أثر كبير عند

سيف الدين صاحب الموصل ، خاصة عندما ظهرت مطامع صلاح الدين فى حلب ومحاولته الاستيلاء عليها ، فعزم على الحيلولة بينه وبين سقوطها فى يده ، لأن سقوطها فى يده يشكل خطرا كبيرا على الموصل ذاتها ويهددها تهديدا مباشرا ، فان نجاح صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب سوف يشجعه على الطمع فى الموصل ، فما أن انتهى الى هذه النتيجة حتى قرر اعلان الحرب على صلاح الدين ، ولكنه كان يحس فى نفسه العجز فى مقاومة صلاح الدين وحده ، وأن همته تقصر عن مجابهته ، وتنقصه أيضا مقدرة الحاكم الادارى وشجاعة القائد المحارب ، ولذلك فهو يفتقر الى رجل يجمع بين هاتين الميزتين لكى يقف الى جانبه فى خصومته مع صلاح الدين ، وكان ما يطلبه يتوفر فى مجاهد الدين قايماز الوصى على امارة اربل ، فأرسل اليه واستدعاه الى الموصل ، استنادا الى أن مدينة اربل تعتبر من الناحية القانونية من أملاك الموصل ، وأن أميرها وموظفيها من أتباعه ومواليه ، فلبى مجاهد الدين أمر سيف الدين وغادر مدينة اربل ، وفى تقديره أنه سيوالى حكمها من الموصل ، وأن يوسف لن يجرؤ على التعدى على حقوقه كوصى والخروج عليه ، ولكن يوسف خيب تقديره ، فانتهز فرصة بعده عن اربل فرفع يده عن حكمها ، وباشر أمورها بنفسه .

غير أن هناك اختلافا عند المؤرخين فى السنة التى تحرر فيها زين الدين من قبضة مجاهد الدين . وهذا الاختلاف يتمثل فى خبرين ، أما أحدهما فيذكر أنه لما سار صلاح الدين الى حلب

ـ فى المرة الثانية ـ سنة ٥٧١ هـ للاستيلاء عليها ، سار اليه زين الدين يوسف بجيش اربل ، متضامنا معه ضد حلب والموصل، فرحب به صلاح الدين وولاه ميسرة جيشه . واذا صحت هذه الرواية فمعنى ذلك ، أن الأخوين زين الدين ومظفر الدين قاتل كل منهما الآخر ، لأنه عندما علم سيف الدين غازى بمسير صلاح الدين الى حلب ، سار بجيش الموصل ومعه مظفر الدين بجند حران اليها ليساعد ابن عمه الصالح اسماعيل فى الدفاع عنها ، ولما اصطفت الجيوش للقتال ، كان مظفر الدين يقود ميمنة جيش سيف الدين ، ومعنى هذا أنه كان عليه أن يقاتل ميسرة جيش صلاح الدين التى يقودها أخوه زين الدين ، وحين تحركت الجيوش للقتال تصادمت ميسرة جيش صلاح الدين مع ميمنة جيش الموصل ، ودار بينهما قتال عنيف ، كادت فيه ميمنة جيش الموصل « تطحن ميسرة صلاح الدين طحنا » ، أى أن مظفر الدين كاد يورد أخاه مورد الهلاك ، لولا أن تدخل صلاح الدين بنفسه فى المعركة ، فأنقذ ميسرة جيشه من الفناء ، ولم يستطع صلاح الدين الظفر بحلب هذه المرة أيضا ، فعقد الصلح مع سيف الدين والصالح اسماعيل ورحل عنها [1] . فاذا صح خبر اشتراك زين الدين يوسف فى هذه الحرب ، فانه لا يعنى فقط تحرر زين الدين من سيطرة مجاهد الدين ، وانما يعنى شيئا أخطر من هذا ، انه يعنى أيضا انفصال زين الدين عن الموصل ،

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٣٣٤ ، سيرة صلاح الدين الأيوبى، ص ٤١ .

وهذا أمر شديد الخطورة عليها ، لأنه سوف يزيد من قـوة صلاح الدين ؛ عدوها اللدود .

أما الخبر الآخر ، ويقول به ابن الأثير ، ان زين الدين انفصل عن الموصل فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) وذلك فى خبره الذى ذكره عن أثر قبض عز الدين مسـعود صاحب الموصـل على مجاهد الدين وحبسه ، حيث يقول ، انه فى تلك السنة ، قبض عز الدين عـلى مجاهد الدين وصـادره ، « وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل وأعمالها ، ومعه فيها زين الدين يوسف (فى الأصل : زين الدين على) وهو صبى صغير ليس له من الحكم شىء ، والحكم والعسكر الى مجاهد الدين .. » فلما قبض عز الدين على مجـاهد الدين « امتنع صاحب اربل عن طاعة عز الدين واستبد » أى استبد باربل ، ثم أرسل زين الدين الى صلاح الدين بالطاعة له والدخول فى خدمته [1] . ونحن نختلف مع ابن الأثير فى تقدير عمر زين الدين ، لأن زين الدين قد تجاوز فى تلك السنة العشرين من عمره ، ثم انه كيف يستطيع صبى صغير أن يضـاد من هو أكبر منه قوة ومكانة وهـو صاحب الموصل . غير أن ابن الأثير يذكر خبرا آخر يستفاد منه أن انفصال زين الدين عن الموصل كان قبل سنة ٥٧٩ ، وذلك فى خبره الذى ذكره عن مفاوضات الصـلح التى دارت فى تلك السـنة بين صلاح الدين وعز الدين مسعود ، وكان الواسطة بينهما مندوبا

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٣ .

من الخليفة ، فقد ذكر ابن الأثير ان المفاوضات فشلت بسبب اربل والجزيرة ، فقد أصر صاحب الموصل ، أن يكونا معه ، وأصر صلاح الدين بدوره أن يترك لأصحابها الخيار فى الجهة التى يريدون الانتماء اليها ، ثم أصر على أن يكونوا معه [1] . فهذا الخبر يشير بصراحة الى أن انفصال زين الدين عن الموصل كان قبل سنة ٥٧٩ ، أما متى كان ذلك على التحديد ، فهذا الذى لا نستطيع تحديده .

غير أنه من الثابت أن زين الدين كان فى سنة ٥٨٠ (١١٨٤م) منفصلا عن الموصل وداخلا فى طاعة صلاح الدين ومنتميا اليه رسميا ، ونحن نعلل تصرف زين الدين هذا بأحد سببين أو بكليهما . فأما السبب الأول ، فلعل زين الدين رأى أن صلاح الدين قد بلغ حدا كبيرا من القوة فى تلك السنة ، حيث استولى على ما كان لبيت بنى زنكى من البلاد بالشام ومنها حلب ذاتها — وقد استولى عليها فى سنة ٥٧٩ — وكذلك استولى على مالهم باقليم الجزيرة ، ثم هو ما زال طامعا بالموصل نفسها ، فلذلك قدر زين الدين انه اذا استولى صلاح الدين على الموصل سوف يمتد طمعه الى اربل أيضاً ، فاذا هاجمها ، فلن يستطيع مقاومته والدفاع عن مدينته طويلا ، فاذا ما استولى عليها صلاح الدين بالقوة ، فسوف يقصيه عنها ، أما اذا انتمى اليه ودخل فى طاعته واعتبر نفسه تابعا له ويحكم اربل باسمه ، فانه يضمن بذلك بقاء المدينة

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٤ .

فى يده ، لذلك آثر زين الدين السلامة وحفظ بلده عليه ، فأرسل الى صلاح الدين يعلن انتماءهاليه ودخوله فى طاعته .

وأما السبب الآخر ، فلعله كان بسبب تهديد صلاح الدين للأمراء الصغار ودعوتهم الى الدخول فى طاعته لكى يوحد قوة المسلمين جميعا ضد عدوهم الصليبى ، وهدد من يمتنع عن الاجابة اليه بغزوه وطرده من ملكه ، يؤكد هذا ما ذكره العماد الأصفهانى بأن صلاح الدين « كاتب الملوك بالوفود للاتفاق ، فمن جـاء مستسلما سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه فى جهاد الكفار »[1] ، ويؤكده أيضا ما جاء فى المنشور التالى الذى أذاعه على جميع الأمراء الصغار سواء المستقلين منهم ، أو الذين ينتمون الى الموصل ، فقد جاء فى المنشور :

« ان الله لما مكّن لنا فى الأرض ، ووفقنا فى اعزاز الحق واظهاره لأداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد فى سبيل الله فنوضح سبيله ، ونقبل على اعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم فى رفع كلمته العليا فى أرضه ، عـلى استنزال نصره من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء هـذه الفضيلة ، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد الى الأرض واتبع هواه ، وأعرض عن حق دينه بالاقبـال على باطل دنياه ، فان تاب ورجع قبلناه ، وان أصر على غوايته

---

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٢ .

أزلنا يده وعزلنـاه » [1] . ومن هذا نرى أن الخـوف من صلاح الدين قد يكون أحد البواعث التى دفعت زين الدين الى الدخول فى طاعته .

وبانتماء زين الدين يوسف الى صلاح الدين ، تغير وضعه ووضع اربل من ناحية التبعية ، فقد أصبحت اربل من أملاك صلاح الدين لا من أملاك الموصل ، وأصبحت المدينة اقطاعا من صـلاح الدين لزين الدين ، وبالتالى أصـبح زين الدين تابعا لصلاح الدين ، ملزما بتنفيذ شروط التبعية التى كان يدين بها لصاحب الموصل ، أى أن زين الدين أصبح عـدوا لأعـداء صلاح الدين ، وان كانوا ملوك الموصل أنفسهم .

لم يرض عز الدين مسعود صاحب الموصل بطبيعة الحال عن نقل زين الدين تبعيته الى عدوه صلاح الدين ، وفى الوقت نفسه شعر مسعود بأن خطر صلاح الدين يزداد قوة واقترابا منه ، فعزم على استرداد اربل على أى وجه من الوجوه ، فهو قد علم بخطئه فى قبضه على مجاهد الدين واعتقاله ، فمنذ أن اعتقـله وأموره قد ساءت الى حد كبير ، فأطلقه من الاعتقال وأرسـله الى شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل ، والى أخيه قزل أرسلان صاحب أذربيجان يطلب معونتهما ، فسار مجاهد الدين الى قزل أرسلان أولا ، وأبلغه رسـالة عز الدين مسعود ، فاستجاب له قزل ووعده بالانتصار له بجيشه ، ثم منعه

---

(1) مفرج الكروب ، ج ٢/ص ١٦٣ .

من المسير الى أخيه لئلا يشاركه فيما يحصل عليه من المغانم من صاحب الموصل فى مقابل معونته له ، وجهز قزل أرسلان فى الحال جيشا وسيره مع مجاهد الدين الى الموصل ، وفى أثناء عودة مجاهد الدين مع الجيش عزم على الاستيلاء على اربل ، فلما قاربها بجيش قزل ، أفسد الجيش قراها فسادا شديدا ، وخربوها ونهبوها وسبوا من نسائها ، وحاول مجاهد الدين منعهم من الافساد ليستولى على المدينة سليمة من غير تخريب ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليهم ، فلما علم زين الدين بهذه الغارة المفاجئة على بلاده ، جمع جيشه وخرج به لرد عادية المعتدين ، وكان الجند المغير قد توزعوا جماعات فى قرى اربل ونواحيها ، كل جماعة منهم تفسد فى قرية وناحية ، فانتهز زين الدين فرصة تشتتهم ، فأطلق رجاله عليهم ، فأخذوا يتصيدونهم من كل مكان ، وتصدى هو لأكبر جماعاتهم فهزمها هزيمة منكرة ، فتركت الميدان هاربة ، فتبعها من نجا من الجند ، تاركين وراءهم أسلحتهم وذخائرهم ودوابهم وأموالهم ، فاستولى عليها زين الدين ، وعاد مجاهد الدين الى الموصل ، بعد أن فشل فى الاستيلاء على المدينة [1] . ولكن زين الدين لم يغتر بهذا الانتصار ، وانما نبهته هذه الغارة الى خطر جديد يتهدده ، فقد أصبح مهددا من الغرب من صاحب الموصل ومن الشرق بحليفه قزل أرسلان ،

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٥ .

فأرسل الى صلاح الدين ينبئه بما كان من صاحب الموصل ومن حليفه صاحب أذربيجان[1] .

لم يرض صلاح الدين بطبيعة الحال عن اعتداء صاحب الموصل على ولى من أوليائه . وكان صلاح الدين يتلمس المعاذير للاستيلاء على الموصل ، فانتهز فرصة اعتداء مسعود على اربل وشكوى زين الدين منه ، فعزم على الاستيلاء عليها لتعديه على أحد المنتمين اليه ، بالاضافة الى أن مظفر الدين كوكبورى كان دائم التحريض له على الاستيلاء عليها ، ووعده الانضمام اليه ضد الموصل ، فسار صلاح الدين اليها بجيش ضخم وضرب عليها الحصار فانضم اليه زين الدين بجيش اربل ، فعجز عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز عن الدفاع عنها ومنع سقوطها فى يده ، فاضطر مسعود الى الاستسلام وعقد الصلح مع صلاح الدين ، وكان صلحا قاسيا ، أصبح مسعود بموجب شروطه تابعا لصلاح الدين ، مثله فى ذلك مثل زين الدين يوسف ، فقد نصت شروط الصلح على أن يخطب مسعود لصلاح الدين على منابره ، وأن يضرب اسمه على السكة [2] ، وأن يتنازل لصلاح الدين عن شهروزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما يقع ما وراء نهر دجلة من البلاد التابعة للموصل ، وأن يمده بالعون العسكرى كلما طلب منه ذلك [3] . ولما تسلم صلاح الدين

(١) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٥٤ ، مفرج الكروب ، جـ ٢/ص ١٦٤ .

(٢) أى على النقود .

(٣) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٠ .

البلاد التى تنازل له عنها مسعود ، سلمها صـــلاح الدين الى زين الدين ، فاتسعت بذلك امارته اتساعا كبيرا ، وأصبحت فى مصاف الدويلات التى يطلق على أصحابها لقب الملك وان كان لم يؤثر أن زين الدين تلقب به ، وانما الذى تلقب به أخـــوه مظفر الدين ، فكان لقبه الملك المعظم . وبدخول مسعود فى طاعة صلاح الدين ، اطمأن زين الدين يوسف على نفسه وعلى امارته من أن يغـــير عليه مســـعود فى يوم من الأيام ، الا باذن من صلاح الدين .

وأدلى زين الدين دلوه فى الحروب الصليبية ، ولكن دوره فيها حسب ما جاء عند المؤرخين كان دورا قصيرا ، فانهم لم يذكروا الا اشـــتراكه فى معركة عكا سنة ٥٨٦ (١١٩٠ م) ، فلقصر دوره ، ولصلته بأخيه مظفر الدين فى هذه المعركة ، نرجىء الكلام عنه الى الفصل السادس ، الخاص بدور مظفر الدين فى هـــذه الحروب .

غير أننا نذكر هنا ، أن زين الدين توفى فى معسكره فى عكا فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٨٦ [١] ، فخلفه أخوه مظفر الدين على اربل .

---

(١) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٢٩ .

الفصل الثالث

نشأة مظفر الدين

اسمه ولقبه :

لسبب نجهله لم يُعن من اهتم بمظفر الدين من المؤرخين وأصحاب التراجم بذكر اسمه العربى أسوة بأبيه زين الدين على وأخيه زين الدين يوسف الذى يحمل كل منهما اسما عربيا ، وانما اكتفوا جميعا — وكأنهم كانوا على اتفاق على ذلك — بذكر لقبه العربى وهو مظفر الدين وصفة الشجاعة التى اشتهر بهـا باللغة التركية وهى كوكبورى ، ومعناها « الذئب الأزرق » . والتسمية الكاملة لمظفر الدين التى ذكرها معاصره المؤرخ ابن خلكان ، وهى : أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بن بكتكين بن محمد الملقب بالملك المعظم مظفر الدين [1] .

مولده :

وقد ولد مظفر الدين فى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من شهر المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة من الهجرة (١٣ أبريل

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٠ .

سنة ١١٥٤ م) بقلعة الموصل ، حيث كان يعمل والده فى خدمة ملوكها [١] .

نشأته وتعليمه :

نشأ مظفر الدين فى كنف والده وتحت رعايته ، وقد اختار له والده ، مملوكه مجاهد الدين قايماز للاشراف عـلى تربيته وتعليمه ، وكان مجـاهد الدين خليقا بأن يقوم بمهمة المؤدب والمربى ، لأنه هو نفسه كان مملوكا لزين الدين علىّ ، فعلمه زين الدين ورباه ، وأحسن تربيته وتعليمه ، كذلك علمه الفروسية وفن القتال ثم أعتقه من الرق ، فجمع مجاهد الدين بين نشأة العرب فى الخلق والثقافة ، ونشأة الترك فى الحرب والقتال ، ولذلك نجح فى غرس حب العلم فى مظفر الدين ، حيث تشهد له ثقافته بأنه تثقف ثقافة عربية خالصة تتبين فى طلاقة لسانه فى العربية ، وفى فهمه لمايقرأ بلغة العرب ، كذلك غرس فيه حب الفروسية ، فان معاركه فى ميادين القتال تشـهد له بالجـرأة والبطولة .

ظل مجاهد الدين يشرف على تربية مظفر الدين وتعليمه حتى سنة ٥٦٣ هـ ، أى حتى سنة وفاة والده ، وكان مظفر الدين يبلغ من العمر أربع عشرة سنة ، أما ما بعد هذه السنة حتى سنة ٥٦٩ ، فلا نعلم مدى اشراف مجاهد الدين عليه ، فقد كان مظفر الدين فى هـذه الفترة أميرا عـلى اربل ، ثم حدث خلاف بينه وبين

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٦ .

مجاهد الدين فعمل مجاهد الدين على خلعه من الامارة واخراجه من اربل فسار مظفر الدين منها وأقام فى حران . ومعنى هـذا أن مظفر الدين أخذ يكون نفسه بنفسه ثقافيا وعسكريا ، لأن ما عرف عنه بعد أن عاد الى امرة اربل ، من اهتمامه بالعلماء من فقهاء ومحدثين وحضور مجالسهم واحاطته بالتاريخ يشهد له بمواصلة الدراسة والتحصيل بعد خلعه عن الامارة ، وأن اهتمامه كان منصبا على العلوم الدينية ، كالفقه والحديث .

وقد أثرت ثقافته الدينية على حياته الخاصة والعامة ، فقد كان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها من مظاهر الملك شيئا ، بل كانت حياته أقرب الى حياة المتصوفة منها الى حياة أمير وحاكم ، حتى ذاع صيته فى البلاد المجاورة له ، فكان موضع احترام وتقدير جيرانه ، كما كان مقصد العلماء ، فكان يرحب بكل وافد عليه منهم ، ويلازمه ويبره بالأموال .

زواجه :

وقد تزوج مظفر الدين ، ولكن لا نعرف عدد زوجاته ، كذلك لا نعرف ما اذا كان له سرارى أو جوارى ، فقد كانت التقاليد المتبعة عند الولاة والأثرياء أن يكون لأحدهم أكثر من زوجة وأكثر من سرية أو جارية . أما مظفر الدين ، فلم تذكر المصادر التى بين أيدينا الا زيجة واحدة له . أما زوجته فهى ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبى ، ولم يذكروا دواعى هذه الزيجة الا أن يكون صلاح الدين قد أعجب بمظفر الدين وشجاعته فى

الحروب التى اشترك معه فيها ضد الصليبيين . وكانت ربيعة خاتون زوجة لسعد الدين مسعود بن معين الدين أنر ، فتوفى سعد الدين سنة ٥٨١ ، فزوجها صلاح الدين بعد وفاة زوجها من مظفر الدين [١] .

ويبدو أن ربيعة خاتون كانت محبة لزوجها مظفـر الدين عطوفة عليه ، يروى سبط ابن الجوزى ، أن مظفر الدين كان يلبس الخشن من الثياب ، وكان جسمه رقيقا — ولعل ذلك كان فى أخريات أيامه أو كان مريضا — فقالت له زوجته : لو لبست ألين من هذا ، فان بدنك ما يحتمل الخشن ؟ فقال لها : أيهما أصلح وأكثر أجرا ، أن ألبس ثوبا بعشرة دراهم أو ألبس ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بخمسة على فقير أو مسكين ؟ [٢] فهذا الخبر يشير الى حقيقتين ، الأولى ، أن ربيعة كانت أمينة حفيظة عـلى زوجها بارة به حتى أنها خشيت على جسد زوجها من خشونة الملبس . والحقيقة الثانية ، أن مظفر الدين وزوجته كانا متجاوبين تجاوبا تاما فى الحياة والتفكير ، فان الأخبار متواترة ومتفقة على أن ربيعة كانت مثال السيدة الصالحة التقية التى تتجه بكل قلبها وجوارحها الى الله . وظلت ربيعة مع زوجها حتى توفى ، فانتقلت بعد وفاته الى دمشق وماتت بها فى شهر شعبان سنة ٦٤٣ ، أى بعد وفاة زوجها بثلاث عشرة سنة ، وقد جاوزت من العمـر الثمانين ، وهى تقارب فى عمرها زوجها الذى توفى عن واحد

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٨٨ – ب (مخطوط) .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٢ .

وثمانين سنة ، ودفنت فى المدرسة التى بنتها للفقهاء الحنابلة بسفح قاسيون[1] .

أولاده :

وقد أنجب مظفر الدين — كما يذكر المؤرخون — ابنتين من زوجته ربيعة خاتون[2] ، ولم يذكروا أنه أنجب ذكورا ، الا أن ابن خلكان يكنيه بأبى سعيد ، ومن هنا يأتى التساؤل ، هل كان لمظفر الدين ولد اسمه سعيد ثم توفى ؟ هذا ما لا يمكن الجزم به ، غير أنه من المقطوع به بأنه توفى ولم يكن له ولد ذكر ، وذلك لأنه فى أخريات سنواته ، أوصى بأن تؤول اربل الى الخليفة العباسى بعد وفاته ، ولا يمكن أن يتصرف مظفر الدين هذا التصرف الا لعدم وجود وريث له يرث امارته .

وقد زوج مظفر الدين ابنتيه من ابنى نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل سنة ٦٠٦ هـ ، هما عز الدين مسعود الذى خلف أباه على حكم الموصل وتلقب بالملك القاهر ، وعماد الدين زنكى ، وقد سبب هذا الزواج لمظفر الدين صداعا سياسيا حادا ، سوف نعرض له فيما يلى من الكتاب .

أخلاقه وسجاياه :

وكان مظفر الدين يتحلى بأطيب الخلق وأكرم السجايا ، وقد أجمع المؤرخون وأصحاب التراجم على مدحه والاشادة به ، يقول

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٧ .

(٢) مفرج الكروب ، ج ٢/لوحة ٢٨٨ ـ ب (مخطوط) .

معاصره ابن خلكان بأن مظفر الدين « كان كريم الأخلاق ، كثير التواضع ، حسن العقيدة ، سليم الباطن ، شديد الميل الى أهل السنة والجماعة » [1] .

وكان يميل الى حيـاة البساطة والزهد ، عزوفا عن البذخ والاسراف ، بل كان يؤثر الفقراء والمحتاجين على نفسه ، فكان يحرم نفسه من طيبات الحياة من مأكل وملبس ومسكن ، ليوفر للمحتاجين من أبناء شعبه المال يبذله لهم عن طيب خاطر . يروى عن زوجته ربيعة خاتون — أخت صلاح الدين الأيوبى — أنها قالت : كان قميصه لا يساوى خمسة دراهم فعاتبته فى ذلك ، فقال لها : لبسى ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بالباقى ، خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير المسكين [2] . وقد استـمر مظفر الدين يلبس الخشن والرخيص من الثياب حتى كبر سنه ورق جلده ووهن منه العظم لا يستبدلها بأرق منها .

وكان مظفر الدين محبا لفعل الخير والتصدق على الفقراء ، يقول ابن خلكان : « وأما سيرته ، فلقد كان له فى فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل فى ذلك ما فعله ، لم يكن فى الدنيا شىء أحب اليه من الصدقة »[3] . ويقول سبط ابن الجوزى ؛ « وكان كثير الصدقات ، غزير البر والصلات » [4] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٥

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٣/ص ١٣٧ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨[illegible] .

وكان لفرط حبه للصلحاء والصالحات ، أنه كان يحب أن يشركهم معه فى كل طعام يستطيبه . يقول ابن خلكان : « وكان — رحمه الله — متى أكل شيئا واستطابه لا يختص به ، بل كان اذا أكل من زبدية لقمة طيبة ، قال لبعض مَنْ بين يديه من أجناده : احمل هذا الى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح ، وكذلك يعمل فى الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء »[1] .

وكان مظفر الدين شجاعا جريئا مقداما ، يقول عنه ابن واصل ، « وكان مظفر الدين ملكا جليلا شجاعا مقداما ، ذا همة عالية وبأس شديد » [2] . وأحسب أنه لفرط جرأته واقدامه اشتهر بالذئب الأزرق . كذلك كان محاربا ممتازا ومقاتلا بطلا ، يقول عنه ابن خلكان : « ولم يزل — رحمه الله تعالى — مؤيدا فى مواقفه ومصافاته مع كثرتها ، ولم ينقل أنه انكسر فى مصاف قط »[3] .

وكان الى جانب شجاعته وبسالته ، رقيق الشعور مرهف الحس ، ويبدو منه هذا الشعور الانسانى الكريم فى رعايته للأرامل واللقطاء وتفقده أحوالهم بنفسه [4] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

(٢) ابن واصل ، ج ٢/لوحة ٢٨٩ (مخطوط) .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

(٤) انظر الفصل السابع .

الفصل الرابع

مظفر الدين في حران

ذكرنا فى الفصل الثانى ، فى حديثنا عن أسرة مظفر الدين ، أن مظفر الدين ولى امارة اربل بعد وفاة والده مباشرة ، وأنه كان قاصرا ، لذلك كان يحكم تحت وصاية مجاهد الدين قايماز الذى كان نائبا عن والده زين الدين على بن بكتكين ، وذكرنا أيضا أن مجاهد الدين أقصى مظفر الدين عن الامارة بسبب خلاف حدث بينهما ، وولى عليها أخاه الأصغر زين الدين يوسف ، ونفصل فى هذاالفصل ما أجملناه فى الفصل السابق .

توفى زين الدين على — والد مظفر الدين — فى سنة ٥٦٣ كما سبق أن ذكرنا ، وكان مظفر الدين يبلغ من العمر أربعة عشر سنة ، فهو بحكم هذه السن يعتبر قاصرا عن الحكم والادارة ، وقد جرت التقاليد فى مثل هذه الظروف ، أن يكون النائب هو الوصى على الحاكم الجديد ، ومن ثم ، وطبقا لهذا التقليد ، أصبح مجاهد الدين وصيا على مظفر الدين ، فكان بحكم هذه الوصاية هو القائم بالحكم والادارة وقيادة الجيش ، أما مظفر الدين فلم يكن له سوىاسم الملك ومظاهره .

وقد اعتقد مجاهد الدين ، أن مظفر الدين سوف يضع حق تربيته له موضع الاعتبار — كما يقول ابن الأثير [1] — فيظل تحت وصايته لا يعارضه فى ادارة شئون الامارة ، ولكنه خاب فيما أمله منه ، فان الخلاف لم يلبث أن نشب بينهما ، فأقصاه مجاهد الدين عن الامارة ، بما له من قوة ونفوذ ، وولى أخـاه زين الدين يوسف مكانه .

ولما عزم مجاهد الدين على اقصاء مظفر الدين عن ملكه ، لم يستعمل معه القوة أو العنف ، فلكى يجد مبررا شرعيا لاقصائه أمام الخليفة العباسى ، جمع من يثق بهم من رجاله : وأمرهم بأن يكتبوا محضرا بأن مظفر الدين غير أهل للملك ، ثم أرسل المحضر الى ديوان الخليفة فى بغداد مع رسول وزوده بالتعليمات بأن يعزز محضر العزل برسالة شفوية ، ويطلب من المسئولين الموافقة على عزله واقامة أخيه زين الدين يوسف مكانه ، فأجابوا طلبه ، عندئذ اعتقل مجاهد الدين ، مظفر الدين وأقام أخاه مكانه . ولما استقر الأمر له وليوسف ، أطلق سراح مظفر الدين وأخرجه من اربل ، فسار مظفر الدين الى بغداد يشكر للمسئولين فيها اعتداء مجاهد الدين على حقه الشرعى ولكنهم لم يستمعوا اليه ، فاتجه نحو الموصل لعله يجد من صاحبها سيف الدين غـازى (الثانى) استجابة له فيعاونه على اعادته الى امارته ، ولكن سيف الدين لم يحقق له رغبته ، وانما عوضه عن اربل ، بأن

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٩٧

ألحقه فى خدمته ، وأقطعه مدينة حران ، فانتقل مظفر الدين اليها وأقام بها [1] .

وقد أهمل المؤرخون تحديد السنة التى حدث فيها اقصاء مظفر الدين عن امارته ، كذلك أهملوا ذكر سبب الخلاف .

وقد حاولنا تحديد السنة التى أقصى فيها مظفر الدين ، فتبين لنا أن ذلك كان بين شهر ذى القعدة سنة ٥٦٩ (١١٧٣ م) وشهر شوال سنة ٥٧١ (١١٧٥ م) ؛ ذلك لأن قطب الدين مودود كان أميرا على الموصل حتى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٥ (١١٦٩ م) ، فلما مات خلفه ابنه سيف الدين غازى (الثانى) ولكنه لم يستمتع بالحكم المستقل طويلا ، حيث استولى عمه نور الدين محمود على الموصل منه فى جمادى الأولى سنة ٥٦٦ ، وأصبح سيف الدين نائبا لعمه فى الموصل ولكنه كان محدد السلطة ، لأن نور الدين كان يخشى غدر سيف الدين به ، فعين على قلعة الموصل نائبا من قبله يقال له سعد الدين كمشتكين ، وكان الرأى الأول والأخير فى ادارة شئون الموصل لسعد الدين هذا ، فقد أمر نور الدين ، سيف الدين « بأن لا ينفرد عنه (عن سعد الدين) بقليل من الأمور ولا بكثير » [2] وظل سيف الدين تابعا لعمه نور الدين حتى وفاة نور الدين فى شوال سنة ٥٦٩ ، وعندئذ استقل بالموصل استقلالا تاما ، فلو أن التجاء مظفر الدين الى سيف الدين كان قبل شهر شوال سنة ٥٦٩ ، لما استطاع سيف الدين أن يفعل له

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧١ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ١١٠ .

شيئا ، لأنه لا يملك التصرف فى الموصل وبالتالى لا يملك اقطاع أحد شيئا من ممتلكاتها . أما شهر شوال سنة ٥٧١ ، فهو الشهر الذى نجد فيه مجاهد الدين فى مدينة الموصل ، حيث التحق بخدمة صاحبها سيف الدين غازى (الثانى) باستدعاء منه [١] .

واذا كان المؤرخون لم يذكروا أيضا سبب الخلاف الذى حدث بين مظفر الدين ومجاهد الدين ، فاننا نرجح أنه كان خلافا على أحقية كل من مظفر الدين ومجاهد الدين فى الحكم وفى أيهما تكون له الكلمة العليا فى تصريف شئون الامارة وادارتها ، وبمعنى أوضح ان مظفر الدين أراد أن يسترجع حقه فى حكم الامارة بعد أن أصبح أهلا للحكم ، الأمر الذى أغضب مجاهد الدين وأثاره ، فعمل على اقصائه عن الملك ، واقامة أخيه الأصغر يوسف مكانه ، لكى يجد المبرر لجمع السلطة كلها فى يده ، ويظل هو الحاكم الفعلى للامارة . نستنتج هذا على ضوء ما عرفناه عن مجاهد الدين أثناء دراستنا لمظفر الدين وأسرته وبالشخصيات التى اتصلت بهم ، فقد تبين لنا أن مجاهد الدين كان حريصا على أن يؤثر نفسه بالسلطة كلها لا ينازعه فيها أحد ، سواء حين كان يحكم اربل باسم صاحبها زين الدين على ، أو حين دخل فى خدمة ملوك الموصل فيما بعد .

فقد كان مجاهد الدين هو المنفرد فى حكم اربل لا يشاركه فى الحكم شريك منذ أن سلمه زين الدين على المدينة ليحكمها بالنيابة عنه أثناء أن كان يقيم هو بالموصل ، فاعتاد مجاهد الدين

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٣٦ .

على الحكم المنفرد واستمرأه ، ومن ثم تأصلت فيه نزعة السيادة والتسلط ، فلما رأى أن مظفر الدين يريد أن يسلبه سلطانه انزعج ولم يطق هذا التحدى منه فأخذ يكيد له ليتخلص منه حتى أقصاه عن الامارة وأقام أخاه الأصغر يوسف مكانه ، ليضمن بذلك بقاء السلطة فى يده والنفوذ عليه وعلى الامارة ، وقد نجح مجاهد الدين فى الحجر على يوسف نجاحا كبيرا ، حتى أن المؤرخ ابن الأثير يقول عن مكانة كل من مجاهد الدين ويوسف فى احدى المناسبات : « وكان البلد (اربل) لولد زين الدين اسما لا معنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى » [1] .

أما فى غير اربل ، فان مجاهد الدين استبد بملوك الموصل أنفسهم حين ألحقوه فى خدمتهم ، فقد اشتهر عن مجاهد الدين بأنه رجل حرب وادارة ، وأنه يمتاز فى هذين المجالين امتيازا كبيرا . وكان سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ملك الموصل يعرف هذا عن مجاهد الدين حق المعرفة ، فعزم على الحاقه بخدمته حين تأزمت الأمور بينه وبين صلاح الدين الأيوبى الطامع فى بلاده ، وعرف فى نفسه العجز عن الوقوف وحده ضده ، فاستدعى مجاهد الدين من اربل فى سنة ٥٧١ ليستعين به وعينه فى آخطر الوظائف الحربية ، وهى وظيفة مستحفظ (محافظ) قلعة الموصل ، لأن حفظ المدينة من السقوط فى يد المغير متعلق بقوة القلعة وكفاءة محافظها الحربية ، وما أن تسلم

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٧٧ .

مجاهد الدين وظيفته حتى أخذ يفرض شخصيته على سيف الدين نفسه ، حتى أنه أرغمه على القبض على وزيره جلال الدين ابن على واعتقاله لخلاف حدث بينهما [1] ، ولعل سببه أن سيف الدين كان قد عهد الى الوزير بمهمة تدبير شئون الدولة وادارتها ، فكان الوزير لذلك أقرب الى سيف الدين من مجاهد الدين ، فلم يرق هذا لمجاهد الدين وكره أن يلمع اسم من الأسماء دون اسمه ، فعمل على ازاحة الوزير من طريقه . وما زال مجاهد الدين يتدخل فى شئون الدولة ويفرض نفسه على صاحبها ، حتى أصبح فى سنة ٥٧٦ ، هو المدبر الوحيد لدولة سيف الدين والحاكم على جميع نوابه فى البلاد التابعة للموصل[2].

أما فى عهد عز الدين مسعود ، الذى خلف أخاه سيف الدين على الموصل ، فقد بلغ مجاهد الدين من قوة النفوذ والسلطان ما فاق نفوذه وسلطانه على عز الدين ، فيذكر المؤرخ ابن الأثير ، أن عماد زنكى صاحب مدينة سنجار طلب من أخيه عز الدين مدينة حلب فى مقابل أن يتنازل له عن مدينة سنجار ، فرفض عز الدين طلب أخيه ، ولكن مجاهد الدين أرغم عز الدين على تسليم حلب الى أخيه ، « فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره » ، ثم يذكر ابن الأثير سبب هذا التصرف من مجاهد الدين ، « أن الذى حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لأنه عظم فى نفسه وكثر معه

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٤٤ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ١٥٠

العسكر » بالاضافة الى أن أمراء حلب كانوا « لا يلتفتون الى مجاهد الدين ، ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل »[1] ، فواضح من هذا أن مجاهد الدين أراد أن يظل صاحب الموصل ضعيفا ليظل هو متمكنا منه ومن الدولة ، وأنه كان مغرما بالتعظيم والتفخيم ، بحيث أنه لما رأى أن قواد جيش حلب لا يضعونه فى المكانة التى ترتضيها نفسه المتعاظمة والتى يضعه فيها قواد جيش الموصل ، كره حلب وأكره صاحبها على التنازل عنها لأخيه . ويقارن ابن الأثير بين نفوذ مجاهد الدين ونفوذ عز الدين ، فيقول : ان « مجاهد الدين على الحقيقة هو الملك ، والاسم لعز الدين »[2]. والواقع أن مجاهد الدين بلغ من القوة والسيطرة فى عهد عز الدين الى حد أنه حين عزم عز الدين على التخلص منه بعد أن بلغ منه الضيق غايته ، لم يتمكن من القبض عليه الا بحيلة دبرها له خوفا من قوته ، فادعى المرض ، فلما جاءه مجاهد الدين ليعوده ، قبض عليه عز الدين واعتقله وصادر أمواله[3] . ينضاف الى ذلك ، أن نواب عز الدين على بلاده ، كانوا يطيعونه خوفا من مجاهد الدين لا خوفا منه ، فلما قبض عليه عصاه نوابه واستقلوا بولاياتهم عنه ، فاضطر عز الدين الى اطلاق سراحه ، وان كان قد حد من نفوذه بعد ذلك ليحد من طغيانه[4] .

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٥٤ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٣ .
(٣) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٣ .
(٤) الكامل ، ج ٩/ص ١٦٣ .

فهذه الأخبار تشير بوضوح ، الى أن مجاهد الدين كان نزاعا الى الانفرادية فى الحكم والاستبداد به ، ويؤيد أيضا استنتاجنا بأن مجاهد الدين أقصى مظفر الدين عن امارته ، لأن مظفر الدين كان يريد أن يقف فى طريقه وأن يحد من سلطانه ، وهو الشيء الذى لم يتعوده ولم يرض به .

ثم نعود الى مظفر الدين لنقول ، انه بقبوله الاقطاع من سيف الدين واقامته فى حران ، أصبح تابعا من أتباعه ، تسرى عليه شروط التبعية الاقطاعية ، فعليه أن يبادر الى خدمة سيف الدين كلما طلب منه سيف الدين ذلك ، وأن يمده بالجند أو يحارب معه بنفسه كلما استدعاه للاشتراك معه فى الحرب ، كما حدث فى سنة ٥٧١ ، حين اشتبك سيف الدين مع صلاح الدين فى حرب عند مدينة حلب ، فاشترك فيها مظفر الدين وكان يقود فيها ميمنة جيش الموصل بينما كان أخوه زين الدين يقود ميسرة جيش صلاح الدين ، وهى المعركة التى ذكرناها فى الفصل الثانى .

ولكن وان كان مظفر الدين خرج من سيطرة مجاهد الدين فى اربل ، الا أنه وقع تحت سيطرته مرة أخرى فى سنة ٥٧١ حين دخل مجاهد الدين فى خدمة سيف الدين غازى صاحب الموصل فى تلك السنة ، مع فارق كبير بين مركز مظفر الدين عندما كان فى اربل ومركزه فى حران . فقد كان مظفر الدين فى اربل أميرا وكان مجاهد الدين موظفا من موظفى الامارة ، ولما كان مجاهد الدين يدير شئون اربل كان يعرف موضعه من مظفر الدين ويعترف

فيما بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس ، بأنه مجرد عامل من عمال مظفر الدين أى يعترف بسيادته عليه ، ولكن حين أصبح مظفر الدين تابعا لصاحب الموصل ، والتحق مجاهد الدين فى خدمة صاحب الموصل أيضا ، أصبح مظفر الدين تحت نفوذ مجاهد الدين أى أن مجاهد الدين أصبح هو السيد على مظفر الدين ، لأن صاحب الموصل فوض لمجاهد الدين أمور دولته كلها : فأصبح نواب صاحب الموصل ومقطعيه على البلاد تحت اشراف مجاهد الدين مباشرة ، الأمر الذى أزعج مظفر الدين ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لقصر يده ، وقلة حيلته .

وعلى كل حال ، لا نعرف على الحقيقة كيف كانت العلاقة بين مظفر الدين ومجاهد الدين فى وضعهما الجديد فيما بين سنتى ٥٧١ و ٥٧٧ ، لأن مظفر الدين يختفى عن مسرح الحوادث ، أو على الأصح يخفيه المؤرخون فلم يذكروا عنه شيئا ، حتى اذا كانت سنة ٥٧٧ ، عاد الى الظهور والمشاركة فى الأحداث .

ففى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، مرض الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب المرض الذى مات به فى نفس السنة ، وكان الصالح اسماعيل قد أوصى أثناء مرضه بأن تؤول حلب بعد وفاته الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلما مات اسماعيل ، أسرع عز الدين وأرسل مظفر الدين الى حلب خوفا من أن يسبقه اليها صلاح الدين الأيوبى ويستولى عليها ، وأرسل معه من يحلف له أمراء حلب وقواد جيشها بالطاعة له ، فدخلها مظفر الدين فى الثالث من شهر

شعبان من السنة ، ثم لحقه عز الدين مسعود ومعه ابنه وفى صحبته مجاهد الدين قايماز ، ودخلها فى العشرين من نفس الشهر[1]، ثم عين مسعود ، مظفر الدين واليا على حلب ، ورئيسا لديوانها[2] .

ولكن عز الدين مسعودا كره الاقامة فى حلب ، لأن أمراءها وقواد جيشها تغالوا فى مطالبهم منه بزيادة اقطاعاتهم وطلب الأموال ، وأكثروا من الادلال عليه لموافقتهم على امتلاكه مدينتهم ، بالاضافة الى أن بعده عن الموصل يعرضها للسقوط فى يد صلاح الدين الطامع فيها ، فقد ينتهز صلاح الدين فرصة غيابه عنها فيسرع اليها ويستولى عليها ، ومن ثم عزم على الرحيل عن حلب الى الموصل فأبقى بها ولده نور الدين محمودا — وهو طفل صغير ، وردّ أمره الى والى القلعة شهاب الدين اسحاق ، وسلّم البلد والجيش الى مظفر الدين [3] .

وارسال عز الدين مسعود ، مظفر الدين ليحفظ له حلب ، ثم تسليمه المدينة والجيش اليه ، له دلالته على أن مظفر الدين كان موضع ثقة عز الدين ، بحيث استأمنه على المدينة ، واطمأن الى أنه فوض أمرها الى رجل مؤتمن ، ولكن سوف نرى أن

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٩٧ .

(٢) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ١٩٢ (مخطوط) .

(٣) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

مظفر الدين يحاول أن يستولى على حلب لنفسه ، فلماذا أقدم على ذلك ؟

هنـــاك روايتان مختلفتان يمكن أن نستنتج منهما أو من احداهما سبب اقدام مظفر الدين على الاستيلاء عـلى حلب :
فأما الرواية الأولى — ويقول بها ابن الأثير مؤرخ العصر — أن عماد الدين زنكى صاحب مدينة سنجار طمع فى مدينة حلب ووجد أنها أصلح له من مدينـــة سنجار ، فعرض عـلى أخيه عز الدين مسعود أن يتبادلا المدينتين ، فيتنازل له عماد الدين عن سنجار ، فى مقابل أن يتنازل له عز الدين عن حلب ، فرفض عز الدين عرض أخيه ، ولكن عماد الدين أصر على أخذ حلب ، فاضطر عز الدين الى المبادلة تحت ضغط عاملين لم يستطع لهما دفعا . فأما أولهما ، فان عماد الدين هدّد أخاه بالانتماء الى صلاح الدين الأيوبى وتسليم مدينة سنجار اليه اذا هو رفض تسليمه حلب . وأما ثانيهما ، فان مجاهد الدين وقف الى جانب عماد الدين وأيد طلبه ، فأخذ يلح على عز الدين فى التنازل عن حلب لأخيه ، فنزل عز الدين على رأيه لخوفهمنه للأسباب التى ذكرناها من قبل ، ثم تم الاتفاق بين الأخوين على المبادلة [1] .
أما غـير ابن الأثير ، كابن واصل [2] ، وابن شداد [3] ، وابن أبى طى [4] ، وابن العديم مؤرخ حلب ، فيذكرون أن

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٥٤
(٢) مفرج الكروب ، ج ٢/ص ١٠٩ .
(٣) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٤٥ .
(٤) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

التبادل تم بين الأخوين عن رضا وبدون ضغط من أحد ، بل ان ابن العديم يذكر أن الذى اقترح التبادل هو عز الدين مسعود حيث يقول — ابن العديم — انه بعد أن غادر عز الدين مسعود مدينة حلب ، سار الى مدينة الرقة وأقام بها فصل الربيع ، « وراسل أخاه عماد الدين فى المقايضة بسنجار ليتوفر على حفظ بلاده ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه أنه يحتاج الى الاقامة بالشام لتعلق أطماع الملك الناصر (صلاح الدين) بحلب ، وقدم عليه أخوه ، واستقرت المقايضة على ذلك »[1] .

على كل حال ، وأيا كان سبب المقايضة والدافع لها ، يمكن القول ، بأن الدافع الذى دفع مظفر الدين على الاستيلاء على حلب ، هو خوفه من خروج حلب من يده حين علم بالمفاوضات الدائرة بين الأخوين ، وأن النية متجهة الى تسليم المدينة الى عماد الدين ، فقد قدر مظفر الدين أنه لو تسلم عماد الدين المدينة ، فان عماد الدين سوف يقصيه عنها ويستعين فى حكمها برجاله وخواصه ، فلذلك عزم على الاستيلاء عليها قبل أن يتم الاتفاق بين الأخوين فيضعهما أمام الأمر الواقع ، دون النظر الى عز الدين مسعود سيده الاقطاعى ، والذى يدين له بالطاعة والولاء .

وأما ابن أبى طى ، وهو أيضا مؤرخ معاصر ، فانه يقول ؛ أن مظفر الدين أقدم على محاولة الاستيلاء على حلب قبل أن

(١) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

تبرز المفاوضات الى الوجود ، وانما أقدم مظفر الدين على ذلك بعد رحيل عز الدين مسعود عنها ، فلما بلغ عز الدين محاولة مظفر الدين قرر أن يسلم المدينة الى أخيه عماد الدين لعلمه بأنه لن يتمكن من الاشراف عليها لبعدها عن الموصل . ونص خبر ابن أبي طي : « في أول السنة (سنة ٥٧٨) أراد مظفر الدين ابن زين الدين — وكان اليه شحنكية حلب — الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهاجمها فلم يتمكن وظهر أمره . وبعد هذه الوقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على « الرقة » وتحالفا على بساط واحد ، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها الى عز الدين ، وسلم عز الدين اليه حلب .. » [1] ، فبحسب رواية ابن أبي طي ، أن فكرة التبادل نبتت عند الأخوين بسبب محاولة مظفر الدين الاستئثار بحلب ، فآثر الأخوان ، أن يتسلمها عماد الدين ليقيم بها اقامة دائمة ويحفظها لبيتهما .

وكيفما كان الأمر ، فان مظفر الدين أقدم على الاستيلاء على قلعة المدينة ليضمن بقاءالمدينة في يده وليستطيع الدفاع عنها اذا أعلن عز الدين الحرب عليه ، لأن من بيده القلعة يستطيع أن يسيطر على المدينة بأكملها ، لأن القلعة هي في الواقع الحصن الحصين للمدينة ، وأما ربض المدينة ، أي سهلها ، فانه عرضة للاغارة عليه في أي وقت ، ومع ذلك لن يستفيد المغير من السهل ما دامت القلعـــة ليست في يده ، وأن حاميتها ستواصل قتاله ، لذلك أقدم مظفر الدين على الاستيلاء على قلعة حلب بالرغم من

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

وجود المدينة فى يده . وكانت القلعة تقع فى وسط المدينة على تل مستدير الشكل ، وحولها خندق عميق يصعب اجتيازه أو تخطيه ، وانما يصل القلعة بالخارج قنطرة متحركة ترفع وتخفض عند اللزوم ، وترابط فيها قوة مسلحة مهيأة ومستعدة للقتال فى أى وقت ، لذلك حين عزم مظفر الدين على الاستيلاء على القلعة لم يحاول أن يستولى عليها بالقوة لأن هذا فوق استطاعته ، ولذلك لجأ الى الحيلة والخداع . فقرر أن يصعدالىالقلعةبنفر قليل من الجند لئلا يثير شكوك والى القلعة ، وعندما يدخلها برجاله يقبض على الوالى ويعتقله أو يقتله ، فتخضع الحامية له وتصبح القلعة عندئذ فى قبضته ، ولن يستطيع عز الدين أو غيره بعد ذلك اخراجه منها ، وبذلك تصفى له البلد كلها ، ويصبح هو سيدها وأميرها .

ويصف مؤرخ حلب ابن العديم ، حيلة مظفر الدين التى اتبعها للاستيلاء على القلعة ، فيقول ، ان مظفر الدين ، اتفق مع جماعة من جند حلب على الاستيلاء على القلعة ، فلبسوا الزرد تحت ثيابهم ، وحمل كل واحد منهم سيفا ، وساروا جميعا اليها ، فلما وصلوا القنطرة وقفوا عندها ، وأرسل مظفر الدين الى والى القلعة يقول له : انى وصلنى كتاب من أتابك عز الدين وأمرنى أن أطلع فى جماعة اليك . ولكن الوالى شك فى مظفر الدين عندما رأى ما معه من الرجال ، فأرسل اليه بأنه يسمح له بدخول القلعة وحده دون ما معه من الرجال ، فأسقط فى يد مظفر الدين وعرف أن حيلته قد انكشفت فأحجم

عن الدخول وعاد مع رجاله من حيث أتوا . عند ذلك تأكد شك والى القلعة فى نوايا مظفر الدين ، فأرسل الى عز الدين مسعود وأخبره بما كان من مظفر الدين ، فلما علم مظفر الدين بأن عز الدين عرف أمره خاف منه ، فأرسل اليه ينفى عن نفسه سوء النية فى مسيره الى القلعة ، ويعتذر بأنه انما لجأ اليها لكى يحتمى بها من الاسماعيلية (ويقال لهم أيضا الباطنية) الذين هددوه بالقتل (١) .

ولم يشأ عز الدين أن يستعمل العنف مع مظفر الدين لما علم بما حدث منه ، فقد خاف عز الدين أن يلجأ مظفر الدين الى صلاح الدين — عدو عز الدين اللدود — وينضم اليه فتدخل حلب ضمن دولته ، وانما أسرع بالاتفاق مع أخيه عماد الدين وتنازل له عن المدينة ، فسار اليها عماد الدين ، فلما علم مظفر الدين بمسيره اليها ، خرج منها وعاد الى مدينته حران ، بعد أن وضع اسفينا فى العلاقة بينه وبين عز الدين ومجاهد الدين ، وبعد أن بذر بذور العداوة بينه وبينهما ، ولذلك أحس بحرج مركزه ، وقدر — وقد أصاب فى تقديره — أن عز الدين ومجاهد الدين لن يغفرا له عمله ، وأنهما سوف يتحينان الفرص للايقاع به ، ولذلك أسرع بالعمل لانقاذ نفسه ، فلم يجد بدا من أن ينفصل عن الموصل ويحتمى بصلاح الدين — الخصم العنيف للموصل — وأن ينضم اليه .

واذا كان مظفر الدين التجأ الى صلاح الدين وانضم اليه

---

(١) زبدة الحلب ، جـ ٢/لوحة ٢٠٠ (مخطوط) .

خوفا من عز الدين ومجاهد الدين ، فان هناك سببا آخر وجيها دفعه الى ذلك ، وهو الانتقام من مجاهد الدين بصفته الحاكم الفعلى لدولة الموصل ، بسبب اقصائه عن امارة اربل ، فأراد أن يثأر منه بانضمامه الى عدو الموصل ، صلاح الدين الذى يعتبر فى نفس الوقت عدوا شخصيا لمجاهد الدين .

ولم يكتف مظفر الدين بالانضمام الى صلاح الدين ، وانما أخذ يحرضه ويدفعه الى الاغارات على الموصل وملحقاتها والاستيلاء عليها ، ويعده النصرة والاشتراك معه فى الحروب التى يثيرها ضد صاحب الموصل ، حتى استجاب له صلاح الدين .

ففى سنة ٥٧٨ ، كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت للاستيلاء عليها من الصليبيين ، فأرسل مظفر الدين اليه « انه معه ، ومحب لدولته ، ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ، ويطمعه فى البلاد (بلاد بنى زنكى فى الجزيرة والموصل) ويحثه على الوصول اليها ، فسار صلاح الدين عن بيروت ، ورسل مظفر الدين تترى اليه بحثه على المجىء ، فجدّ صلاح الدين فى السير اليها » [1] . ويورد العماد الأصفهانى بأسلوبه المسجوع نص تحريض مظفر الدين لصلاح الدين على الاستيلاء على بلاد عز الدين ، ومنها الموصل ، فيقول : وقال مظفر الدين للسلطان ، أى لصلاح الدين : « ما زلت شوقا اليك فى « حران » حران ، والى الرى من ورد خدمتك ظمآن ، وهى لك مبذولة ، وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة ، و « الرها » لا يعسر أمرها ،

(١) الكامل ، جـ ٩/ ١٥٦ .

و « الرقة » لرقك وبعض حقك ، و « الخابور » فى انتظار خبرك ، و « دارا » دارك ، و « نصيبين » نصيبك ، وملك « الموصل » موصلك الى الملك ، وما هذا أوان الونا ..»[1]

وقد ذكر العماد فى نصه هذا ، بلاد الزنكيين فى الجزيرة التى حرض مظفر الدين ، صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وهى : حران ، والرها ، :والرقة ، والخابور ، ودارا ، ونصيبين فضلا عن الموصل .

ولما تكرر الحاح مظفر الدين على صلاح الدين بفتح بلاد الزنكيين ، واطمأن صلاح الدين الى مساندة مظفر الدين له ، سار عن بيروت الى الجزيرة ، فلما عبر نهر الفرات اجتمع به مظفر الدين وانتمى اليه ودخل فى طاعته ، وبذلك انقلب مظفر الدين عدوا للموصل ، ثم بدأ صلاح الدين يستولى على مدن الجزيرة التى تدخل فى ملك بنى زنكى وغيرهم من أمراء الجزيرة ، ومظفر الدين يحارب الى جانبه وفى صفوف جيشه ، ولما استولى صلاح الدين على مدينة الرها أقطعها الى مظفر الدين الى جانب ما بيده من مدينة حران ، فازدادت بذلك اقطاعاته ، وارتفعت تبعا لذلك مكانته . وبعد أن استولى صلاح الدين على : الرقة ، والخابور ، ونصيبين ، استشار أصحابه فى أى البلاد يبدأ فى الاستيلاء عليها من بلاد بنى زنكى الكبرى ، هل يبدأ بالموصل ، أو بسنجار ، أو بجزيرة ابن عمر ، فاختلفت الآراء فى ذلك : الا أن مظفر الدين أخذ يقنع صلاح الدين بضرورة البدء بالموصل وأخذ يهون عليه فتحها ، لأن فى تقديره أن صاحبيها

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ٣٠ .

عز الدين ومجاهد الدين قايماز فى حالة من الضعف بحيث لن يستطيعا الصمود لقتاله ، وانهما سوف يفران أو يستسلمان بمجرد ضرب الحصار على الموصل ، أو حتى بمجرد أن يسمعا بمسير الجيوش اليها ، وأيد ناصر الدين محمود بن شيركوه — ابن عم صلاح الدين — رأى مظفر الدين ، فانه كان قد تم اتفاق سابق بين صلاح الدين وناصر الدين ، على أنه اذا استولى صلاح الدين على الموصل أن يقطعها لناصر الدين فى مقابل مبلغ من المال يدفعه له سنويا ، فلما رأى صلاح الدين حماس مظفر الدين وناصر الدين لفتح الموصل ، سار اليها وفى رفقته مظفر الدين وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لحصانتها ومناعتها فعاد عنها (١) .

غير أن العلاقة ساءت بين صلاح الدين ومظفر الدين فى سنة ٥٨١ ، بحيث أقدم صلاح الدين على القبض عليه واعتقاله برغم الحماس الذى كان يبديه مظفر الدين للانتصار له ضد بنى زنكى ، ومع ذلك فان صلاح الدين لم يتوان فى اعتقاله عدة شهور لشك داخله فيه . ذلك أن مظفر الدين ما زال ناقما على صاحب الموصل وعلى مجاهد الدين ، ويود بجدع الأنف أن يزيل دولة الموصل من الوجود ، فمنذ أن فشل صلاح الدين فى حملته على الموصل سنة ٥٧٨ ، ومظفر الدين دائم التحريض له لمعاودة الكرة مرة ومرات لامتلاكها . وفى سنة ٥٨١ ، أرسل مظفر الدين الى صلاح الدين رسالة على يد رسول له يحرضه

(١) الروضتين ، جـ ٢/ص ٣٠ .

فيها على اعادة المحاولة للاستيلاء على الموصل ، فأبلغ الرسول صلاح الدين رسالة مظفر الدين ، وأضاف الرسول أن مظفر الدين يتعهد لصلاح الدين بالقيام بما يحتاج اليه من النفقات والأزواد لهولجيشه متى عبر الفرات ، وأنه مستعد أيضا ، أن يدفع له خمسين ألف دينار حين يصل الى حران ، فتحمس صلاح الدين عند ذاك لفتح الموصل وبخاصة وأن شكوى زين الدين يوسف كانت قد وصلته عن تعدى مجاهد الدين على بلاده ، فجهز جيشه وخرج به من دمشق يريد الموصل وهو مطمئن الى وعود مظفر الدين ، ولكنه حين وصل حران ، لم يجد من مظفر الدين شيئا مما وعد به على لسان رسوله ، فداخلته الريبة فيه وشك فى نواياه ، واعتقد أنه مال مع صاحب الموصل فهو يغرر به ، وانتهز أعداء مظفر الدين فرصة شك صلاح الدين فيه ، فأخذوا يوقعون به عنده ، حتى أوغروا صدره عليه ، كل هذا ومظفر الدين يحلف لصلاح الدين أنه ما زال قائما على العهد ، مواليا له ، معاديا للموصل وصاحبها ، أما ما التزمه رسوله له ، فانه لم يكن بأمره ولا يعلم عنه شيئا ، ولكن صلاح الدين لم يقتنع ، فقبض عليه واعتقله حتى تتبين له حقيقة أمره . وقد أشار بعض المقربين من صلاح الدين عليه بقتله ، ولكنه لم يفعل ، خيفة أن ينحرف عنه الموالون له من أمراء الجزيرة ، لأنهم يعلمون الخدمات التى أداها مظفر الدين لصلاح الدين فى استيلائه على ما استولى عليه من بلاد الجزيرة ، غير أن صلاح الدين لم يطل اعتقال مظفر الدين ، اذ سرعان ما أظهرت الأيام صدق ولاء مظفر الدين له ، فأطلق

مراحه وأرضاه رضاء جميلا ، وخلع عليه وطيب قلبه « وأعاده الى قانونه فى الاكرام والاحترام » [1] .

وسار صلاح الدين بجيشه من حران الى الموصل لحصارها ، وفى ركابه مظفر الدين وأخيه زين الدين يوسف ، فضرب صلاح الدين الحصار على المدينة ، ونزل مظفر الدين وأخوه بمعسكرهما فى الجانب الشرقى من الموصل مع بعض القواد الآخرين ، ولكن صلاح الدين لم يستطع فتح المدينة برغم القتال الشديد عليها ، فعزم على الرحيل عنها ، فقد جد ما جعله يتحول عنها مؤقتا [2] .

فقد حدث أن توفى شاه أرمن بن سكمان صاحب ولاية « خلاط » وصلاح الدين على حصار الموصل ، ولم يخلف صاحب خلاط من يرث حكم الولاية ، فطمع فيها شمس الدين محمد ابن ايلدكز صاحب بلاد همذان ، وعزم على الاستيلاء عليها ؛ فلما بلغ المسئولين فى خلاط ما اعتزمه شمس الدين ، أرسلوا الى صلاح الدين يستنجدون به ويعرضون عليه تسليم البلاد اليه ، ويلحون عليه فى الاسراع قبل أن يسبقه شمس الدين ، عندئذ عزم صلاح الدين على الرحيل عن الموصل ، وسار بجيشه الى خلاط ، وأرسل مظفر الدين وناصر الدين محمد بن شيركوه على رأس جماعة من الجيش ، وأمرهما أن يسيرا اليها من أقرب الطرق ليسبقا شمس الدين ؛ ولكن حين اقتربا من خلاط ، منعهما

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٧ .

(٢) سيرة صلاح الدين الأيوبى ، ص ٥٤ .

المسئولون فيها من تخطى حدودها ، وطلبوا منهما الاقامة فى مكان يقال له « قرن » ، فى الوقت الذى كان شمس الدين قد اقترب من المدينة أيضا ، فلما وجد أن جيش صلاح الدين قد سبقه اليها ، ضرب معسكره بعيدا عنها ، ولم يقربها .

وكان المسئولون فى خلاط فى حقيقة الأمر ، قد راسلوا صلاح الدين خديعة منهم ومكرا ، وذلك لكى يرهبوا شمس الدين بن ايلدكز ويضعوا أمامه منافسا قويا له هو صلاح الدين ، لأنهم يعلمون سلفا ، أنهم لن يستطيعوا الوقوف أمامه فى القتال ، وأن بلادهم لا شك واقعة فى يده مهما دافعوا عنها وقاتلوا دونها ، فوجدوا أن خير ما يعملونه فى هذه الحالة ، هو أن يتفقوا معه بشروط لا تجحفهم ، ولن يتأتى لهم ذلك ، الا اذا وضعوا أمامه صلاح الدين ، وهو منافس خطير له ، وقد نجحت خطتهم ، فان شمس الدين سرعان ما اتفق معهم على شروط ارتضوها ، ومن ثم أعلنوا طاعتهم له دون صلاح الدين ، فاضطر صلاح الدين الى العودة عن خلاط بعد مفاوضات جرت بينه وبين شمس الدين لم يذكر المؤرخون كنهها [1] .

ويبدو أن فشل صلاح الدين فى خلاط قوى عزمه على فتح الموصل بأى ثمن ، ويبدو أيضا — لحسن حظه — أن عز الدين مسعود يئس من الاحتفاظ بمدينته وهو يرى صلاح الدين مصرا على الاستيلاء عليها ، فما ان رأى أن صلاح الدين قد عاد اليها

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٧ .

لمحاصرتها حتى عقد معه صلحا أصبح بموجب شروطه تابعا من أتباعه [1] ، وبذلك فقدت الموصل كيانها كدولة مستقلة ، الأمر الذى طابت له نفس مظفر الدين وهدأت له ثائرته ، فقد شفى غليله من خصمه مجاهد الدين قايماز الذى أقصاه عن امارته بغير وجه حق .

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٠ .

الفصل الخامس

مظفر الدين أمير اربل

ذكرنا فى الفصل الثانى فى حديثنا عن زين الدين يوسف أنه توفى سنة ٥٨٦ على أثر مرض وهو فى معسكر صلاح الدين فى عكا ، ويذكر المؤرخون أن أخاه مظفر الدين كان يقوم على خدمته أثناء مرضه . فلما مات زين الدين ، طلب مظفر الدين من صلاح الدين أن يوليه امارة اربل وما لأخيه من البلاد ، على أن يتنازل له عما بيده من البلاد فى الجزيرة : حران ، والرها ، وسمسياط ، وأن يدفع له خمسين ألف دينار كل عام ، فأجاب صلاح الدين سؤاله ، وأصدر منشورا بولايته على اربل وما يتبعها من البلاد ، وأذاع المنشور فى كافة البلاد الاسلامية ، ليعلم المجاورون لاربل أن مظفر الدين هو من أمرائه ، وأن اربل ما زالت جزءا من دولته ، وأرسل صلاح الدين نسخة من المنشور الى عز الدين مسعود صاحب الموصل ليحيط به خبرا ، ولا يبعد أن عز الدين طلب اربل من صلاح الدين عندما علم بوفاة زين الدين ، ولكن صلاح الدين رفض اجابته الى ما طلب ، ومما جاء فى المنشور :

« لا شك احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقر

رحمته ، مجاهدا فى سبيله ، شاكرا لنعمته ، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم ، (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) [1] ، فما أفجع القلوب بمصابه ، وما أنكى فى النفوس أفول شبابه . ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته ، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار فى ايثاره ، وبلى بدره التمّ بسراره ، وأصبح فى ضمير البلى من أسراره . وهذه اربل من انعام البيت الكريم الأتابكى على البيت الزينى مذ سبعين عاما ، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاما ، ولم يزيدوا أحكامه الا احكاما وابراما : وما رأى أن يخرج هذا الموضوع منهم ، وأن يصدف به عنهم . والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقـدم فى الولاية بمقتضى وصية أبيه ، وقد أنهض ليسد مسد أخيه » [2] وما أن صدر المنشور حتى سار مظفر الدين الى اربل ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٥٨٦ [3] .

وقد أشيع أن مظفر الدين قتل أخاه بالسم وهو يمرضه ، وأنه أظهر الفرح بموته ، والذى يحكى هذه الرواية وينفرد بها سبط ابن الجوزى ، حيث يقول عن وفاة زين الدين فى ترجمته له : « .. وكان عنده أخوه يمرضه ، فيقال انه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك ، فانه لم يكترث بموته

(١) سورة النساء : آية : ٩٩ .
(٢) الروضتين ، جـ ٢/ص ١٦٤ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٤٠٦ .

ولا تأسف عليه » [1] . ويؤيد عدم اكتراث مظفر الدين بموت أخيه مؤرخ معاصر وله صلة وثيقة بمظفر الدين وأخيه ، هو العماد الأصفهانى ، ولكنه لم يتهم مظفـر الدين بقتله أخيه بالسم ، ولا ذكرها كاشاعة ، ولو كانت هذه الواقعة صحيحة لما أهمل ذكرها ، يقول العمـاد فى معرض كلامه عن وفاة زين الدين :
« .. وبكرنا الى مظفر الدين لنعزيه فى أخيه ، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه ، فاذا هو فى شغل شاغل عن العزاء ، مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء ، وهو جالس فى مخيم أخيه المتـوفى ، وقد أشرف على حفظه وأوفى ، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم ، وعجل عليهم وما أغفلهم ، منهم صـارم الدين بن بلداجى متـولى (قلعة) خفتيذ ، وكذلك كل حاضر له حصن ، ليحصل له من طاعته أمن » [2] . وكذلك لم يذكر هذا الاتهام معاصر آخر للحادث وهو ابن الأثير الجـزرى ، ونحن اذا أردنا أن نقف موقف المحايدين من اتهام مظفر الدين بدس السم لأخيه ، فلا ننفيـه ولا نؤيده ، وانما نقف حياله صامتين .

واذا أردنا أن نؤيده فيمكننا ذلك ، لأن أمثال هذه الجريمة تكررت فى الأسر الحاكمة ، فكثيرا ما قتل الأخ أخاه ، والوالد ولده ، والابن والده من أجل الملك والسلطان .

أما اذا أردنا أن ننفى الاتهام فيمكننا أيضا نفيه بأدلة يمكن

---

(١) الروضتين ، ج ٢/ص ١٦٤ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢٠ .

وضعها موضع الاعتبار ، وأولها صيغة الشك التى بدأ بها سبط ابن الجوزى خبره ، وهى لفظة ، « فيقال » ؛ ومنها ما هو معروف عن تدين مظفر الدين فنزعته الدينية تزعه عن أن يقترف مثل هذه الجريمة البشعة ؛ ومنها أيضا أن مظفر الدين لو أراد قتل أخيه لقتله حين رافقه مع صلاح الدين فى حرب الموصل سنة ٥٨١ ، فقد كان فى استطاعة مظفر الدين حينذاك أن يطلق عليه سهما أو نبلا فيرديه قتيلا من حيث لا يراه أحد فى زحمة القتـال ، ولما انتظر عليه هذه السنين الخمس .

ونحن نميل الى تكذيب هذه الشائعة التى ألصقت التهمة بمظفر الدين والتى تستند على أنه هو الذى كان يقوم على خدمة أخيه وتمريضه ، ففى رأينا أن وجود مظفر الدين مـع أخيه لا يعنى أنه قتله ، وانما نعتبر أن موته كان نتيجة مرض مستعص وفى مكان لا يتيسر فيه العلاج الكافى ، وهو ميدان الحرب ؛ كذلك نميل الى أن الشائعة خرجت من أفواه بعض الحاسدين لمظفر الدين ومن أعدائه ، حيث استغلوا ما هو معروف عن عزل مظفر الدين عن امارة اربل وولاية أخيه عليها وأثر هذا على مظفر الدين ، فسبب القطيعة بينه وبين أخيه .

ولكى نتعرف على موقف مظفر الدين وفهم تصرفاته على وجهها الصحيح ، نفند هذه التصرفات لنتمكن من الحكم له أو عليه حكما صحيحا .

وتصرفات مظفر الدين كما وردت فى خبر سبط ابن الجوزى وغيره من المؤرخين :

عدم اكتراثه بوفاة أخيه .
وانشغاله بالاحتيـــاط على ما فى معسكر أخيه من الأشياء .
وقبضه على جماعة من أمراء أخيه ، ومنهم صـــارم الدين ابن بلداجى متولى قلعة خفتيذ .

فاذا أردنا الحق ، فيجب علينا أن ننصف الرجل الذى أصبح فى ذمة التاريخ ، وذلك بأن نوضح أسباب هذه التصرفات التى نعجب لقصور فهم المؤرخين المعاصرين لطابع عصرهم الواضح .

ففيما يختص بعدم اكتراث مظفر الدين بموت أخيه ، فاننا نرجىء الكلام عليه حتى تنتهى من توضيح التصرفين الثـــانى والثالث .

وأما فيما يختص بانشغاله بالاحتياط على ما فى معسكر أخيه من الأشياء فان مرجع ذلك ، أن الذى يحدث فى مثل هـــذه المناسبة — والمعاصرون يعلمون هذا — أن رجال الجيش والغلمان ينتهزون فرصة موت ملكهم أو أميرهم أو قائدهم فى ميـــادين القتال ، فيعتبرون كل ما يملك سيدهم حقا لهم مباحا لهم سلبه ونهبه حتى لا يبقون على شىء منه ، فأراد مظفر الدين أن ينقذ أموال أخيه وذخائره لكى يستفيد بها هو ، بدلا من أن يأكلها النهابون من الجند والغلمان ، وليس من شك فى أن تصرفه هذا ، ليس فيه ما يعيبه أو يشينه .

وأما قبضه على كبار رجال دولة أخيه ونوابه على القـــلاع والحصون ممن كانوا معه ، فانه احتياط لابد أن يقـــدم عليه مظفر الدين ، وذلك خشية أن تحدث أحدهم نفسه بالاستقلال

بقلعته أو بحصنه ، أو خشية أن ينضم أحدهم الى صاحب الموصل — عدوه الألد — وفى هذا أو ذاك ما فيه اضعاف له ، فقبض عليهم حتى يضمن ولاءهم له بتحليفهم على طاعته حسب العرف الجارى فى ذلك الوقت ثم يطلقهم بعد أن يأمنهم على نفسه ، وقد ذكر العماد الأصفهانى نفسه أن ما فعله مظفر الدين من قبضه على صارم الدين — ولعله كان أقوى أتباع أخيه يوسف — وعلى كل من له حصن هو « ليحصل له من طاعته أمن » أى ليضمن طاعتهم له .

فاذا ما عرفنا أسباب اهتمام مظفر الدين بالمحافظة على ما فى معسكر أخيه من أموال وعتاد وبقبضه على بعض أمراء أخيه ، عرفنا لماذا لم يبد عليه الاكتراث بوفاة أخيه ومع ذلك ، فان تصرفه هذا لا يعتبر عدم اكتراث ، وانما هو اشتغال عنه بالاهتمام بحفظ حقوقه قبل أن تضيع . هذا فى الوقت الذى لا ننكر فيه أن مظفر الدين كان يتطلع دائما الى امارته التى أقصى عنها ظلما وعدوانا من مجاهد الدين ، وأنها كثيرا ما كانت ترد على خاطره بحيث كان يقول لخلصائه ، انه اذا عاد الى أمارته ، فانه سوف يقسم مغلها (أى ايرادها) ثلاثة أقسام ، قسم ينفقه على أوجه البر فيها ، وقسم لنفقاته الخاصة ، وقسم للتسليح للدفاع عن المدينة اذا أغار عليها مغير .

وقد تحققت مخاوف مظفر الدين من المؤامرات ضده ، فانه ما كاد يصل خبر وفاة أخيه الى اربل حتى أرسل بعض سكانها الى مجاهد الدين — وهو بالموصل — يستدعونه لتسليم البلد

اليه لهـواهم فيه — ولحسن سـيرته السابقة فيهم ، فرفض مجاهد الدين الاستجابة لهم ، كذلك لم يشجعه عز الدين مسعود على ذلك بسبب الظروف المحيطة بهما ؛ فأما مسعود فانه ابتعد عن أمور اربل خوفا من صلاح الدين من أن يعتبره معتديا على ولاية تحت حمايته ونفوذه ، وأما مجاهد الدين ، فاننا ذكرنا من قبل ، أن عز الدين مسعود كان قد قبض على مجاهد الدين واعتقله ثم أطلقه من الاعتقال وأعاده الى وظيفته ، غير أنه لم يفرده بهذا المنصب ولم يطلق يده فى العمل كما كان الحال قبل القبض عليه ، وانما جعل معه انسانا يراقب أعماله وتصرفاته ، ولكن الرقيب اشتد فى رقابته حتى أنه كان يشاركه فى الحكم ، ويحل عليه ما يعقد من أمور ، فكان مجاهد الدين يغتاظ من ذلك أشد الغيظ ، ولكنه لا يستطيع الحد من تدخل الرقيب ، لضعف مكانته عند صاحب الموصل ، لذلك حين استدعى الى أربل رفض الدعوة ، وحين سأله بعض خواصه عن سبب رفضه ، أجابه بمرارة : لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان (أى الرقيب) ويكف يدى عنها [1] .

وكان رفض عز الدين مسعود ومجاهد الدين الاستجابة لدعوة اربل خطأ كبيرا حيث ذاق ملوك الموصل بعد ذلك مرارة نتيجته بعد أن استقر مظفر الدين فيها ، فقد كان مظفر الدين العدو الألد للموصل ، حيث يقول المؤرخ ابن الأثير المعاصر

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢١٠ .

للحوادث ، ان مظفر الدين « بقى غصة فى حلق البيت الأتابكى (الزنكى) لا يقدرون على اساغته » [1] وقد كان الأمر كذلك كما سنبين ذلك بعد .

وترك مظفر الدين عكا وسار الى اربل ليتسلمها ويثبت أقدامه فيها ، وظل بها حتى استدعاه صلاح الدين ليواصل معه حرب الصليبيين ، فظل مظفر الدين معه حتى وفاته (وفاة صلاح الدين — فى سنة ٥٨٩) ثم عاد الى اربل ليدخل فى اشكالات عديدة مع ملوك الموصل وحلفائهم من الأيوبيين ، خلفاء صلاح الدين .

ذلك أن مدينة اربل كانت فى الأصل تابعة للموصل — كما سبق أن ذكرنا — منذ أن استولى عليها عماد الدين زنكى من الملك مسعود بن محمد السلجوقى ، واذا كان عماد الدين قد أقطعها لزين الدين على ، فان هذا الاقطاع ليس معناه أن المدينة خرجت عن ملكه ، وأن مقطعها حر التصرف يعطى ولاءه لمن يشاء أو أن يستقل بها استقلالا كاملا ، وانما معناه ، ان المدينة ما زالت من بلاد دولة الموصل ، وأن مقطعها ملزم بالانتماء الى ملوكها واحدا بعد الآخر ، فاذا ما استقل بها ، أو حول ولاءه لغير ملك الموصل ، يعتبر خارجا على الدولة ، ومن حق صاحب الدولة حينئذ قتاله واسترداد البلد منه واقطاعها لغيره . فمظفر الدين ، ومن قبله أخوه زين الدين يوسف قد حولا

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢٢٨ .

ولاءهما الى صلاح الدين ، فأصبحا بذلك من الخوارج على صاحب الموصل ، وأصبح من حقه اذن اخضاعهما ، ولكن ملوك الموصل لم يستطيعوا التحرش بهما لوجود صلاح الدين ، ولأنهم هم أنفسهم كانوا خاضعين لصلاح الدين . فلما مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) استعاد كل من صاحب الموصل ومظفر الدين استقلاله ، وأصبح كل منهما حر التصرف فى دولته ، لذلك كان مظفر الدين يخشى ازدياد قوة صاحب الموصل ، لئلا يعمل على استرداد اربل وشهرزور التى كانت هى أيضا من أملاك الموصل والتى تنازل عنها مسعود لصلاح الدين سنة ٥٨١ بموجب شروط الصلح التى عقدت بينهما ثم أقطعها صلاح الدين لزين الدين يوسف ، لذلك وقف مظفر الدين موقف العداء من أصحاب الموصل وعمل على الحد من توسعهم لئلا تزداد قوتهم فيصبحون خطرا عليه ، وأول موقف عدائى لمظفر الدين من ملوك الموصل ، كان مع عز الدين مسعود عقب وفاة صلاح الدين مباشرة ، فقد أراد عز الدين مسعود أن ينتهز فرصة وفاة صلاح الدين فيعمل على استرداد ما أخذه صلاح الدين من بلاده بالجزيرة ، فأشار عليه مجاهد الدين بأن يكاتب ملوك الأطراف — ومنهم مظفر الدين — ويستميلهم الى جانبه لكى يمدوه بالقوات اللازمة له لقتال خلفاء صلاح الدين ، أو ليضمن على الأقل وقوفهم على الحياد أثناء اشتباكه مع الأيوبيين فى القتال ، قبل الاقدام على مثل هذه المغامرة الخطيرة ، لأنه وان كان صلاح الدين قد مات ، الا أن خلفاءه سيدافع كل منهم

عما بيـــده ، ولعلهم يتحالفون ضـــده فتجتمع قوة لا يستطيع محاربتها ، فلما كاتب عز الدين مسعود ملوك الأطراف ، جاءته اجاباتهم برفض طلبه ، فقد خافوا على أنفسهم منه اذا عاد الى قوته ، وكان فى مقدمة الرافضين مظفر الدين فانه خشى أن يسترد منه اربل وشهرزور وقلاعها متى عاد الى قوته ، وبذلك فشل مشروع عز الدين مسعود [1] . ثم تعددت المواقف العدائية بين مظفر الدين والموصل ، ويبدو لنا أنه كان هنـــاك صراع بين مظفـــر الدين وملوك الموصل أشـــد وأكثر حوادث مما ذكره ابن الأثير مؤرخ الموصل والبيت الزنكى ، لأننا نحس بأن أخباره عن اربل والموصل مهزوزة وفيها كثير من الضغط والاختصار ، بحيث نجد فترة طويلة من سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م) حتى سنة ٦٠٠ (١٢٠٣ م) لم يذكر خلالها أى أخبار عن مظفر الدين وملوك الموصل ، فلما كانت سنة ٦٠٠ ، ظهر مظفر الدين مرة أخـــرى كعدو أيضا للموصل .

وبيان ذلك ، أن الخـــلاف كان مستمرا بين أبنـــاء البيت الزنكى ، وبخاصة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وبين عمه قطب الدين محمد صاحب مدينة سنجار ، غير أنهما اصطلحا فى تلك السنة ، فأزعج هذا الصلح الملك العادل الأيوبى ، الذى كان يحكم فى ذلك الوقت مصر ، ودمشق ، وبلاد الجزيرة ، لأن اتفاقهما معناه خلق قوة كبيرة موحدة تستطيع تهديد ماله فى الجزيرة من بلاد ، فعزم على فصم عرى هذا الصلح ، فأرسل الى

(١) الكامل ، ج ٩/ص٢٦٤

قطب الدين محمد يستميله اليه ، فغدر قطب الدين بابن أخيه واستجاب للملك العادل وخطب له فى بلاده ، الأمر الذى استعظمه نور الدين أرسلان شاه ، فان اتفاقهما يهدده تهديدا خطيرا ، ومن ثم خرج بجيشه وسار الى نصيبين — وهى لعمه قطب الدين محمد — لينتقم منه بالاستيلاء عليها ، فضرب عليها الحصار ، وظل يقاتلها حتى أشرف على أخذها ، ولكن حدث ما اضطره الى رفع الحصار عنها والعودة الى الموصل ، ذلك أن مظفر الدين انتهز فرصة غياب نور الدين عن الموصل ، وانشغاله بقتال عمه فى نصيبين ، فخرج بجيشه من اربل وأغار على مدينة نينوى التابعة للموصل ، فخربها ونهبها وأحرق غلاتها ، وكادت تبلغ غارته الموصل ذاتها ، فأسرع نائب نور الدين على الموصل وأرسل ينذر نور الدين بالخطر فترك نور الدين نصيبين وقتالها ، وأسرع بالعودة الى الموصل خشية أن يستولى مظفر الدين عليها ، ولما عاد اليها ، كان فى عزمه أن يزحف على مدينة اربل ويخربها انتقاما من مظفر الدين لاغارته على أعمال الموصل ، ولكنه لما وجد أن مظفر الدين قد عاد الى بلاده لما علم بعودته من نصيبين ظل فى الموصل لم يحرك ساكنا (١) . فكان دور مظفر الدين فى هذا الحادث أنه عرقل مساعى ملك الموصل فى انهاء نزاع بينه وبين خصمه ، كذلك حال دون اتساع مملكة الموصل . وخبر اعتداء مظفر الدين على الموصل بعد عشر سنوات يدعو الى التساؤل عن سبب اختفاء الأخبار عن مظفر الدين وملوك الموصل

(١) الكامل : ج ٩ ص ٣٠١ ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٥ .

طيلة هذه المـدة ، ونحن نرجح أنه حدثت أحداث فيما بينهم لم يذكرها ابن الأثير ، ودليل هذا ، الخبر الذى ذكره ابن الأثير فى سنة ٦٠٠ والذى ذكرناه آنفا . وسبب ترديدنا للمؤرخ ابن الأثير بالذات ، لأنه هو مؤرخ الزنكيين من ناحية ، ولأنه المؤرخ الوحيد الذى اهتم بتدوين أخبار هذه الفترة وحوادثها .

وبعد هذا الحادث بسنوات ، وفى سنة ٦٠٦ (١٢٠٩ م) بالذات ، اضطرت الحوادث مظفر الدين الى مهادنة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، بل الى الانتصار له ضد الملك العادل الأيوبى ، ففى سنة ٦٠٥ عقدت مصاهرة بين نور الدين وبين الملك العادل فقد زوج العادل ابنه من ابنة نور الدين ، فحسَّن بعض أمراء نور الدين له أن يتفق مـع الملك العـادل ضد عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار وضـد معز الدين محمود بن سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر ، وذلك بأن يقتسما بلادهما فيما بينهما ، فأرسل نور الدين الى الملك العادل يعرض عليه هذا الاقتراح ، على أن يكون لنور الدين جزيرة ابن عمر ، وأن يكون للعـادل بلاد قطب الدين ، وهى منطقة الخـابور ونصيبين وسنجار ، فرحب الملك العادل بهذا الاقتراح واغتبط له ، لأن هذا المشروع سوف يمهد له السبيل للاستيلاء عـلى الموصل ذاتها ، مطمح أنظار البيت الأيوبى منذ أيام صلاح الدين الأولى ، فسار بجيشه من دمشق الى الجزيرة لينفذ المشروع المقترح ، وقصد بلاد قطب الدين ، فاستولى أولا على منطقة الخابور كلها ، ثم استولى بعدها على مدينة نصيبين ، ففرغ بذلك لمدينة سنجار ،

أهم بلاد قطب الدين ، فسار اليها لحصارها ، وكله أمل فى الاستيلاء عليها ، ولكنه ما ان ضرب الحصار عليها ، حتى وجد منها ما خيب أمله ، فقد وجد الدفاع عنها قويا ، وأن جيشها مصمم على قتاله والصمود له ؛ غير أنه لم ييأس من فتحها ، فظل محاصرا لها نحو سبعة شهور ، الأمر الذى أزعج قطب الدين وأيأسه من مواصلة الدفاع عن المدينة ، فقد خاف أن يضعف جنده عن مواصلة القتال بعد هذا الجهد الكبير الذى بذلوه فى الدفاع عن المدينة ، وعندئذ تسقط المدينة فى يد الملك العادل فيفقدها الى الأبد ، فراودته نفسه على عقد الصلح مع العادل وتسليم البلد اليه فى مقابل بلدة أخرى يأخذها منه عوضا عن بلده ، فاستشار فى ذلك مملوكه أحمد بن يرنقش ؛ وكان مملوكه شجاعا قوى القلب ثابت الجنان فرده عن عزمه ، ونصحه بالثبات فى المقاومة ، لعل الملك العادل ييأس من فتحها بعد هذا الحصار الطويل فيرحل عنها ، فترك قطب الدين فكرة تسليم المدينة الى العادل ، ولكنه أخذ فى الوقت نفسه يبحث عن وسيلة تخرجه من المأزق الذى وضعه فيه الملك العادل ، حتى وجدها عند مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل .

فقد كان قطب الدين على علم بالصلة الوثيقة التى بين مظفر الدين والملك العادل ، هذه الصلة التى انعقدت بالمصاهرة أولا ، وذلك من زواج مظفر الدين بربيعة خاتون أخت الملك العادل ، ولخدمات أداها له مظفر الدين ثانيا ، وللصداقة التى بينهما من ناحية ثالثة ، لهذا كله ، قدر قطب الدين أن شفاعة

مظفر الدين عند العادل مقبونة لا يداخلها الشك ، واعتمادا على هذا التقدير ، أرسل قطب الدين ولده عماد الدين شاهنشاه الى مظفر الدين برسالة ، يطلب منه فيها أن يكون الواسطة بينه وبين العادل ، وأن يشفع له عنده بالرحيل عن مدينته وابقائها عليه .

ولم يخيب مظفر الدين رجاء قطب الدين ، وعزم على التدخل فى الصلح بين الخصمين ؛ ولكن لماذا قبل مظفر الدين أن يتدخل فى النزاع بين قطب الدين والملك العادل ؟ هل كان ذلك محبة لقطب الدين وغيرة عليه ؟ أم أن هناك سببا آخر دفع مظفر الدين الى هذا التدخل ؟ نحن نرجح أن عامل الخوف من الملك العادل وازدياد قوته فى منطقة الجزيرة هو الذى دفع مظفر الدين الى التدخل بين الخصمين والحيلولة بين الملك العادل وبين استيلائه على سنجار . ولعل مظفر الدين تخوف من الملك العادل منذ أن اتفق معه نور الدين أرسلان شاه ؛ لأن فى هذا الاتفاق قوة لنور الدين ، وسوف تشجعه هذه القوة الجديدة — قوة تحالفه مع العادل — على محاربته واستخلاص مدينة اربل منه اعتمادا على مساعدة الملك العادل له ، فكان من مصلحة مظفر الدين اذن أن ينقض الاتفاق بين نور الدين والملك العادل ؛ كذلك كان من مصلحته أن لا يستولى العادل على سنجار ، خوفا من أن يمتد طمعه بعدها الى اربل فيعمل على أخذها منه برغم ما بينهما من علاقات طيبة ، لأنه يعلم أنه يعيش فى « عصر الغلبة » وتقاليد عصره لا تقيم وزنا لمثل هذه العلاقات أمام المصالح الخاصة .

وعلى كل حال فان الخطر على اربل محقق : سواء من نور الدين أو من الملك العادل ، فلابد أن يطمع أحدهما بها ويسانده الآخر ، لذلك أقدم على التدخل فى عملية الصلح بين قطب الدين والعادل بارتياح كبير عندما طلب منه قطب الدين ذلك .

وكان تدخل مظفر الدين محكا اختبر به مظفر الدين ، الملك العادل ومبلغ احترامه للعلاقات الطيبة التى تربط بينهما ، وقد كانت نتيجة هذا الاختبار ، تأكيد مخاوف مظفر الدين منه . فقد أرسل مظفر الدين وزيره برسالة الى الملك العادل يشفع فيها لقطب الدين ، ويطلب منه رفع الحصار عن سنجار وتركها لصاحبها ، فكان رد الملك العادل الرفض التام لشفاعته ، وأضاف أمام الوزير ، أنه لا يبالى بمظفر الدين بعد أن اتفق مع نور الدين ، وهكذا كشف الملك العادل عن حقيقة مكانة مظفر الدين عنده ، كما تبين لمظفر الدين أن العادل ، فضلا عن تنكره لعلاقات المودة التى بينهما ، فانه لن يتورع عن الطمع فى اربل ان عاجلا أو آجلا ، ومن ثم اعتبر مظفر الدين ، الملك العادل عدوا له تجب محاربته ، وأخذ يعد جيشه لنجدة سنجار ، وأرسل الى قطب الدين يقوى من عزيمته ، ويطلب منه الثبات على المقاومة ، فانه سوف ينجده بعسكره .

ثم حدث مالم يكن فى الحسبان بالنسبة للعادل ولمظفر الدين ، ذلك أن نور الدين أرسلان شاه قرر نقض الاتفاق الذى عقده مع الملك العادل ، وسبب ذلك ، أنه بعد أن استولى العادل على منطقة الخابور ونصيبين ، تنبه نور الدين الى الخطأ الذى وقع

فيه عن جهالة وحمق ، وهو أنه باتفاقه مع العادل ، قد وضع عنقه بين فكى الأسد ، حيث تذكر طمع الأيوبيين فى مدينة الموصل منذ أيام صلاح الدين ورغبتهم الشديدة فى الاستيلاء عليها ، وقد تنبه نور الدين الى الخطر المحدق به حين رأى الملك العادل يحاصر سنجار التى لا تبعد عن مدينته أكثر من مسير يومين ، فدب الخوف فى قلبه من غدر العادل به ، بأن يطمع فى الاستيلاء على الموصل حين ينجح فى الاستيلاء على سنجار ، لذلك لم يجد نور الدين بدا من أن ينقض اتفاقه مع العادل ، وأن يمنع سقوط سنجار فى يده ، ومن ثم أخذ يعد جيشا ليرسله الى سنجار نجدة لها .

وبلغ مظفر الدين نقض نور الدين الاتفاق بينه وبين العادل وعزمه على نجدة سنجار فاغتبط لذلك ، وبادر بارسال وزيره الى نور الدين ، يخبره بأنه قرر مساعدة قطب الدين عسكريا ، ويعرض عليه المحالفة ضد العادل ومنعه بالقوة من الاستيلاء على سنجار ، وأنه متفق معه ضد عدوهما المشترك ، فوصل الوزير الى نور الدين ليلا وأبلغه الرسالة ، فتقبلها نور الدين بفرح وارتياح ، فقد جاءه العون من عدو له جمعت بينهما خصومة مشتركة للملك العادل ، فأبلغ الوزير موافقته على اقتراح مظفر الدين ، وحلف أمام الوزير — طبقا لتقاليد ذلك العصر — بالوفاء لمظفر الدين ، فعاد الوزير الى مظفر الدين وأبلغه ترحيب نور الدين باقتراحه وأنه أكّد موافقته باليمين الذى حلفه أمامه .

أخذ مظفر الدين عندئذ يعد جيشه ويجهزه بآلات الحرب ، حتى اذا اطمأن الى قوته خرج بالجيش الى الموصل ليرافق جيشها

الى سنجار ، وما أن علم نور الدين بمسير مظفر الدين اليه ؛ حتى أخذ يستعد لاستقباله من حدود مدينته تكريما له وتعظيما لشأنه، ولما وصل مظفر الدين ، استقبله نور الدين استقبالا حافلا ، ودعاه للاقامة فى قلعة الموصل ، بينما أقام نور الدين فى معسكر جيشه خارج القلعة ، وذلك لكى يثبت لمظفر الدين شدة ثقته به ، وتأكيدا منه برغبته فى ازالة ما بينهما من خلافات سابقة ، والدخول فى علاقة جديدة تقوم على الاتفاق والائتلاف [١] .

ولم يكتف مظفر الدين بتعضيد قطب الدين ونور الدين ضد الملك العادل ، وانما أراد أن يزيد فى النكاية بالعادل ، وذلك بأن يكون حلفا كبيرا من أعداء العادل وغيرهم ، فاتفق مع نور الدين على ضم الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب اليهما ، فقد كان العداء مستحكما بين الظاهر غازى وبين عمه العادل فى ذلك الوقت ، وأن يضم اليهما أيضا كيخسرو ابن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وأخاه مغيث الدين طغرل شاه صاحب أرزن الروم فاستجاب هؤلاء اليهم ، وأبدوا استعدادهم لسحق عدوهم المشترك ، وأخذ كل منهم يعد جيشه لمعركة فاصلة بينهم وبين العادل .

واتفق الحلفاء فيما بينهم ، على أن يسلكوا الطريق السلمى أولا لاقناع العادل بالصلح مع قطب الدين والرحيل عن سنجار ، فان استجاب للصلح كفوا جميعا شر الحرب وضحاياها ، وحفظوا

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠١ .

على صاحب سنجار مدينته ، أمّا اذا رفض ، استعدوا عليه الخليفة لكي يأمره بالرحيل عن سنجار ، وكف عاديته عن صاحبها ، فاذا رفض وساطة الخليفة أيضا أعذروا فيه ، وأرغموه على الرحيل عن سنجار بالقوة .

وأخذت الرسل تتردد بين الحلفاء وبين العادل ، والعادل يماطل فى الرد ويطاول على أمل الاستيلاء على المدينة قبل انتهاء المفاوضات ، ولما وجد الحلفاء أن العادل يماطلهم ويطاولهم وتأكد لهم أنه غير مستعد للرحيل عن سنجار ، أرسلوا الى الخليفة يشكون اليه اعتداء العادل على قطب الدين ، ويطلبون منه أن يتدخّل بما له من نفوذ روحى فيأمر العادل بالرحيل عن سنجار فاستجاب الخليفة لما طلبوا ، وأرسل رسولين من أكبر رجاله ، هما هبة الله بن المبارك بن الضحاك الاستدار [1] ، والأمير آق باش ، وهو كبير خواص مماليك الخليفة .

وسار الرسولان من بغداد الى الموصل أولا ، واجتمعا بالحلفاء واستعرضا معهم أسباب الخلاف بين العادل وقطب الدين ، ثم سارا الى سنجار وتقابلا مع الملك العادل وأبلغاه أمر الخليفة بوجوب الصلح مع قطب الدين وعدم التعرض لسنجار ، فاستجاب لهما العادل وأبدى استعداده لعقد الصلح مع قطب الدين وحلفائه ، وترك سنجار ، ولكنه اشترط أن تظل البلاد التى استولى عليها من قطب الدين فى يده ، وهى منطقة

---

(١) الاستدار : لفظ فارسى معناه : الشخص الذى يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه . (صبح الأعشى ، ج ٥/ص ٤٥٧) .

الخابور ونصيبين . فلما تم الصلح على ذلك ، انفرط عقد الحلفاء وعاد كل منهم الى بلاده[1] . وهكذا حطم مظفر الدين قوة جديدة كادت تظهر وتصبح خطرا عليه ، فحال دون استيلاء الملك العادل على سنجار ، كذلك فصم عرى الحلف بين الملك العادل وبين نور الدين صاحب الموصل .

والواقع أن الملك العادل لم يقبل الصلح استجابة لوساطة الخليفة ، لأنه لم يكن لدى الخليفة قوة عسكرية يرغم بها الملك العادل على احترام وساطته ، وانما اضطر العادل الى قبول الصلح اضطرارا لعدة أسباب ، منها : اصرار الحلفاء على موقفهم منه ومنعه من الاستيلاء على سنجار ، ومنها — على ما يبدو — أن الحلفاء استطاعوا أن يضموا أسد الدين شيركوه الى جانبهم — وأسد الدين هو ابن عم العادل وكان حاضرا معه فى الحصار — وذلك أن العادل كان قد عهد اليه مهمة قطع التموين عن المدينة ، من الجهة التى يحاصرها ، ولكن أسد الدين كان يتغاضى عن دخول التموين اليها من الخارج ، فقد كان يرى الأغنام والأقوات وغير ذلك مما يحتاج اليه المحاصرون تدخل الى المدينة ولا يمنعها ؛ ومنها أيضا ، أن جيش العادل بدأ يتذمر ويفتر عن القتال بسبب ما ناله من التعب [2] فأقلقت هذه العوامل الملك العادل وأيأسته من فتح المدينة ، ولذلك يمكن القول بأن العادل كان يريد فعلا عقد الصلح حتى قبل وصول رسل الخليفة ،

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠١ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠٢ .

ولكنه لم يفعل ذلك كراهة شماتة أعدائه به ، وخشية أن يظهر ضعفه لهم فيطمعون فيه . فلما جاءته الرسل بوساطة الخليفة أسرع بعقد الصلح متظاهرا بالطاعة للخليفة ، والاحترام لوساطته .

وقد أسفرت العلاقة الجديدة بين مظفر الدين ونور الدين أرسلان شاه عن مصاهرة عقدت بين الرجلين ، فحين كان مظفر الدين مع نور الدين بالموصل ، زوج مظفر الدين ابنتيه — من زوجته ربيعة خاتون أخت صلاح الدين والعادل — بولدين لنور الدين هما : عز الدين مسعود الذى خلف أباه على الموصل سنة ٦٠٧ (١٢١٠ م) ، وتلقب بالملك القاهر والآخر عماد الدين زنكى [1] وقد أدخلت هذه المصاهرة مظفر الدين فى مشكلة مع الموصل بشكل آخر ، بعد وفاة الملك القاهر سنة ٦١٥ (١٢١٨ م) . ذلك أن نور الدين أرسلان شاه توفى سنة ٦٠٧ ، وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه ابنه عز الدين مسعود من بعده ، أما ابنه الآخر عماد الدين زنكى ، فقد أعطاه بعض القلاع ، منها قلعتى العقر وشوش ، المجاورتين للموصل ، كذلك أوصى بأن يقوم بدر الدين لؤلؤ — وهو أكبر مماليكه — على تدبير شئون الموصل باسم ولده عز الدين مسعود [2] فلما خلف عز الدين مسعود أباه على الموصل ، عقدت بينه وبين مظفر الدين محالفات وعهود ، تعهد فيها كل من الطرفين بأن لا يعتدى

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠١ ، مفرج الكروب، ج ٢/ص ١٩٥ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠٤ .

أحدهما على بلاد الآخر ، ويبدو أن هذه المحالفات والعهـود قد احترمها كل من الجانبين طيلة حكم عز الدين مسعود الذى توفى سنة ٦١٥ .

فلل بدر الدين لؤلؤ يحكم الموصل باسم صاحبها عز الدين مسعود الذى تلقب بالملك القاهر وكان بدر الدين طيلة هـذه السنوات هو الحاكم الفعلى للدولة لا ينازعه فيها منازع ، ولكن لما توفى الملك القاهر بدأت المشاكل بين اربل والموصل ، أى بين مظفر الدين وبدر الدين لؤلؤ ، ذلك أن الملك القاهر خلف ولدين صغيرين قاصرين ، هما نور الدين أرسلانشاه ، والناصر محمود ، وكان عماد الدين زنكى — أخو الملك القاهر — يحدث نفسه بأن يملك بعد أخيه بصفته كبير البيت الزنكى ، ولكن بدر الدين لؤلؤ خيب ظنه ، حيث أجلس نور الدين أرسلان شاه مكان أبيه فى الملك ، وأرسل الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يطلب منه التقليد والتشريف لنور الدين ، كذلك أرسل الى الملوك وأمراء الأطراف المجاورين للموصل وغيرهم ممن كان بينهم وبين الملك القاهر محالفات وعهود — ومنهم مظفر الدين — يطلب منهم تجديدها لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه ، كذلك حلّف قواد الجند والجيش وكبار رجال الدولة على طاعته [1] وبذلك اطمأن بدر الدين على أن الملك من الناحيـة الفعلية له ، ومن الناحية الاسمية لنور الدين .

واذا كان مظفر الدين حلف لبدر الدين باحترام المحالفـات

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٠ .

والعهود التى كانت مبرمة بينه وبين الملك القاهر بعدم التعرض للموصل وأعمالها ، الا أن الحوادث أثبتت أنه لم يكن مستعدا لاحترامها ، أو أن الظروف أجبرته على عدم احترامها انتصارا لزوج ابنته عماد الدين زنكى ، فقد كان عماد الدين يرى أنه أحق من ابن أخيه القاصر بملك الموصل طبقا للتقاليد الأسرية التى تنص على أن تكون وراثة الملك لأرشد أبناء الأسرة ، فاذا ضاع منه الملك ، فلا أقل من أن يكون هو الوصى على ابن أخيه ، ولكن بدر الدين لم يتقيد بالتقاليد الأسرية اعتمادا على أن هذه التقاليد قد أهمل العمل بها فى كثير من الأسرات ومنذ عهد طويل ، فجعل الملك لنور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر ، وفرض نفسه وصيا على الملك الصغير ليظل هو الحاكم الفعلى للبلاد ، الأمر الذى أغضب عماد الدين فقرر أن ينال حقه بالسيف .

وبدأ عماد الدين فى الكيد لبدر الدين ، فانتهز فرصة تلاحق المرض بابن أخيه نور الدين واعتكافه عن الناس ، فأشاع أن نور الدين قد مات ، وأرسل الى حامية قلعة العمادية التابعة للموصل ، يقول : ان ابن أخى قد توفى ، ويريد بدر الدين أن يملك البلاد ، وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى ، فأرسلت اليه حامية القلعة تستدعيه لتسلم له القلعة ، فسار عماد الدين اليها وتسلمها فى ١٨ رمضان سنة ٦١٥ ، وقبض على نائب الموصل بها وعلى من معه [١] .

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٠ .

ومنذ ذلك بدأ العداء بين بدر الدين من ناحية ، وبين عماد الدين ومظفر الدين من ناحية أخرى ؛ ذلك أن بدر الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء استيلاء عماد الدين على القلعة ، وانما أسرع بجيشه اليها ليستردها ، فضرب عليها الحصار ، ولكنه عجز عن قتالها لأن الزمن كان شتاء والبرد شديدا والثلج يغطى الأرض ، فأقام عليها جيشه يحاصرها حتى ينتهى فصل الشتاء ، وعاد هو الى الموصل ، فلما بلغ مظفر الدين خبر حصار بدر الدين لزوج ابنته عماد الدين بالقلعة عزم على نصرته ، وأخذ يعد جيشه لقتال بدر الدين ورفع الحصار عن القلعة .

وصلت أخبار استعداد مظفر الدين الى بدر الدين ، فأرسل اليه يذكره بالأيمان التى حلفها والعهود التى تعهد بها ، ومن جملتها أنه لا يتعرض الى شيء من أعمال الموصل ، ومنها قلاع الهكارية والزوزان بالذات ، وأنه متى تعرض لها أحد من الناس ، كائنا من كان ، منعه بنفسه وعساكره ، وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ، وطالبه بدر الدين بالوفاء بهذا الحلف وهذه العهود ، ولكن مظفر الدين أصم أذنيه ، وأصر على الانتصار لعماد الدين ، فأرسل بدر الدين اليه — مرة أخرى — يسأله الوقوف على الحياد فى خلافه مع عماد الدين ، ولكن مظفر الدين أبى عليه هذا أيضا ، بل خرج بجيشه من اربل ، ورابط بالقرب من القلعة ، حيث لم يستطع الوصول اليها ، بسبب حصار عسكر بدر الدين لها ، فانتظر الى أن ينشب القتال بينهم

وبين عمـاد الدين ، فيفاجئهم هو من وراء فيضعهم بين شقى الرحى .

ولما طال على عسكر بدر الدين الانتظـار وهم يحاصرون القلعة ، استعجل أحد قواد الجيش القتال ، بالرغم من أنه كان ينقصه العلم بالحرب والخبرة بفن القتال ، غير أنه كان شجاعا مقداما ، وكان قريب العهد بالتحاقه بجيش الموصل ، فأراد أن يقوم بعمل حربى كبير ليتقدم به عند بدر الدين فيرفع من مرتبته ، فأخذ الجند الذين تحت امرته ، وتقدم بهم الى القلعة تحت جنح الظلام لينشب القتال مع حاميتها ، فلما رأى بقية الجيش تقدمه ، خافوا عليه وعلى من معه الهلاك ، فلحقوا به وساروا على غير ترتيب لضيق المسالك الى القلعة ، فلما رأى عماد الدين مقدمة الجيش تتقدم نحوهم ، خرج اليهم بجيشه ، وفرّق جنده فى الشعاب ، وانقضوا عليهم من كل مكان فهزموهم هزيمة منكرة فر المغيرون على أثرها ، ثم انهزم الجيش كله وارتد على أعقابه ثم عاد الى الموصل ، وذلك قبل أن يتدخل مظفر الدين فى القتال ، وبذلك خلصت القلعة من الحصار ، ولما عاد جيش الموصل ، راسـل عماد الدين باقى قلاع الهكارية والزوزان — وكلها تابعة للموصل — ودعاهم الى طاعته ، فاستجابوا له وسلموها اليه ، فقبض على نواب بدر الدين ، وأقام فيها نوابه [1] .

كان لسقوط القلاع التابعة للموصل فى يد عماد الدين أثر بالغ عند بدر الدين ، وقدّر بدر الدين أن عماد الدين — يظاهره

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٠ .

مظفر الدين ، أصبح من القوة بحيث يشكل خطرا كبيرا على الموصل ، وأنه لن يلبث أن يطمع فى الاستيلاء عليها ، وشعر بدر الدين فى الوقت نفسه بضعفه عن ردع عماد الدين ومظفر الدين بمفرده ، فقرر أن يلتجىء الى سند قوى يستعين به ضدهما ، وان كان هذا الالتجاء سوف يضعه موضع المتبوع من التابع ، ولكنه فضل هذا الوضع على ضياع الموصل منه ، ووجد بدر الدين هذا السند فى الملك الأشرف موسى الأيوبى ، الذى يملك كثيرا من بلاد الجزيرة وخلاط ، فأرسل اليه يعرض عليه الانتماء اليه والدخول فى طاعته لكى يحميه من مظفر الدين وزوج ابنته عماد الدين ، فأجابه الأشرف بالقبول والارتياح ، لأن دخوله فى طاعته قوة له ، يستعين به عند الحاجة بعد استقرار أمور الموصل وابعاد الخطر عنها ، كذلك كان من مصلحة الملك الأشرف أن لا تظهر قوة جديدة فى منطقة الجزيرة وما حولها فتهدد أملاكه بالخطر ، ولذلك وعد بدر الدين بمساعدته ومعاضدته والمحاربة دونه لاستعادة ما أخذ منه من القلاع ، ومنذ ذلك اعتبر مظفر الدين ، الملك الأشرف عدوا له ، لانتصاره لبدر الدين الذى يبغضه لتحكمه فى حفيديه ولدى الملك القاهر ، وسوف نرى أن مظفر الدين سيقف ضد الأشرف موسى الى النهاية .

وبانتماء بدر الدين الى الأشرف، موسى ، أصبح الأشرف ملزما بالدفاع عن تابعه ، ويبدو أن بدر الدين كان قد لجأ الى الأشرف موسى قبل أن ينتمى اليه ليكون واسطة بينه وبين

مظفر الدين لعقد الصلح بينهما وأن الأشرف نجح فى ذلك ، وان كان المؤرخون أغفلوا هذا الخبر ، لأن الأشرف أرسل الى مظفر الدين — بعد أن انتمى بدر الدين اليه ودخل فى طاعته — يلومه لانتصاره لعماد الدين وتشجيعه اياه على اعتدائه على أملاك الموصل ، ويقول له مهددا : « ان هذه القاعدة قد تقررت بيننا جميعا بحضور رسلك ، وأننا نكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ، ولابد من اعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا [1] ، فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته ، فأنا أجىء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها ، وأسترد ما أخذتموه وأعيده الى أصحابه ، والمصلحة أنك توافق وتعود الى الحق ، لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم [2] .

وكان الملك الأشرف يعتقد أن تهديده سوف يحدث أثره عند مظفر الدين ، ولكن مظفر الدين فى الواقع لم يرهبه التهديد ، كذلك أصم أذنيه عن النصيحة وأصرّ على مناصرة عماد الدين ضد بدر الدين لاقصائه عن الموصل ، لعلمه أن الأشرف لن يستطيع تنفيذ تهديده لمشغوليته بالصليبيين وخوفه على بلاده منهم ، فقد كان الصليبيون فى ذلك الوقت (سنة ٦١٥) فى أشد

(١) لم يذكر المرجع الذى ننقل عنه متى تقررت القاعدة ، كذلك لم يذكره غيره من المراجع .

(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢١ .

قوتهم ، وكانت اغارتهم على الشام مستمرة ، حتى أنهم بلغوا من اشتداد القوة بحيث عزموا على فتح مصر ، فساروا الى دمياط واستولوا عليها ، فأرسل الأشرف الى أخيه الملك الكامل صاحب مصر معظم جيشه نجدة لجيش مصر ، فضلا عن أنه كان مشغولا بمراقبة الصليبيين بالشام ، خوفا من اغاراتهم المفاجئة على البلاد التى بيد المسلمين . فلما رأى الملك الأشرف اصرار مظفر الدين على موقفه ، أخذ يستعدى عليه أمراء الأطراف ويستميلهم الى جانبه ، ومن الذين راسلهم الملك الأشرف ، ناصر الدين محمود الأرتقى صاحب حصن كيفا وآمد ، ولكن ناصر الدين أبى الاستجابة له ، وانما انضم الى مظفر الدين وأخذ يغير على بعض البلاد التى للأشرف وينهبها ، وكذلك انضم الى مظفر الدين ، صاحب ماردين الأرتقى واتفقوا جميعا ضد الأشرف ، وسبب انضمام هذين الأرتقيين الى مظفر الدين ، هو العداوة المتأصلة بين البيت الأرتقى والبيت الأيوبى منذ أيام صلاح الدين ، فقد كان صلاح الدين قد استولى على كثير من بلادهم ، وأرغم بعض أمراء الأسرة على الدخول فى طاعته ، فلما رأى الأشرف ازدياد قوة مظفر الدين خاف على بدر الدين منه ولكنه لم يستطع أن يفعل له شيئا للظروف المحيطة به ، غير أنه أرسل اليه فرقة من جيشه رابطت فى مدينة نصيبين القريبة من الموصل ، ليستعين بها بدر الدين اذا دهمه خطر من مظفر الدين [1] .

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢١ .

ولم يكتف عماد الدين زنكى بتحريض نواب بدر الدين على القلاع لخلع طاعتهم له وتسليم القلاع اليه ، وانما طمع فى الموصل نفسها ، فانه ما كاد جيش بدر الدين يعود الى الموصـــل من العمادية مهزوما ، حتى قويت نفسه ، فترك العمادية وسار الى قلعة العقر المجاورة للموصل — وهى له — ليتسلط منها على أعمال الموصل ، وأمدّه مظفر الدين بطائفة كبيرة من الجنـــد ، فأخذ عماد الدين يشن الغارات على حدود المدينة ليختبر قوتها ، ثم يعود الى القلعة يحتمى بها ، فلما رأى بدر الدين ذلك ، أرسل جزءا من جيشه ليرد عماد الدين عن حدود الموصل . وكان الأمر الذى أصدره بدر الدين للجيش أن يقيم على حدودها ليمنع غارات عماد الدين عنها ، ولكن قواد الجيش عزموا على قتال عماد الدين فى قلعته دون اذن من بدر الدين ، فساقوا الجيش اليها ليلا وصبحوا القلعة صباح اليوم التالى ، فدار قتال شديد بين الفريقين ، صبر الفريقان فيه صبرا عجيبا ، وكانت نهـــايته انتصار جيش بدر الدين وهزيمـــة عماد الدين ، فترك القلعـــة وسار بجيشه الى اربل لكى يحتمى بوالد زوجته ، فعاد جيش الموصل ورابط على حدود المدينة ، كذلك حضرت رسل الخليفة الناصر لدين الله ورسل الملك الأشرف وجددوا الصلح بين مظفر الدين وعماد الدين من ناحية وبين بدر الدين لؤلؤ[1] من ناحية أخرى .

وفى نفس السنة التى تم فيها الصلح (سنة٦١٥) توفى نور

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢١ .

الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، فرتب بدر الدين فى الملك بعده ؛ أخاه ناصر الدين محمودا ، وكان له من العمر ثلاث سنين [1] . وبوفاة نور الدين تجددت همة مظفر الدين وعماد الدين للاستيلاء على الموصل ، فان ناصر الدين طفل ليس له من الأمر شىء فى حكم الموصل ، وأن بدر الدين هو كل شىء ، فتجاهل كل من مظفر الدين وعماد الدين الصلح الذى عقد بينهما وبين بدر الدين والأشرف موسى وأخذا يعملان على اقصاء بدر الدين عن الموصل ، فجمعا الجند وتجهزا للحركة ، ثم أرسلا بعض العسكر الى حدود الموصل ، فأغاروا عليها وأعملوا يد السلب والنهب والافساد فيها.

وكان بدر الدين فى قلة من العسكر ، وسببه أنه لما أرسل الملك الأشرف معظم جيشه الى أخيه الملك الكامل نجدة له على الصليبيين فى دمياط كما ذكرنا ، استدعى الأشرف معظم جيش الموصل اليه ليسد الفراغ الذى أوجده مسير جيشه الى دمياط ، فأصبح بدر الدين فى قلة من الجند ، فلما رأى بدر الدين تحرش مظفر الدين وعماد الدين به ، وافساد جندهما بأطراف الموصل ، وأنه لن يستطيع حماية مدينته بما عنده من الجند ، استدعى جند الملك الأشرف المرابط فى نصيبين ، والذين كان الأشرف قد أرسلهم اليها ليكونوا تحت طلب بدر الدين حين يشاء .

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٢١ .

وكان قائد جند الأشرف يدعى عز الدين أيبك ، وكان عدد الجند الذين معه قليلا لن يسدوا مسدّ جند بدر الدين الذين أرسلهم الى الشام ، وكان أيبك عجولا للقتال ، فما ان وصل بجنده الى بدر الدين حتى عزم على عبور نهر دجلة والمسير الى اربل مباشرة لقتال مظفر الدين وعماد الدين ، فمنعه بدر الدين من ذلك — وكان بدر الدين أكثر خبرة من أيبك بالفن الحربى وبالمنطقة التى يقاتلون عليها — وطلب منه أن يستريح ويريح جنده أولا من مشقة الطريق ، فأذعن أيبك كارها ، وأقام بجنده بظاهر الموصل بضعة أيام ، ألح بعدها على بدر الدين بالاسراع بالمسير الى اربل ، فوافقه بدر الدين كارها لئلا يلاحظ الجند خلافه فى الرأى مع أيبك فتقوم فتنة بينهم ، وعبروا جميعا نهر دجلة وأقاموا على بعد فرسخين من الموصل شرقى النهر ، فلما علم مظفر الدين بخبر عزمهم المسير اليه ، خرج بعسكره وسار اليهم ومعه عماد الدين ، وعبر نهر الزاب ليلتقى ببدر الدين وجيشه قبل أن يفاجئه بدر الدين ، وأخذ كل من مظفر الدين وبدر الدين يعبىء جيشه ويرتبه للمعركة ، فجعل مظفر الدين على ميسرة جيشه عماد الدين زنكى ، وعلى الميمنة أحد قواده بينما قاد هو قلب الجيش ، وأما بدر الدين فجعل عز الدين أيبك على الجاليشية [1] ، وجعل على الميسرة أحد كبار قواده ، الا أن بدر الدين كان ضعيف السيطرة على جند الملك الأشرف ، الأمر الذى أدى الى هزيمته فى المعركة ، فقد أصر أيبك على المسير

(١) الجاليش : لفظ تركى معناه : طليعة الجيش .

الى معسكر مظفر الدين ليلا برغم محاولات بدر الدين فى اقناعه بتأجيل المسير الى الصباح لوعورة الطريق وخطورته ، ولكن أيبك أبى الانتظار وتحرك بعساكره ، فاضطر بدر الدين الى المسير معه ، ولما نشب القتال ، هزمت ميمنة جيش بدر الدين ميسرة جيش مظفر الدين ، وهزمت ميمنة جيش مظفر الدين ميسرة جيش بدر الدين ، ولما التحم القلبان ، وكان بدر الدين يقود قلب جيشه ، هزم مظفر الدين ، بدر الدين الذى لم يستطع الثبات أمام خصمه ، ففر هاربا الى الموصل ، وصعد الى القلعة ليحتمى بها ، ومظفر الدين يطارده حتى نزل على نينوى بالقرب من الموصل ، وأقام بها ثلاثة أيام ، فلما علم أن بدر الدين يجمع جنده من جديد ليعبر اليه ، رحل عن نينوى ، وعبر نهر الزاب وأقام على ضفته ليرى ما يكون من أمره ، ولكن بدر الدين بدلا من أن يأتيه بجيشه للقتال ، أرسل له رسلا يعرضون عليه الصلح ، على أن يحتفظ كل منهم بما فى يده من البلاد ، فوافق مظفر الدين على الصلح ، وتقررت بينهما العهود ، وحلف كل منهما للآخر على الوفاء بها [1] .

ولكن الصلح لم يستمر بين مظفر الدين وبدر الدين طويلا ، فانه سرعان ما نقض ، فان حامية قلعة كواشى — وهى من أحصن قلاع الموصل وأمنعها — لما رأت أن حامية قلعة العمادية قد سلمت القلعة الى عماد الدين ، حذت هى أيضا حذوها ، فقبضت على نائب بدر الدين وعماله بها ، وأرسلت الى عمـــاد الدين

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٢ ، ابن العبرى ، ص٤٠٥/٤٠٦ .

تدعوه لاستلام القلعة ، فسار عماد الدين اليها وتسلمها ، فأرسل بدر الدين الى مظفر الدين يحتج عليه فيما فعل عماد الدين ، ويذكره بالصلح والعهود التى قطعها على نفسه والأيمان التى حلفها بالأمس ، وطلب منه اعادة قلعة كواشى ، ولكن مظفر الدين رفض طلبه ، عندئذ أرسل بدر الدين الى الملك الأشرف — وكان بحلب — يستنجده ، فسار اليه الأشرف وعبر نهر الفرات الى حران ، ولكن حدث للأشرف ما اضطره الى التمهل فى مسيره الى الموصل .

ذلك ، أنه لما علم مظفر الدين باستنجاد بدر الدين بالملك الأشرف ، أخذ يعمل على عرقلة أمور الأشرف ليعوقه عن نجدة بدر الدين ، فأخذ يراسل نواب الأشرف على بلاده ويحرضهم على الخروج عن طاعته ، كذلك راسل الملوك المجاورين للملك الأشرف وأصحاب الأطراف ، يثير فيهم الخوف من الملك الأشرف، على اعتبار أنه اذا فرغ من مشاكله فانه سوف يطمع فى بلادهم ويقاتلهم عليها ، فاستجاب له : عز الدين كيكاوس صاحب بلاد الروم وكذلك صاحب آمد وحصن كيفا ، وناصر الدين أرتق ابن ايلغازى صاحب ماردين ، واتفقوا جميعا على أن يجعلوا كيكاوس زعيما للحلف وخطبوا له فى بلادهم .

ولم يكتف مظفر الدين باثارة الملوك والأمراء على الملك الأشرف وانما عمل على جلب بعض قواده الى صفه ، وقد نجح فى ضم أحمد بن على المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما اليه ، ففارقوا الملك الأشرف ونزلوا بدنيسر بالقرب من

ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشرف من مواصلة السير الى الموصل لمساعدة بدر الدين .

ولكن قدر لهذا الحلف الكبير أن يفشل ، وأن ينجو كل من الملك الأشرف وبدر الدين من خطره المحقق . ذلك أن كيكاوس صاحب بلاد الروم سار الى ملطية وهى من بلاد الملك الأشرف للاستيلاء عليها ، وفى ظنه أن الأشرف سيسرع اليها لنجدتها ، وبذلك يتحول عن نجدة بدر الدين ، فتتهيأ الفرصة لمظفر الدين للاستيلاء على الموصل ، ولكن المشروع لم يتم ، فقد كان كيكاوس مريضا بالسل ، فاشتد به المرض وهو على حصار ملطية ، فاضطر الى رفع الحصار عنها والعودة الى بلاده ، ثم ما لبث أن مات ، فخلفه أخوه كيقباذ فاتبع كيقباذ سياسة تخالف سياسة أخيه ، فقد رأى أن من مصلحته أن تكون العلاقة بينه وبين الملك الأشرف علاقة طيبة ، فعقد معه الصلح ، وتأكد هذا الصلح بعقد مصاهرة بينهما [1] .

فكان هذا أول وهن أصاب الحلف ، ثم لما اجتمع باقى الحلفاء فى دنيسر ، غدر صاحب آمد بحلفائه وانضم الى الأشرف ، فضعفت بذلك قوة الحلفاء ثم انحل أمر الحلف كله بعودة قواد الأشرف الذين انضموا الى الحلف اليه ، ما عدا ابن المشطوب ، فانه ظل على عهده فسار من دنيسر الى نصيبين ليسير منها الى اربل لينضم الى مظفر الدين ، فخرج اليه صاحب نصيبين فيمن عنده من الجند ليقبض عليه فدار بينهما القتال ، فانهزم

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٢ – ٣٢٨ .

ابن المشطوب وتفرق عنه معظم جنده فواصل سيره الى اربل ، ولكن لما اجتاز بمدينة سنجار ، سيّر اليه صاحبها فروخ شاه بن عماد الدين زنكى بن مودود عسكرا ، فدار بينهم وبين ابن المشطوب قتال فهزموه وقبضوا عليه وحملوه الى سنجار ، وكان فروخ شـــاه متحالفا مع الأشرف وبدر الدين ، فلما اجتمـع ابن المشطوب بفروخ شاه ، أغراه ابن المشطوب بالخروج على الأشرف وبدر الدين والانضـــمام الى مظفـــر الدين فأجابه الى ذلك ، فجمع ابن المشطوب بعض الجند المرتزقة وكوّن منهم جيشا وأخذ يغير به على منطقة البقعاء ، وهى من أملاك الموصل ، ونهبوا منها عدة قرى وعادوا الى سنجار ، فلما رأى بدر الدين افساد ابن المشطوب وعسكره ، سير اليه عسكرا فقاتلوه فانهزم وفر الى تل يعفر ، وهى لصاحب سنجار ، واحتمى بها ، فلحقه جند الموصل وحاصروه بها ، ثم خرج بدر الدين بجيش الموصل اليها ، وأخذ يقاتله حتى هزمه وقبض عليه واستولى على المدينة ، ثم عاد الى الموصل ومعه أسيره ، فسلمه الى الملك الأشرف ، فحبسه الأشرف بمدينة حران ، وظل فى الحبس الى أن توفى فى سنة ٦١٩ (١) .

وأمّا الملك الأشرف ، فانه لما أطاعه ناصر الدين أرتق صاحب حصن كيفا وآمد ، وانحل عقد حلف مظفر الدين ، عزم عـلى المسير الى الموصل فى زيارة لصاحبها ، وأثناء أن كان فى طريقه

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٣ .

اليها ، استولى على مدينة ماردين فصالحه صاحبها صلحا أرضاه ، ثم سار من ماردين الى نصيبين يريد الموصل ، فبينما هو فى الطريق ، أتته رسل فروخ شاه صاحب سنجار يحبذ له تسليم سنجار اليه فى مقابل أن يعوضه عنها بمدينة الرقة ، وقد دفعت فروخ شاه عدة أسباب لتسليم سنجار الى الملك الأشرف ، منها : سقوط تل يعفر فى يد بدر الدين حليف الأشرف ، ومنها اتفاقه السابق مع ابن المشطوب ضد الأشرف ، يضاف الى ذلك أن بعض كبار رجال دولته خوفوه من وصول الأشرف الى الموصل ، وعللوا وصوله اليها بأنه تمهيد للاستيلاء على سنجار ذاتها ، فرأى فروخ شاه أن خير ما يفعله هو أن يسلمها الى الأشرف بدون قتال ، وأن يأخذ مدينة الرقة عوضا عنها ، وكان هـذا العرض مما يرحب به الملك الأشرف أجمل ترحيب نظرا لموقع سنجار وأهميتها فى منطقة الجزيرة ، فسرعان ما تم بينهما تبادل المدينتين (١)

وقد أزعج استيلاء الأشرف على سنجار مظفر الدين ازعاجا شديدا ، فقد علم مظفر الدين أنه لن يقوى على الوقوف فى وجه الأشرف ، لأنه أصبح سيد الجزيرة كلها فلذلك فضل أن يعقد معه الصلح اتقاء لخطره . فما ان وصل الأشرف الى الموصل — وقد استقبله بدر الدين استقبالا حافلا — حتى أرسل مظفر الدين رسله اليه يعرض عليه الصلح ، وأبدى استعداده لرد جميع القلاع التى استولى عليها عماد الدين لبدر الدين ما عدا قلعة

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

العمادية ، فقد أصر مظفر الدين على أن تبقى لعماد الدين ، وقال مظفر الدين للأشرف لكى يحمسه بقبول الصلح : ان من المصلحة قبول هذا الصلح لتزول الفتن ، ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج[1] .

ولكن الأشرف كان يطمع فى الاستيلاء على اربل ذاتها ، فقد أخذ يمد فى مفاوضات الصلح حتى استمرت شهرين ، ثم ظهرت حقيقة نواياه ، فقد خرج من الموصل يريد اربل ، فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب ، وكان مظفر الدين قد ضرب معسكره على شاطئه من ناحية اربل ، وكأنه كان يتوقع مفاجأة من الأشرف ، ولكنه لم يتعجل بقتاله ، وانما آثر دفع خطره بالطريق السلمى ، فعاود ارسال رسله اليه لاقناعه بعقد الصلح فقبل الأشرف الصلح هذه المرة ، وانما قبله تحت ظروف قاهرة ، فان جيشه بدأ يتذمر لطول انتظارهم ، ثم ان ناصر الدين أرتق صاحب آمد — وكان فى صحبته — أخذ ميله الى مظفر الدين يظهر بوضوح ، فخشى الملك الأشرف من ثورة الجيش عليه ، ومن غدر ناصر الدين به ، فاستجاب لما دعاه اليه مظفر الدين وقبل الاقتراح الذى عرضه بتسليم القلاع الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية ، ولكنه اشترط أن يأخذ عماد الدين زنكى رهينة عنده ، وأن يضع يده على قلعتى العقر وشوش — وهما لعماد الدين — حتى يتم تسليم القلاع الى بدر الدين ، فسار عماد الدين الى الأشرف ، ووضع نفسه رهينة عنده ، ثم أصدر أوامره الى نوابه فى القلاع يأمرهم بتسليم ما فى أيديهم الى نواب

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

الملك الأشرف ، ولكن حاميات القلاع رفضت تنفيذ أوامر عماد الدين ، ما عدا قلعة « جل صورا » فانها وحدها التى أطاعت وسلمها نائبها الى نائب الملك الأشرف ، الأمر الذى أزعج عماد الدين ، فقد طال اعتقاله وانتهى الأجل المضروب لتسليم القلاع ، فلجأ عندئذ الى شهاب الدين غازى — أخى الملك الأشرف — ليكون واسطة بينه وبين أخيه لاطلاق سراحه ، فاستجاب الملك الأشرف لوساطة أخيه ، فأطلق سراح عماد الدين ، وسحب نوابه من قلعتى العقر وشوش ، وأعادهما اليه وأعفاه من تسليم القلاع الى بدر الدين [1] .

ولابد من كلمة هنا عن عماد الدين ، فالواقع أن عماد الدين كان ينقصه الكثير من مميزات الحاكم ومميزات المحارب معا ، فانه كان — كما يبدو — فاتر الهمة ، ضعيف العزيمة ، فتخبط فى أعماله وتصرفاته ، فقد كان يريد أن يستولى على الموصل وملحقاتها ، وأن يرث ملك أسرته ، ولكنه لم يرسم لنفسه خطة يسير على نهجها لتحقيق هدفه ، ولم يعد نفسه لمعارك حاسمة بينه وبين بدر الدين ، وانما كان يشتبك معه فى مناوشات لا توصله الى هدفه برغم تأييد مظفر الدين له ومساندته ، وأحسب أنه ورط مظفر الدين بسوء تصرفه ، ولعله لو سلم قياده الى مظفر الدين وأبدى من الحماس والرغبة الصادقة بطرد بدر الدين من الموصل ، لنجح الاثنان فى اقصاء بدر الدين عن الموصل والاستئثار بها دونه . كذلك كان تفكير عماد الدين

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .

الادارى محدودا ، حتى أنه لم يحسن حكم قلاعه حكما يرضى نوابه فيها لكى يخلصوا له ، فقد كان يبخل عليهم بالمال والعطاء ، بخلاف بدر الدين الذى كان يبرهم ويرغبهم بالعطاء والهبات حين كانت القلاع فى يده ، لذلك نجد أهل قلاع الهكارية والزوزان يتشوقون لحكم بدر الدين من جديد ، فأخذوا يراسلونه ليسلموا اليه القلاع فسار بدر الدين اليها وتسلمها [1] وبذلك خرجت من يد عماد الدين الذى كافح من أجلها .

وبسبب سياسة عماد الدين العوجاء ، ضاعت منه أيضا قلعة شوش وانتقلت الى بدر الدين فى سنة ٦١٩ (١٢٢٢ م) ، فقد كان عماد الدين قد سار فى تلك السنة الى أذربيجان فى زيارة لصاحبها أوزبك بن البهلوان ، فضيفه أوزبك وأقطعه بعض الاقطاعات فى بلاده ، فأطال عماد الدين اقامته هناك ، فسار بدر الدين الى القلعة وحاصرها ، وما زال يقاتلها حتى سقطت فى يده [2] .

ويبدو أنه حدث فتور بين مظفر الدين وعماد الدين ، ولهذا نرى أن مظفر الدين لم يتحرك للدفاع عن أملاك زوج ابنته ، وانما ترك القلعة تسقط فى يد بدر الدين .

ولم يطل أمد الصلح بين مظفر الدين والملك الأشرف ، فقد تغيرت الظروف فى سنة ٦٢١ (١٢٢٤ م) ، بالنسبة للأشرف ، وذلك حين دب الخلاف بينه وبين أخويه شهاب الدين غازى

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٢٤ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٤٩ .

والمعظم عيسى صاحب دمشق ، فان الأشرف كان قد ولىّ أخاه شهاب الدين ولاية عهده من بعده ، ثم أقطعه بعض بلاده ، مثل : خلاط وأرمينية وغيرها . ولكن شهاب الدين طمع فى هذه البلاد لنفسه ، فأعلن استقلاله بها ، واتفق مع أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ضد أخيهما الأشرف ، وكان الملك المعظم يعرف لمظفر الدين صاحب اربل قدره ، ويعلم أن فى انضمامه اليهما قوة وسندا ، فأرسل اليه ابنه الناصر داود فى رسالة يعرض عليه فيها الانضمام اليهما ضد أخيهما الأشرف ، فاستجاب له مظفر الدين لما فيه من المصلحة له باضعاف الأشرف ، فلما وجد المعظم الاستجابة من مظفر الدين ، سار بجيشه الى بلاد الأشرف بالجزيرة ليستولى عليها حتى وصل « داريا » ، فلما علم الملك الأشرف بذلك ، أرسل الى أخيه الملك الكامل ، صاحب مصر ، يستنجده على أخويه وحليفهما [1] .

وكان الأخوة الثلاثة ، الملك الكامل والملك المعظم ، والملك الأشرف ، على خلاف مستمر فيما بينهم على تقسيم دولة أبيهم العادل ، فكانت مصر للكامل ، ودمشق للمعظم ، والجزيرة للأشرف ، ومع ذلك فان كلا منهم كان غير راض بنصيبه ، فالكامل طامع بدمشق ويريد أن تكون له الزعامة على اخوته جميعا وأن يكون هو الحاكم على الجميع ، والمعظم طامع بمصر ويريد أن يكون هو المرجع اليه ، والأشرف غير قانع بما فى يده من البلاد

---

(١) مفرج الكروب ، ج ٢/لوحة ٢٢٤ (مخطوط) .

فهو يريد أن يحكم على ما فى أيدى أبناء عمومته من بلاد الشام ، كحلب وحمص وحماه وغيرها ، ولكن الظروف كانت تضطر الملك الكامل والأشرف الى الاتفاق ضد أخيهما المظفر لقوته ، وان كان اتفاقهما على دخن ، لذلك أسرع الكامل الى نجدة أخيه الأشرف ، فأرسل الى أخيه المعظم يأمره بعدم التعرض لبلاد أخيهما الأشرف والعودة الى دمشق ، ثم هدده بالمسير الى دمشق والاستيلاء عليها ان هو أصر على الاستمرار فى التعدى على أملاك أخيه ، فخاف المعظم أن ينفذ الكامل وعيده ، فعاد الى دمشق [1] .

وأمّا الأشرف فانه سار بجيشه الى خلاط ليستردها من أخيه شهاب الدين غازى ، ولم يجد الأشرف كثير مقاومة فى استردادها، فقد فتر أهلها عن قتاله لأنه كان أحب اليهم من أخيه غازى ، ولما رأى غازى أنه أضعف من أن يناوىء أخاه ، اصطلح معه[2] .

وأما مظفر الدين ، فانه خرج بجيشه الى الموصل وحاصرها ، وذلك قبل أن تصل حوادث الاخوة الأيوبيين الى نهايتها التى ذكرناها . وكان فى تقدير مظفر الدين ، أن الملك الأشرف حين يعلم بخبر محاصرته الموصل ، يرحل عن خلاط ، أثناء حصاره لها لينجد بدر الدين فيخرج أخوه شهاب الدين غازى فى طلبه ، فيقع الأشرف بين أخيه وبين مظفر الدين فيهزمانه ، ثم يصل الملك المعظم بجيشه الى الموصل فيعمل الجميع على أخذها .

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٥٤ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ٣٥٣ .

ولكن اختلف تقدير مظفر الدين منذ نزوله على الموصل ، فقد كان يحسب أن الموصل لن تستطيع المقاومة طويلا لما تعانيه من المجاعة ولقلة ما بها من الجند ، ولكن ما ان وصل اليها حتى وجد أن بدر الدين قد أحكم الدفاع عنها ، فجهزها بالجند المسلح وبآلات الدفاع المضادة لآلات الحصار ، فظل عليها مظفر الدين عشرة أيام دون أن ينال منها غرضا ، فلما بلغه ما كان من أمر المعظم وتوقفه عن المسير الى الموصل بسبب تهديد أخيه الكامل له ، وما كان أيضا من استرداد الأشرف مدينة خلاط وصلحه مع أخيه غازى ، اضطر الى رفع الحصار عن الموصل ، وعاد عنها ، وعبر نهر الزاب وأقام على ضفته ينتظر ما تأتى به الأيام من أحداث[1] ولكن لم يثبط هذا الفشل همة المعظم عيسى ومظفر الدين ، وانما ظلا يتحينان الفرص للايقاع بالملك الأشرف والملك الكامل ، وقد واتتهما الفرصة عندما ظهر جلال الدين خوارزم شاه (وسوف نتحدث عنه فيما بعد) على المسرح السياسى بالقرب من المنطقة التى نتحدث عنها . ففى نفس السنة ، سنة ٦٢١ ، وصل جلال الدين الى أذربيجان واستولى عليها ، فأصبح قريبا من بلاد الأشرف ، فأرسل الملك المعظم رسولا منه الى جلال الدين يعرض عليه عقد محالفة بينهما ضد أخويه الأشرف والكامل ، فاستجاب له جلال الدين ، ثم أرسل المعظم الى مظفر الدين يعرفه بالمحالفة التى عقدها مع جلال الدين ، فأرسل مظفر الدين وعقد هو

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٥٤ .

الآخر حلفا معه ، وهكذا اجتمعت ثلاث قوى كبيرة ، لو تم اجتماعها ، لكان فيها الخطر كل الخطر على الملك الأشرف والملك الكامل معا [1] غير أن انشغال جلال الدين بحروبه ضد الخارجين عليه من نوابه على بلاده حال بين الحلفاء وبين التعدى على أملاك الأشرف .

ثم مضى نحو سنتين ، كان مظفر الدين فيهما فى شبه هدنة مع بدر الدين ، فلما كانت سنة ٦٢٣ ، أعلن بدر الدين وفاة ناصر الدين محمود — الحفيد الثانى لمظفر الدين — واستقلاله بالموصل ، وحصوله على موافقة الخليفة بذلك ، عندئذ تحرك مظفر الدين للاستيلاء على الموصل ، فقد راجت شائعة بأن بدر الدين قتل ناصر الدين ليخلو له الجو ، فأخذ يعمل على احياء الحلف الذى بينه وبين جلال الدين والملك المعظم ، ثم عمل على تقوية الحلف بضم صاحب آمد ، وناصر الدين أرتق صاحب ماردين اليه ، واتفقوا جميعا على أن يقصد مظفر الدين الموصل ويضرب عليها الحصار ، ويقصد جلال الدين مدينة خلاط — وهى للملك الأشرف — ويقصد المعظم عيسى حمص وحماه ، ليشغلوا أصحاب هذه البلاد فلا يستطيع أحدهم أن ينجد الآخر ، فقد كان بدر الدين صاحب الموصل ، والأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط ، وأصحاب حمص وحماة يدا واحدة يجمعهم حلف ضد المعظم عيسى ومظفر الدين ، ولكن حدث ما فصم عرى حلف

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٦٧ ، مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٣٩ (مخطوط) .

مظفر الدين وجلال الدين والمعظم عيسى ، ذلك أن نائب جلال الدين على « كرمان » عصى عليه ليستقل بالاقليم دونه ، فسار جلال الدين اليه ليرده الى الطاعة ، فضعف بمسيره أمر الحلفاء ، غير أن مظفر الدين سار بجيشه الى الموصل وحاصرها ، كذلك خرج المعظم الى حمص وحماة وحاصرهما ، الا أن الملك الأشرف لم يقف مكتوف اليدين ، فسار بجيشه الى الموصل لينجد بدر الدين ، ومرّ فى طريقه على ماردين فحاصرها وخربها ، عندئذ خاف المعظم أن يستولى الأشرف عليها ، فأرسل اليه يقترح أن يترك ماردين على أن يرحل هو عن حمص وحماه ، وأن يرسل الى مظفر الدين بالرحيل عن الموصل ، فقبل الأشرف ما عرضه عليه المعظم ، ورحل عن ماردين ، فرحل المعظم عن حمص وحماه ، ورحل مظفر الدين عن الموصل وعاد الى اربل ، بعد أن خربت أعمال الموصل وأعمال ماردين بسبب ما وقع فيهما من قتال [1]

وفى سنة ٦٢٧ (١٢٢٩ م) ، عظم شأن الملك الكامل وازدادت قوته وقويت شوكته ، فقد أصبح صاحب مصر والشام معاً ، فعزم على فتح البلاد الشرقية ، أى بلاد الجزيرة والاستيلاء عليها ، فخرج بجيشه من دمشق وعبر نهر الفرات وأقام بالرقة ، فخافه ملوك وأمراء المنطقة ، فأرسلوا اليه يخطبون وده ، ويدخلون فى طاعته فلما رأى مظفر الدين ذلك ، وجد أنّ من مصلحته أن

(١) الكامل ، جـ ٩/ص٣٦٧ .

يعقد مع الملك الكامل معاهدة صداقة وحسن جوار ، فأرسل رسله اليه ، فعقدت المعاهدة بينهما [1] ، وكانت هذه المعاهدة ، ختام الصراع بين مظفر الدين وبين بدر الدين صاحب الموصل وكذلك بينه وبين الأيوبيين .

وقد تعرض مظفر الدين لخطرين كبيرين كادا أن يطيحا بامارته ، هما خطر جلال الدين خوارزم شاه ، وخطر التتار .

ففى سنة ٦١٥ (١٢١٨ م) ، خرج التتار من بلادهم فى الصين لغزو العالم الاسلامى بقيادة جنكيزخان ، وكانت الدولة الخوارزمية هى صاحبة الصولة فى مشرق العالم الاسلامى المتاخم لحدود الصين ، الا أنها كانت محاطة بأعداء كثيرين هم الملوك والأمراء المسلمون الذين استولت الدولة على ممالكهم واماراتهم ، فلما فاجأها التتار بزحفهم السريع ، لم تجد الدولة من يقف الى جانبها ضد الغزاة ، كذلك لم تستطع حماية ممتلكاتها الواسعة بمفردها ، فاكتسح التتار ما أمامهم من أقاليم ومدن ، وأخذ جلال الدين خوارزم شاه يفر من أمامهم حتى وصل الى أذربيجان واتخذها قاعدة لصد الزحف التترى .

وكانت حروب جلال الدين ضد الغزاة التتار مائعة ، فهو ينتصر أحيانا وينهزم أحايين ، وفى سنة ٦٢٢ (١٢٢٥ م) ، شعر جلال الدين فى نفسه بشىء من القوة ، وفى الوقت نفسه كف التتار عنه الى حين ، فانتهز الفرصة ، واستأنف عملياته الحربية ،

---

(١) السلوك ، جـ ١/ص ٢٣٦ .

ولكن بدلا من أن يوجهها الى أعدائه التتار فيستخلص منهم ما استولوا عليه من بلاد دولته ، وجهها الى الامارات الاسلامية ، فأغار على دقوقا واستولى عليها ثم على البوازيج وهى لصاحب الموصل ، فخشى مظفر الدين على بلاده من جلال الدين فأرسل رسله يعرض عليه الدخول فى طاعته ، فاستجاب جلال الدين له ، عندئذ سار مظفر الدين اليه ، وقرر معه قواعد الصلح والانتماء اليــه .

ولما علم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بوصول جلال الدين الى البوازيج ، أرسل اليه وعقد معه محالفة ضد أخويه الملك الكامل والملك الأشرف واشترك فيها مظفر الدين ، وهى المحالفة التى تحدثنا عنها من قبل .

غير أن جلال الدين عاود التفكير فى الاستيلاء على اربل سنة ٦٢٨ (١٢٣٠ م) ، ولكن مظفر الدين استطاع أن يثنيه عن عزمه ، فجدد معه الصلح [١] ثم زال خطر جلال الدين عنــه نهائيا ، فقد قتل فى سنة ٦٢٨ أو ٦٢٩ ، على خلاف فى ذلك [٢] .

مظفر الدين والتتار

أما خطر التتار على اربل فكان أشــد وأقوى من خطر جلال الدين خوارزم شاه . فقد ذكرنا أنهم ظلوا يزحفــون ويكتسحون قوات جــلال الدين ، حتى اذا كانت ســنة ٦١٧ (١٢٢٠ م) ، وصلوا الى مراغة واحتلوها ثم ساروا نحو اربل ،

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٦٩ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٦٩/ ٦٧٠ .

فأسرع مظفر الدين يطلب النجدة من عــدوه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، فلم يتوان بدر الدين فى الاستجابة له وأسرع بارسال نجدة عسكرية له خوفا على الموصل نفسها ، فقد وصلت أخبارالزحف التترى اليها ، فاضطرب أهلها اضطرابا شديدا ، يقول ابن الأثير مؤرخ العصر ، وكان مقيما فى الموصل فى ذلك الوقت : « ووصل الخبر الينا بالموصل فخفنا ، حتى أن بعض الناس همّ بالجلاء خوفا من السيف » ، ثم خرج بدر الدين بباقى جيشه الى حدود بلاده التى يحتمل أن يدخل التتار منها [1] .

ولما وصلت نجدة الموصل الى مظفر الدين ، خرج الجيش كله الى أطراف ولايته لحمايتها وليتلقى التتار عند زحفهم نحو المدينة ، وكانت ولاية مظفر الدين تقع فى منطقة جبلية وعرة المسالك ، وكلها مضايق يعسر على الجيش الكبير المرور فيها ، ولا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ، فوزع مظفر الدين جيشه فى هذه المضايق ليكبسوا العــدو حين يزحف الى المدينة ، ولكن لسبب لم يوضحه المؤرخون ، توقف التتار عن التقدم نحو اربل

ولما علم الخليفة الناصر لدين الله ببغداد بوصول التتار الى مراغة ، وأنهم على عزم المسير نحو اربل القريبة من بغداد ، قدّر أن التتار لن يستطيعوا التوغل فى ولايتها لصعوبة مسالكها وطرقها ، فتحدثهم أنفسهم عندئذ أن يطرقوا العراق ويغيروا على بغداد ، ومن ثم أرسل الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ،

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .

والى مظفر الدين يأمرهما بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتار عن بغداد اذا حدثتهم أنفسهم بالاغارة عليها ، كذلك أرسل الى الملك الأشرف موسى الأيوبي ، يأمره بالحضور بنفسه وعساكره لدفع التتار عن بغداد ، فاعتذر الأشرف الى الخليفة ، بأنه يجهز معظم جيشه ليرسله الى أخيه الملك الكامل بمصر ، حيث يدور القتال بينه وبين الصليبيين الذين استولوا على دمياط ، وأما ما عنده من الجند فانه يحتفظ بهم احفظ الشام من الصليبيين المقيمين بها ، أو ارسالهم الى أخيه اذا تأزمت به الأمور .

وأما بدر الدين ، فانه أرسل الى مظفر الدين جـزءا من جيشه ، وظل هو بالموصل للدفاع عنها اذا دهمها العدو .

فلما وصل عسكر الموصل الى مظفر الدين ، خـرج بهم وبجيشه ، ونزل دقوقا ، منتظرا جند الخليفة .

فلما علم الخليفة بوصول مظفر الدين الى دقوقا ، أرسـل اليه أكبر أمرائه بالعراق ، وهو قشتمر ، ومعه غيره من الأمراء فى نحو ثمانمائة فارس كدفعة أولى من جيش كبير ينوى الخليفة تجميعه .

وانتظر مظفر الدين وصول باقى عسكر الخليفة حتى يقدم على حرب التتار ، ولكن الخليفة ، لم يرسل له سوى الثمانمائة فارس ، فوجد أنه لا يستطيع مواجهة التتار بجيشه الذى يفوقه جيش التتار كثيرا فى العدد والعتاد ، فأحجم عن التحرش بهم خوفا على الجند من أن يبيدهم العدو . ويحكى مظفر الدين خبره مع الخليفة ، فيقول « لما أرسل الىّ الخليفة فى معنى التتار

قلت له : ان العدو قوى وليس لى من العسكر ما ألقاد به ؛ فان اجتمع معى عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد ، فأمرنى بالمسير ووعدنى بوصول العسكر ، فلما سرت ، لم يحضر عندى غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشى ، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين » [١] .

ولكن على كل حال ، قد أفاد خروج مظفر الدين بجيشه الصغير الى دقوقا فائدة كبيرة ، ذلك أن التتار حين سمعوا باجتماع العسكر الاسلامى فى دقوقا ، ظنوا أن العسكر سوف يهاجمهم ، فتقهقروا وأقاموا بعيدا ، ولما وجد مظفر الدين أن التتار لم يحركوا ساكنا ، وأن الخليفة لم يرسل له ما وعده به من الجند ، عاد بجيشه الى اربل ، وعاد عسكر بدر الدين الى الموصل [٢] .

غير أن التتار عادوا الى اربل فى سنة ٦٢٨ . ففى شهر ذى الحجة من تلك السنة زحف التتار من أذربيجان الى اربل ، وأخذوا وهم فى طريقهم اليها ينهبون ويخربون ويقتلون كل من يصادفهم من رجال ونساء وأطفال ، حتى تعذر على المعاصرين احصاء عددهم ، ثم وصلوا الى ولاية اربل ، فنهبوا قراها ، وقتلوا كل من ظفروا به من أهلها ، واقترفوا من الفظائع ما يشيب لها الوليد .

ولما علم مظفر الدين بهذه الغارة المفاجئة ، أرسل الى

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .
(٢) الكامل ، جـ ٩/ص ٣٣٧ .

بدر الدين لؤلؤ ينذره بالخطر المحقق هذه المرة ، ويحثه على ارسال نجدة عسكرية قبل أن يتوغل التتار فى الولاية ثم ما بعدها الا الموصل ، فأسرع بدر الدين بارسال جزء كبير من جيشه ، فلما وصل جيش الموصل الى مظفر الدين خرج به وبجيشه لقتالهم ، ولكنه لم يجد أحدا من التتار ، فقد اكتفوا بنهب القرى وسلب أهلها ، ثم عادوا من حيث أتوا [1] .

وينفرد ابن الفوطى بذكر الخبر التالى فى سنة ٦٢٩ ، حيث يقول ، انه فى هذه السنة وردت الأخبار الى بغداد بانتشار عسكر المغول فى بلاد أذربيجان ، وتطرقهم الى ما يقاربها من البلاد والقرى حتى بلغوا شهرزور ، فخشى الخليفة المستنصر بالله أن يغيروا على بغداد ، فأخذ يستعد للدفاع عنها ، وأرسل الى سائر البلاد يأمرها بجمع الجيوش لمواجهة الخطر عن بغداد .

ثم أرسل مظفر الدين الى الخليفة يطلب انجاده بالعسكر لصد الزحف التترى ، فأمر الخليفة بعض جنده بالمسير الى مظفر الدين وعلى رأسهم جمال الدين قشتمر الناصرى ومعه من الأمراء شمس الدين قيران ، وعلاء الدين ايلدكز ، وبهاء الدين أرغش ، وفلك الدين زعيم البيات ، فساروا قاصدين مظفر الدين ، والتقوا به فى موضع قريب من قلعة الكرخيتا .

وكادت أن تحدث مأساة بين جند الخليفة وبين جند مظفر الدين ، فقد تشاجر جندى من جند الخليفة مع بيطرى فى جيش

---

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٨٥ .

مظفر الدين ، فانتصر كل فريق لصاحبه ودار بينهم القتال ، فأخذت مظفر الدين الحمية لجنده ، فركب بسلاحه وأخذ يحرضهم على قتال جند الخليفة ، ولما بلغ قشتمر ما حدث ، أسرع الى مظفر الدين فلاطفه ، ثم لامه وقبّح له فعله ، فهدأ مظفر الدين، وأمر جنده بالكف عن القتال ، وكذلك أمر قشتمر جنده بالقاء السلاح فسكنت الفتنة .

ثم اتفق قواد جيش الخليفة ومظفر الدين على المسير الى مدينة شهرزور ، فقد بلغهم أن التتر وصلوا ساميان — أو سامين — وهى من قرى همذان ، وحاصروها وصاحبها خاصبك ، فأرسل قشتمر طليعة من الجند اليها ، ثم رحل الجيش الى موضع يعرف بالأكراد .

وقبض بعض جند الخليفة على ثلاثة نفر وامرأة من المغول، وأحضروهم الى قشتمر ، فسألهم قشتمر عن أخبار المغول ، فذكروا له أنهم تركوهم فى مراغة ، فعرض قشتمر عليهم الاسلام، فأسلموا ، فضمهم اليه .

ثم سار الجيش حتى عبر الدربند ، فوصل اليهم ايلدكز مخبراً أنهم صادفوا يزكا (طليعة) من المغول على غرة ، فجرت بينه وبينهم مناوشة كان النصر فيها للمغول لكثرتهم ولمعرفتهم بالأرض التى يحاربون عليها ، فقتلوا مقدم الطلائع وجماعة من العسكر ، فعند ذلك جدّ الجيش فى السير حتى وصلوا شهرزور ونزلوا فى قرية يقال لها « موغان » غربى شهرزور ،

ولكن لم يمكنهم المقام بها لعدم وجود الماء العذب فيها ، فمات فى هذه القرية عدد كبير من الجند لهذا السبب .

ويبدو أن مظفر الدين وجد أن ما يقومون به من المخاطرة هو العبث بعينه فان عددهم قليل ومؤونتهم قليلة ، وعدوهم يفوقهم عددا وعدة ، فعزم على العودة الى اربل ، ولكنه لم يصرح برغبته هذه لقواد جيش الخليفة لئلا يمنعوه من العودة ، فادعى المرض وأتقن التظاهر بالاعياء ، بحيث لما جاءه قشتمر ليعوده ، اعتقد بأنه مريض حقا فأشفق عليه ، ولكى لا يثير مظفر الدين أية شبهة لرحيله ، طلب من قشتمر أن يسيّر معه ابنه شرف الدين عليا ليكون معه فى اربل ، فاذا مات يتسلم عليّ البلد ، وطلب منه أيضا أن يسيّر معه الأمير سعد الدين حسن بن الحاجب ليسلم اليه والى عليّ قلعة خفتيذ ، فأجابه قشتمر الى ذلك ، فتوجه مظفر الدين الى بلده ، وسار قشتمر الى قلعة الكرخيتا .

ولما وصل مظفر الدين الى اربل ، أقام شرف الدين على وسعد الدين حسن عنده أياما ، ثم أمرهما مظفر الدين بعد ذلك بمغادرة اربل فانه فى أتم عافية ، وان ادعاءه المرض حيلة منه ليعود الى بلاده ، فعادا الى الكرخيتا ، وأخبرا قشتمر بما كان من مظفر الدين .

وأما قشتمر ، فانه وجد أن معظم الجند الذين معه قد تركوه ، ولم يبق معه الا جنده الذين جاء بهم من بغداد وبعض الجند المتطوعين ، ووجد كذلك ، أن المغول قد أصبحوا قريبين منه ، حتى انهم نهبوا خيام أميرين من أمرائه ، فاتفق مع من معه

من القواد على الانسحاب ليلا دون ضجة أو جلبة — لئلا يثيروا انتباه العدو فيطاردهم — الى مكان يقال له « شهركرد » حيث المجال فيه أصلح للقتال لاتساع الأرض ، عندئذ فارقه الجند المتطوعون وعاد كل منهم الى بلاده ، فأصبح قشتمر فى قوة ضئيلة ، فأرسل الى بغداد يشرح للمسئولين فيها حرج مركزه وانصراف الجند عنه ، فأذنوا له بالعودة بجنده الى بغداد ، فعاد [١] . ولم يعد التتار الى الاغارة على اربل الا بعد وفاة مظفر الدين .

مظفر الدين ومحاولته التوسعية

وقد حاول مظفر الدين أن يجرب حظه فى التوسع على حساب جيرانه أسوة بأمراء عصره ، فقد سبق أن وصفنا عصر مظفر الدين بأنه « عصر الغلبة » ، وأن الحكم فيه كان للذى يملك من القوة والامكانيات أكثر مما يملك غيره من الحكام . ولكن فى الحقيقة أن مظفر الدين لم ينغمس فى هذه الحروب الى ذقنه ولم يحاول أن يجرب حظه فى توسيع رقعة امارته على حساب جيرانه الا مرة واحدة — بحسب ما وجدنا عند المؤرخين — ومع ذلك ، فان محاولته هذه لم تكن بدافع من نفسه ، وانما كانت بتأثير دعوة تلقاها من الخارج فاستجاب لها ، ومع ذلك لم ينجح فى محاولته ، وكانت هذه المحاولة فى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) .

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٧ .

أما حروبه ضد الموصل أيام ملوكها ، فقد كان الغرض منها حماية امارته من طمعهم فيها ، وأما حروبه ضد بدر الدين لؤلؤ فكانت حروب وراثة ، غرضه منها ، حفظ حقوق حفيديه وزوج ابنته عماد الدين زنكى فى ملك الموصل . أما محاولته التوسعية فى سنة ٦٠٢ ، فقد كان سببها ، أن أبا بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان كان مضرب المثل للحاكم السيىء ، فقد كان مدمن خمر لا يفيق منها لا ليلا ولا نهارا ، كما يقول المؤرخ ابن الأثير ، مهملا أحوال مملكته ورعيته حتى طمع فيه جيرانه ، فأخذ كل منهم يقتطع جزءا من مملكته ، حتى أن مملوكه ايتغمش — وكان نائبه على بعض بلاده — استبد بما فى يده من البلاد واستقل بها دونه ، وهو سادر فى لهوه وخمره . .

وكان علاء الدين قراسنقر صاحب مراغة [1] من المجاورين لأبى بكر بن البهلوان وأحد الطامعين بمملكته ، فانتهز فرصة اهمال أبى بكر لشئون بلاده ، واستولى على قلعة من قلاعه الحصينة ، ثم شجعه هذا الاستيلاء على أن يستحوذ على مملكته كلها ، ولكنه قدر أنه لن يستطيع تحقيق هذا الغرض بمفرده ، فأخذ يبحث له عن حليف يعاونه فى الحرب ، فوجد ضالته فى مظفر الدين فاستجاب له . واذا كان ابن الأثير — الذى تنقل عنه هذا الخبر — لم يذكر نصيب مظفر الدين من الغنيمة اذا

(١) مدينة فى اقليم اذربيجان ، وهى مدينة نزهة جدا ، وخصبة، كثيرة البساتين والرساتيق والزروع .

نجح المشروع ، الا أنه من الممكن القول ، بأن نصيبه لم يكن أقل من نصيب علاء الدين من بلاد أبى بكر .

على كل حال ، خرج مظفر الدين من اربل بجيشه الى مراغة وانضم الى صاحبها علاء الدين ، ثم خرج الاثنان بجيوشهما الى « تبريز » من بلاد أبى بكر للاستيلاء عليها ، فلما علم أبو بكر بذلك ، استبد به الخوف لعجزه عن محاربتهما ، فأرسل الى مملوكه ايتغمش يستعين به ويطلب منه مساعدته على رد عدوان المغيرين عن المدينة ، فلبى مملوكه طلبه ، وسار اليه بعسكره ، ثم أرسل الى مظفر الدين رسالة فيها لوم وعتاب وتهديد ، وهذه الرسالة تبين لنا مكانة مظفر الدين خارج اربل ، وما كان يحمله الناس له من اعجاب وتقدير لسيرته الطيبة ، قال أيتغمش لمظفر الدين فى رسالته : « اننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن اليهم ، فكنا نعتقد فيك الخير والدين ، فلما كان الآن ظهر لنا ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة ، فاذا كنت كذلك فما لك عقل ، تجىء الينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل ، وأحسب أنك هزمت هذا (يعنى أبا بكر) ، أما تعلم أن له مماليك أنا أحدهم ، ولو أخذ من كل قرية شحنة ، أو من كل مدينة عشرة رجال ، لاجتمع له أضعاف عسكرك ، فالمصلحة أنك ترجع الى بلدك ، وانما أقول لك هذا ابقاء عليك » ونلاحظ هنا أن ايتغمش يعيب على مظفر الدين ما فعله هو نفسه من اغتصاب بلاد سيده واستبداده بها .

وعلى كل حال ، فان ايتغمش أتبع رسالته بالتحرك الى تبريز بجيشه ، فلما وصلت رسالة ايتغمش الى مظفر الدين وبلغه مسيره الى تبريز لنجدتها ، قرر أن ينقض اتفاقه مع علاء الدين وأن يعود الى اربل ، بالرغم من الحاح علاء الدين عليه بالبقاء ، وبالرغم من أنه أبدى استعداده بأن يلقى اليه قيادة الجيوش كلها فيكون هو صاحب الأمر والنهى فيها ، وبالرغم أيضا من أنه أكد له أن الكثير من أمراء أبى بكر راسلوه وأبدوا له استعدادهم للانضمام اليه بعساكرهم ، برغم كل هذا ، فان مظفر الدين رفض الاستمرار فى الاتفاق مع علاء الدين وفضل العودة الى اربل [1] .

ويعزو ابن الأثير ، أن عودة مظفر الدين الى اربل سببها خوفه من ايتغمش ، ولكن فى رأينا ، أن هناك سببا آخر دفع مظفر الدين الى نقض اتفاقه مع علاء الدين ، وهو حرصه على سمعته الطيبة التى يعرفها الناس عنه من التجريح ، ففضل الابقاء على تقدير الناس له من أن يمتلك بلادا يزيد بها رقعة امارته .

ومرة آخرى يشترك مظفر الدين فى أحـداث عصره ، ولكن اشتراكه فى هذه المرة كان لحساب الخليفة وبدعوة منه لا لحسابه، وكان ذلك فى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

ففى سنة ٦٠٨ هـ ، عصى قائد — يقال له منكلى — سيده ايتغمش صاحب بلاد الجبل ، وايتغمش هذا هو الذى كان مملوكا

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ٢٨٢ .

لأبى بكر البهلوان صاحب أذربيجان الذى ذكرناه من قبل وقلنا انه استبد بالبلاد التى كان يحكمها نيابة عن أبى بكر ، فحارب منكلى ، ايتغمش واستولى على بلاده ، ففر ايتغمش ولجأ الى الخليفة الناصر لدين الله مستنصرا به ، فأنجده الخليفة بالجند والسلاح والمال ، فخرج ايتغمش لاسترداد بلاده ، ولكنه وقع أسيرا فى قبضة بعض رجال منكلى ، فقتله منكلى وصفت له البلاد ، فأرسل الخليفة الى منكلى ينكر عليه تعديه على ايتغمش وقتله واستصفاء بلاده ، ويأمره برد البلاد اليه ، (أى الى الخليفة) ، واستمرت المراسلات بين الخليفة وبين منكلى حتى سنة ٦١٢ ، دون أن تنتهى الى شىء ؛ فيما عدا اصرار منكلى على موقفه واحتفاظه بالبلاد لنفسه ، عندئذ عزم الخليفة على حربه واسترداد البلاد منه ، ولكن الخليفة لا يستطيع الصبر على حربه بمفرده ، فاتفق مع أوزبك بن البهلوان صاحب بلاد أذربيجان ومع جلال الدين زعيم طائفة الاسماعيلية على أن ينضموا اليه لقتال منكلى ، مقابل تقسيم بلاده فيما بينهم فى حالة ما اذا انتصروا عليه . فلما أن استقرت القواعد بينهم ، أخذ الخليفة يجهز جيشه ، ثم أرسل الى مظفر الدين كوكبورى يأمره بالحضور بعساكره للاشتراك معهم فى الحرب ، وأن يكون هو القائد العام للحملة كلها ، كذلك أرسل الى أصحاب الموصل والجزيرة وحلب يأمرهم بامداد مظفر الدين بالجند ، فلبى الجميع أمر الخليفة ، وأرسل كل منهم ما استطاع أن يرسله

من جند الى مظفر الدين ، فلما اجتمع الجند عنده ، سار بالجيش كله الى همذان ، حيث سبقه اليها جيش الخليفة وحلفاؤه فاجتمع بهم ، وتسلم قيادة الجيوش كلها ، فلما رأى منكلى هـذه القوات الضخمة المجتمعة على حربه ، لم يجرؤ على مواجهتها ، فأمر قواته بأن يتقهقروا الى الجبال والتحصن بها ، واعتلى هو جبلا قريبا من مدينة « كرج » ، فوزع مظفر الدين الجيوش لحصار منكلى وعساكره ، وخصص لكل قائد منطقة وألقى عليه مسئوليتها ، وخص نفسه بحصار منكلى ، واستمر الحصـار عشرة أيام ، ومظفر الدين لا يستطيع الصعود الى منكلى والاشتباك معه فى قتال ، وكذلك منكلى لا يجرؤ على النزول اليه وقتاله ، الأمر الذى أدى الى نقص الميرة والأقوات عند مظفر الدين ، وابتدأت الجيوش تتذمر حتى هم مظفر الدين برفع الحصار ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لمنكلى وقواته ، فان جنده حـل بهم الضيق من الحصار ، عندئذ أراد منكلى أن يجرب حظه بالاشتباك مع بعض قواد مظفر الدين ، فنزل من الجبل ببعض جيشه من الجهة التى كان يحاصرها أوزبك ، فاشتبك معه فى قتال فلم يصمد له أوزبك وانهزم منه ، فاكتفى منكلى بذلك مطمئنا الى قوته وضـعف القوات المحاصرة له ، وعاد الى مكانه من الجبل برجاله وقد قرر أن يثير مع الجيوش المحاصرة معركة مكشوفة فى اليوم التالى . فلما كان اليوم التالى ، اصطفت العساكر جميعها للحرب ، ودار قتال لم يستطع منكلى له صبرا ، فارتد على أعقابه منهزما الى

الجبل يعتصم به ، ثم تخيل أنه لن يستطيع مواصلة القتال والتغلب على خصومه ، مع أن هزيمته لم تكن كبيرة ، ولذلك آثر الفرار تحت جنح الظلام ، فاستولى عندئذ جند الخليفة على بلاده ، وقسمت بين الحلفاء حسب الاتفاق ، ثم عاد مظفر الدين الى اربل ، ولا نعلم ماذا كان نصيبه من الغنيمة ، حيث لم يتعرض المؤرخون لذلك [1] .

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٣٠٥/٣٠٩ .

الفصل السادس

مظفر الدين والحروب الصليبية

كان أخطر حادث عاصره مظفر الدين واستقبل به شبابه — وكان فى نفس الوقت يشغل المسلمين جميعا — هو الحروب الصليبية التى كانت تدور رحاها فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين ، وقد وعاها مظفر الدين وعيا تاما منذ أن أقام فى حران بعد اخراجه من اربل وكان عمره فى ذلك الوقت نحو احدى وعشرين سنة ، ولكنه لم يدخل مضمارها ويشترك فى حروبها الا بعد أن بلغ من العمر نحو الثلاثين سنة ، أى فى سنة ٥٨٠ هـ . وذلك لأن حران كما سبق أن ذكرنا ، كانت تابعة لامارة الموصل، وكان أمراء الموصل قد كفوا شر الصليبيين منذ أن أجلاهم عماد الدين زنكى عن الجزيرة فى سنة ٥٣٩ بعد استيلائه على مدينة الرها وتصفية المراكز الصليبية المحيطة بها . ولما أقام مظفر الدين فى حران منذ سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠ ، حتى سنة ٥٧٨ ، كان أمراء الموصل فى هذه الفترة مشغولين بمشاكلهم الداخلية من ناحية ، وكانوا يرفضون التعاون مع صلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين من ناحية أخرى للنزاع الذى نشب فيما بينهم وبينه

بسبب منافسته لهم على بلادهم ، وتبعا لذلك كان الأمراء المنتمون اليهم يقفون موقف العداء منه أيضا ؛ ولذلك لم يتعاونوا معه فى الحرب ، ومنهم بطبيعة الحال مظفر الدين لأنه كان مقيدا بعجلة سياستهم .

ولكن بعد أن انفصل مظفر الدين عن الموصل ودخل فى طاعة صلاح الدين وحكمه ، انفتح له المجال الصليبى ، وأصبح من العاملين مع صلاح الدين فى الجهاد ، وكان دوره فيه أكبر وأخطر من دور أبيه وأخيه ، فقد ظل يخوض المعارك مع صلاح الدين حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ (١١٩٢ م) . واذا كان المؤرخون لم يذكروا اسمه صراحة الا فى بعض المعارك الهامة ، الا أننا نرجح ترجيحاً يكاد أن يصل حد اليقين ، أنه اشترك فعلا فى معظم المعارك التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين . وسبب ترجيحنا أن المؤرخين كثيرا ما يذكرون أن صلاح الدين كان يستدعى « عساكر الشرق » كلما عزم على القيام بحرب طويلة أو اثارة معارك هامة ليشتركوا معه فى القتال ، والمؤرخون يعنون بالشرق اقليم الموصل والجزيرة التى تقع فيه حران والرها اللتان يملكهما مظفر الدين .

وأول خبر عن اشتراك مظفر الدين فى الحروب الصليبية بصفة عامة ومع صلاح الدين بصفة خاصة ، كان فى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) . ففى تلك السنة ، عزم صلاح الدين على فتح حصن الكرك من الصليبيين لوقوعه على طريق دمشق — مصر البرى ، وكان صاحب الحصن « أرناط » الصليبى كثيرا ما يتعرض للقوافل

التجارية وغير التجارية التى تتنقل بين البلدين وينهبها ، مما عطل طريق المواصلات بينهما ، فقرر صلاح الدين الاستيلاء على الحصن وتأمين الطريق من خطره .

وكان صلاح الدين يعلم حصانة الحصن ومناعته من ناحية ، كذلك كان يعلم شدة حرص الصليبيين على الاحتفاظ به وعدم سقوطه فى يده من ناحية أخرى ، لذلك قدر صلاح الدين أن الصليبيين سوف يتكتلون للدفاع عن الحصن حين يحاصره ، ولذلك أخذ يستدعى الأمراء المسلمين فى الشام والجزيرة لكى يشتركوا معه فى فتحه ، حتى أنه أرسل الى مصر يستدعى بعض جيشها للاشتراك معه فى عملية الفتح .

وجاء مظفر الدين بجيشه الى صلاح الدين مع من جاء من الأمراء ، فخرج صلاح الدين بالجيش من دمشق وتجمعت الجيوش كلها عند الحصن ، فضرب صلاح الدين الحصار عليه ، وكان من اليسير على صلاح الدين الاستيلاء على ربض الحصن ، وأما الحصن نفسه فكان من المناعة بمكان ، حيث يفصل بينه وبين الربض خندق عميق يبلغ نحو ستين ذراعا ، فأمر صلاح الدين الجند بطمه بكل ما يجدونه من تراب وأحجار وغيرها ، فلما أخذ الجند يقتربون من الخندق ، انهالت عليهم سهام حامية الحصن ، وقذفتهم المناجيق بالأحجار فارتدوا على أعقابهم نجاة بأنفسهم ، فأمر صلاح الدين بعمل سقائف من الخشب واللبن لتحمى الجند عند اقترابهم من الخندق ، ولكن لم تؤد السقائف الغرض

المطلوب ، بالرغم من أن مجانيق صلاح الدين كانت دائمة الرمى على حامية الحصن .

ولما طال أمر الحصار على الصليبيين ، أرسلوا الى ملك بيت المقدس والى الأمراء الصليبيين يطلبون انجادهم ، فأسرعوا اليهم فارسهم وراجلهم ، فلما علم صلاح الدين بذلك ، رحل عن الحصن ليلاقى النجدات الصليبية فى الطريق ليحاربهم وليحول بينهم وبين الوصول الى الحصن ، ثم يعود بعد أن يهزمهم اليه . فعلم صلاح الدين أن النجدات الصليبية قد عسكرت بمكان يقال له « الواله » فعسكر هو بالقرب منهم ولم يستطع الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك اليهم وضيقها ، ولم يجرؤ الصليبيون بدورهم أن يقتربوا منه ويشتبكوا معه فى قتال ، فأقام صلاح الدين أياما ينتظر خروجهم اليه ، فلما طال بصلاح الدين الانتظار أراد أن يخرجهم بمكيدة ، فتراجع عنهم بضعة فراسخ لكى يلحقوا به ، وترك فى معسكره من يخبره بخروجهم ، ولكن الصليبيين فهموا مكر صلاح الدين فلم يتبعوه ، وظلوا فى مكانهم الى المساء فغافلوا عيون صلاح الدين وتسللوا تحت جنح الظلام الى الحصن ، فلما علم صلاح الدين بذلك ، تأكد له استحالة الاستيلاء عليه بعد وصول النجدات اليه ، فأجل فتحه الى فرصة أخرى ، ثم اتجه الى نابلس ، فأغار عليها وخربها وأحرقها ، ثم سار منها الى سبسطية فخربها أيضا ، وكان بها بعض الأسرى المسلمين فاستنقذهم منها ، ثم سار منها الى جنين فنهبها وأخربها ، ثم عاد الى دمشق ، وسمح

للجيوش المساعدة له أن يعود كل منها الى بلده ، فعاد مظفر الدين بجنده الى حران بعد أن أدى دوره فى هذه الحروب[1] .

ثم انشغل صلاح الدين فى سنتى ٥٨١ و ٥٨٢ ، بمشاكله مع صاحب الموصل ، كذلك انشغل بتوزيع بلاده بين أفراد أسرته ليقوموا على حكمها نيابة عنه ، حتى اذا كانت سنة ٥٨٣ ، عزم صلاح الدين على التفرغ للصليبيين واسترداد بيت المقـدس وغيره منهم .

وكان صلاح الدين يعلم خطورة ما هو مقـدم عليه ، فان الصليبيين لن يتركوه يستولى على بيت المقدس مهما كلفهم الأمر، وأنهم سوف يدافعون عنه دفاع المستميت ، وسوف يعبئون قواهم جميعا للدفاع عنه ، لذلك أخذ يستدعى الأمراء بجيوشهم من جديد لكى يشاركوه فى عملية الفتح .

وخرج صلاح الدين بجيش دمشق فى أواخر السنة ، ونزل فى مكان يقال له « رأس الماء » ، ثم ترك معظم الجيش مع ابنه الملك الأفضل علىّ ، وسار هو الى حصن الكرك مرة أخرى ، فقد بلغه أن صاحبه « أرناط » على عزم التعرض لقافلة الحجاج القادمة الى دمشق وأنه بعد أن ينتهى من أخذ الحجاج ونهبهم ، سيقف فى طريق العسكر المصرى القادم الى صلاح الدين من مصر ليمنعهم من الوصول اليه ، فسار صلاح الدين ونزل على بصرى المجاورة للحصن ، فلما رأى أرناط ذلك ، قبع فى حصنه ولم

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٦٥ ، سيرة صلاح الدين ، ص ٥٢؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٣٨٢ .

يجرؤ على الخروج منــه ، حتى مرت القافلة بســلام ودخلت دمشق [1] .

وحين كان صلاح الدين فى « بصرى » أخــذت الجيوش الاسلامية تصل بأمرائها تباعا الى الملك الأفضل فى « رأس الماء »، وكان مظفر الدين ممن لبى نداء صلاح الدين ، فوصل بجيشه مع من وصل ، وكان الملك الأفضل يبلغ والده تتابع وصــول الجيوش اليه ، فأرسل صلاح الدين اليه يأمره بارسال جيش من عنده الى مدينة عكا للاغارة عليها واستطلاع أمرها واختبار قوتها تمهيدا لفتحها ، فسيَّر الأفضل ، مظفر الدين وعضَّــده بالقائدين الكبيرين : قايماز النجمى ودلدرم الياقوتى ، فساروا ليلا تحت جنح الظلام ونزلوا على « صفورية » — وهى من أعمال عكا — فى الصباح .

وما ان علم الصليبيون المقيمون فى عكا بوصول المسلمين الى مشارف المدينة ، حتى خرجوا اليهم ، لردهم عنها وكان أكثرهم من فرسان الداوية والاسبتارية ، وهؤلاء الداوية والاسبتارية أقوى المحاربين الصليبيين وأصبرهم على القتال ، فالتقوا وجها لوجه مع مظفر الدين وجنده ، ودارت بين الفريقين معركة « تشيب لها المفارق السود » على حد تعبير المؤرخ ابن الأثير ، وما زال المسلمون والصليبيون فى كر وفر ، وضرب وطعن ، حتى تفوق المسلمون على عدوهم ، وأنزلوا بهم هزيمة منكرة ، فضلا عن أنهم جندلوا عددا من قوادهم ، فسقطوا صرعى بين أيديهم ، ولم تكن

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٥ .

فرحة المسلمين بالنصر ، بقـدر فرحهم لقتـل زعمـاء الداوية والاسبتارية ، فقد كان فرسانهم « جمرة الفرنج » ، وطالما وجد المسلمون منهم النكاية والجهد . ثم عاد مظفر الدين برجاله الى معسكره فى « رأس الماء » يرفع مع رجاله راية النصر[1] .

ثم عاد صلاح الدين الى « رأس الماء » بعد أن وصلت قافلة الحجاج الى دمشق بسلام ، فأخذ يستعد لمعركة حطين ، المعركة الخالدة على التاريخ ، والتى حشد لها صلاح الدين ثمانين ألفا من المقاتلة المسلمين بين فارس وراجل ومتطوعة ، وكان لمظفر الدين دوره الهـام فيها ، فقد ولاه صـلاح الدين فيها قيادة الجيوش الشرقية ، أى جيوش الموصل والجزيرة .

ولما اطمأن صلاح الدين على حسن استعداده للمعركة ، أمر الجيوش بالتحرك الى طبرية ، فتحركت بمعداتها وأثقالها وآلات الحصار ، ونزلت على ساحل البحيرة ، وأخذ صلاح الدين يستعد لمنازلة طبرية ذاتها وفتحها .

وتقدم صلاح الدين الى مدينة طبرية ، وساق أمامه آلات الحصار الهدامة ، ووزع صلاح الدين آلات الحصار حـول أسوار المدينة ، وأخذ يضرب بها الأسوار والحامية ، بينما أخذ النقابون المسلمون ينقبون أسوارها حتى خربوها ، فلما رأى الصليبيون أنهم يكادون أن يؤخذوا بأيدى المسلمين ، خرجوا من المدينة ليخوضوا مع المسلمين معركة مكشوفة ، فاجتمعوا فى مكان يقال له « لوبية » فملك المسلمون عليهم موارد الماء ، فوجـد

---

(١) الكامل جـ ٩/ص ١٧٥/١٧٦ .

الصليبيون لذلك العطش الشديد ، فقد كان الزمان صيفا شديد الحر ، ولم يتمكنوا من الوصول الى الماء ، فهموا بالعودة الى المدينة بعد أن فقدوا الأمل فى الحصول على الماء ، ولكنهم خافوا أن يأخذ المسلمون أقفيتهم ، فظلوا فى مكانهم لا يتحركون الى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى ، كان صلاح الدين قد عبأ جيشه تعبئة الحرب ، ثم أمر الجيش بالبدء فى القتال ، فتقدم الجند نحو العدو ، وتقدم العدو نحوهم ، والتقوا وجها لوجه ، ودارت معركة طاحنة اشتد فيها القتال ، وصبر الفريقان ، وكانت نبال المسلمين تطلق على الصليبيين كأنها الجراد ، فكان يسقط بسببها من الصليبيين المئات .

وهجمت جماعة كبيرة من الصليبيين على جيش يقوده تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وكان الهجوم عنيفا ، بحيث كاد الصليبيون يطحنونه وجيشه طحنا ، وهنا برز مظفر الدين ليؤدى دوره فى المعركة ، ففحص المنطقة التى يقاتل عليها تقى الدين ، فاذا المنطقة تحيط بها الحشائش ، واذا الريح فى مواجهة الصليبيين تسفح وجوههم ، فخطرت له فكرة رائعة ، فلو أنه أطلق النار فى هذه الحشائش ، فان الريح سوف تحمل الى وجوه الصليبيين الدخان واللهب والحرارة ، فتشل حركتهم عن القتال ، وتحل بهم الهزيمة المؤكدة ، ووضع الفكرة موضع التنفيذ ، فأشعل النار فى الحشائش ، وكانت الريح شديدة ، « فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش ، وحر الزمان ، وحر النار والدخان ،

وحر القتال » ، فوقع الاضطراب فى صفوف الصليبيين وشلت حركتهم فحلت بهم الهزيمة ، فر على اثرها القمص صاحب طبرية الى مدينة صور يحتمى بها .

وكاد الصليبيون جميعا يستسلمون بعد أن رأوا فرار صاحب طبرية ، بعد هزيمته الشائنة ، ولكنهم علموا أنهم مقتولون اذا ما استسلموا ، فدفعهم الخوف من القتل الى مواصلة القتال والاستبسال فيه ، « فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين — على كثرتهم — عن مواقفهم لولا لطف الله بهم » ، ذلك أن الصليبيين كلما حملوا حملة يرجعون منها وقد سقط منهم العدد العديد قتلى ، حتى ضعفوا ودخلهم الوهن ، ولاح عليهم الخذلان وعدم القدرة على مواصلة القتال ، « فأحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها » ، وأخذوا يعملون فيهم السيف كيف شاءوا ، ويأسرون منهم المئات من الفرسان والمشاة فى سهولة ويسر ، واستولوا منهم على صليب الصلبوت — وهو صليبهم الأعظم — فقد كان لفقده أكبر الأثر فى اضعاف همتهم وخمود حماستهم .

واستطاع ملك بيت المقدس أن يفر فى جمع كثير من الصليبيين الى تل حطين ، وأراد من نجا من الصليبيين أن ينصبوا خيامهم على التل ويحموا أنفسهم ، الا أن المسلمين لحقوا بهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب من أسفل التل حتى أعجزوهم عن نصب خيامهم سوى خيمة الملك ، وظل المسلمون يقاتلونهم والصليبيون ينحدرون من أعلى التل ويحملون على المسلمين حملات عنيفة ،

ولكن حملاتهم كانت تذهب هباء ، فقد كانوا يحملون على المسلمين وهم مئات ، فيعودون الى التل وهم عشرات ، وما زالوا يكررون هذه الحملات فتنقص أعدادهم حتى تأكد لهم فشل حملاتهم ، ففر عندئذ من استطاع الفرار ، حتى أنه لم يبق مع الملك سوى مائة وخمسين فارسا من أشجع فرسانهم ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون الصمود فى وجه المسلمين وقتالهم ، ولكن العطش كان قد أحرق حلوقهم حتى أنهم لا يستطيعون الحركة ، فنزلوا عن خيولهم وجلسوا على الأرض ، معلنين استسلامهم للمسلمين ، فلما رأى المسلمون ذلك ، اندفعوا نحو التل ، فألقوا خيمة الملك وقبضوا عليه وعلى من معه من الفرسان ، ونزلوا بهم الى معسكرهم .

وكان انتصار المسلمين فى هذه المعركة انتصارا رائعا وانتصارا مزدوجا ، فقد فنيت فيها قوة كبيرة من جيش العدو ، وأسر كل من اشترك من عظماء الصليبيين وأمرائهم : ملك بيت المقدس ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، وصاحب جبيل ، وابن هنفرى ، ورئيس الداوية . وكثر فى الصليبيين القتل والأسر ، « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم (أى المسلمين) أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا »[1] . أما الانتصار الآخر ، فهو ما تبع هذه المعركة من وهن للصليبيين وضعفهم ، فقد فتح الانتصار الطريق للمسلمين الى البلاد الساحلية التى للصليبيين ، ففتحوا : طبرية ، وعكا ، ومجدل يابا ، وقيسارية ، والناصرة ،

---

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٧٨ .

وحيفا ، وصفورية ، والشقيف ، ويافا ، وعسقلان ، أى جميع البلاد الساحلية القريبة والمحيطة ببيت المقدس — مملكة الصليبيين العتيدة — فضرب صلاح الدين ضربته الكبرى على بيت المقدس ، فاستولى عليه ، فكانت النكبة التى ولول منها الصليبيون فى الشام والمسيحيون فى أوربا على السواء ، فجردوا على صلاح الدين الحملة الصليبية الثالثة .

فانه بعد أن فرغ صلاح الدين من عسقلان ، سار عنها الى بيت المقدس ، وكان فيه من عظماء الصليبيين : البطرك ، وصاحب الرملة ، وبه أيضا من نجا من فرسانهم من معركة حطين ، فلما علموا أن صلاح الدين على عزم فتحه ، أعدوا ما استطاعوا من معدات الحرب ، وحشدوا ما أمكنهم أن يحشدوا من المقاتلة ، وتكتل عدد عظيم من الصليبيين داخل بيت المقدس للدفاع عنه ، « وكلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذونه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه »[1] . وانتشر المقاتلة الصليبيون على أسوار المدينة يرمون المسلمين بمجانيقهم ، ولكن مجانيق المسلمين كانت أقوى وأشد ، فكانت تكيل لهم الصاع صاعين ، فكان القتال « أشد قتال رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا ، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى ؛ بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويزجرون (عن القتال)

(١) الكامل ، جـ ٩/ص ١٨٢ .

ولا ينزجرون »[1] . ولكن كفة المسلمين كانت هى الراجحة ، فقد استطاعت مجانيقهم أن تشل حركة مجانيق الصليبيين ، وأن ترغم مقاتلة الأسوار على الفرار ، بل ترغم الصليبيين على عرض الصلح والاستسلام ، فرضى صلاح الدين بالصلح معهم ، فأمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة فى بيت المقدس أو الرحيل عنه ، فأقام به من أراد المقام ، ورحل عنه من أراد الرحيل[2] ، ومن ثم ارتفعت الأعلام الاسلامية على أسوار المدينة تعلن رجوع المدينة الى أصحابها المسلمين ، بعد أن خرجت من أيديهم نحو قرن من الزمان .

أخذ صلاح الدين بعد ذلك فى تصفية الساحل الشامى من الصليبيين ، ومظفر الدين يرافقه فى كل حملة ويشترك معه فى كل معركة . وكان الصليبيون يعتمدون فى حفظ ما بأيديهم من البلاد على كل من عكا وبيت المقدس ، فلما سقطت عكا وسقط بيت المقدس فى يد صلاح الدين ، أصبح من اليسير عليه تصفية القسم الشمالى من الساحل ، فسار بجيشه يريد ثغر جبلة ، وجعل قيادة ميسرة جيشه الى مظفر الدين .

ومرّ صلاح الدين وهو فى طريقه الى جبلة بمدينة أنطرطوس؛ وأنطرطوس مدينة حصينة راكبة على البحر ، ولها برجان عظيمان عن يمين وعن شمال ، كالقلعتين يدفعان عنها عادية المغير ، فأنزل

(١) الكامل ، ج ٩/ص ١٨٢ .
(٢) الكامل ، ج ٩/ص ١٨٣ .

صلاح الدين كل من ميمنة الجيش وميسرته على البرجين ، ورابط هو ببقية الجيش أمام المدينة .

وبدأ القتال بين المسلمين وبين حامية المدينة ، ولكن لم يلبث المسلمون أن تغلبوا على الحامية واعتلوا أسوار المدينة ونشروا أعلامهم عليها ، ففرت الحامية الى البرجين وانضموا الى من فيهما من المقاتلة ، وثبتوا جميعا للمقاومة .

وكان يقع على عاتق مظفر الدين فتح أحد البرجين ، فظل يقاتل من به من الصليبيين دون هوادة ، ويدك أركانه بآلات الحصار حتى هدمه عن آخره ، فاستسلم بعض من كان فيه من المقاتلة ، وفر بعضهم الآخر الى البرج الآخر ، فازدادت حاميته قوة ، الا أن القائد المباشر لقتاله استطاع أن يقتحمه أيضا بعد قتال مرير [1] ، فخلصت المدينة بذلك للمسلمين وعادت اليهم كما كانت سيرتها الأولى .

وبعد أن تم فتح انطرطوس ، واصل صلاح الدين السير بجيشه الى جبلة ففتحها ، وفتح اللاذقية ، وصهيون وبلادا كثيرة غيرها .

غير أن الصليبيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ولم يسكتوا على خروج عكا من أيديهم ، فقد حرمهم خروجها من أيديهم من ميناء عظيم ، تصلهم عن طريقه الامدادات من مقاتلة وسلاح من الغرب، فضلا عن أنه ميناء تجارى هام ، ومن ثم عزموا على استرداد

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٧٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦/ ص ٣٩ .

المدينة فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) مهما كلفهم الأمر ، ولما تمكث فى أيدى المسلمين غير سنتين .

وأخذ الصليبيون يعبئون قواتهم ويعدون أنفسهم لمعركة الاسترداد ، حتى تهيأوا لها واستعدوا لها الاستعداد الكامل ، وبينما كان صلاح الدين يفتح بلادهم فى الشمال ، كانت جيوشهم فى طريقها الى عكا لاستردادها ، حتى وصلوها وضربوا عليها الحصار .

ولما علم صلاح الدين بما عزم عليه الصليبيون من استرداد عكا ، أرسل يستدعى الأمراء الذين لم يشتركوا معه فى المعارك السابقة ، فلبوا نداءه سراعا ، ولكن ما أن وصلوا اليه ، حتى كان الصليبيون قد ضربوا الحصار على المدينة قبل أن يتمكن صلاح الدين من الوصول اليها لدفع عاديتهم عنها . وكان ممن قدم على صلاح الدين ، زين الدين يوسف — أخو مظفر الدين — فجاء بجيشه من اربل ، وان كان قد تأخر وصوله الى سنة ٥٨٦. ويصف ابن شداد — المرافق لصلاح الدين — جيش زين الدين واستقبال صلاح الدين لزين الدين بقوله : « وقدم زين الدين بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه ، وأنزله فى خيمته وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب خيمة أخيه مظفر الدين »[1] .

قلنا ان الصليبيين كانوا أسبق من صلاح الدين فى النزول على عكا ، فضربوا عليها الحصار ، ونصبوا حول أسوارها آلات

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٩٨/١٠٦ .

التدمــير من مناجيق وعرادات [١] ودبابات [٢] وكباش [٣] ، وحاصروها حصارا مستحكما ، وضايقوها مضايقة عظيمة وسدوا عليها المنافذ فمنعوا الدخول اليها والخروج منها ، فأصبحت حامية المدينة ، تعتمد على امكانياتها المحلية فى الدفاع عن المدينة وعن أنفسهم .

ولما وصل صلاح الدين بجيشه الى عكا ، ووجد أن الصليبيين محاصرين لها ، ضرب معسكره وراءهم ، وكان من المنتظر أن يقضى على الصليبيين فى أسرع من رد الطرف لانحصارهم بين حامية المدينة من أمام وبين جيش صلاح الدين من وراء ، ولكن الذى حدث ، أن الصليبيين صمدوا للقتال مدة سنتين كاملتين ، انتهى الأمر بعدهما بهزيمة المسلمين بصلح عقدوه مع الصليبيين ، كان من شروطه أن تنازل صلاح الدين عن كثير من البلاد التى استولى عليها للصليبيين .

---

(١) سبق أن وصفنا المنجنيق . والعرادة تشبه المنجنيق ، الا أنها أصغر منه ، والجمع عرادات .

(٢) الدبابة : آلة عظيمة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة . والدبابه الكبيرة تتكون من أربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانيه من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، فهى تعلو على السور المراد مهاجمته ، وكان يركب فيها المقاتلة . أما طريقة تدمير الدبابة فهو حرقها بالنار . (سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٦ ، ١٤٩) .

(٣) الكباش : جمع كبش . وهو رأس من حديد يكون فى مقدمة الدبابة المعدة لهدم الأسوار ، ينطح به السور بشدة عظيمة فيهدمه بتكرار النطح (سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٦) .

ولا نريد التأريخ هنا لمعركة عكا من حيث هى ، وانما نتعرض لها لاشتراك مظفر الدين وأخيه زين الدين فى معاركها ، الا أننا نقول ، انه دارت خلال هاتين السنتين عشرات المعارك بين صلاح الدين والصليبيين تختلف فى شـدتها وعنفها ، ونحن نذكر هنا معركتين ، ذُكر فى كل معركة منهما دور أحد الأخوين ، مظفر الدين وزين الدين ، ولكى نعطى القارىء صورة واضحة عن الجهود التى كان يبذلها المسلمون فى صراعهم ضد الصليبيين ، ولكى نعطى كذلك وصفا لطرق القتال بين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت .

فأما المعركة الأولى ، فكانت عقب نزول الصليبيين على عكا مباشرة ، واشترك فيها مظفر الدين ، وكان مكانه من الجيش فى ميسرته . ونحن نترك لشاهد عيان حضر المعركة بنفسه : هو بهاء الدين بن شداد ، مؤرخ صلاح الدين ، ليصف لنا المعركة كما شاهدها بنفسه وبأسلوبه ، حيث يقول تحت عنوان :

(ذكر المصاف الأعظم على عكا)

« لما كان يوم الأربعاء الحـادى والعشرون (من شـعبان سنة ٥٨٥) تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة، فخرج فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة ، وفى القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى ، يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدى الملك . وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها ، وكذلك ميسرة

العدو فى مقابلة ميمنتنا الى آخرها ، وملكوا رءوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم الى النهر ، وطرف ميسرتهم الى البحر .

« وأما العسكر الاسلامى المنصور ، فان السلطان (صلاح الدين) أمر الجاليش أن نادى فى الناس : يا للاسلام وعساكر الموحدين ؛ فركب الناس (أى الجند) وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدى خيامهم ، وامتدت الميمنة الى البحر ، والميسرة الى النهر كذلك .

« وكان (صلاح الدين) رحمه الله ، قد أنزل الناس (أى الجند) فى الخيم ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة الحرب ، حتى اذا وقعت الصيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب ، وكان هو فى القلب، وفى ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة (عسكر الموصل) يقدمهم ظهير الدين بن البلنكرى ، ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن (حصن كيفا) ، ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشى قايماز النجمى ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان طرفها الملك المظفر تقى الدين عمر (صاحب حلب) بجحفله وعساكره ، وهو مطل على البحر ؛ وأما أوائل الميسرة ، فكان مما يلى القلب : سيف الدين علىّ المشطوب ، وعلى بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلى وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحافله وعسكره ؛ وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية (نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين)

كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الأسدية الذين يضرب بهم المثل ، ومقدم القلب عيسى (الهكارى) وجمعه .

« هذا والسلطان يطوف على الأطلاب [1] بنفسه ، يحثهم على القتال ، ويدعوهم الى النزال ، ويرغبهم فى نصر دين الله .

« ولم يزل القوم (أى الصليبيون) يتقدمون ، والمسلمون يقدمون ، حتى علا النهار ومضى منه أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر — وكان فى طرف الميمنة على البحر — فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ؛ فلما رأى السلطان ذلك ، ظن بهم ضعفا وأمده بأطلاب[1] عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر .

« ولما رأى (الصليبيون) الذين فى مقابلة القلب ، ضعف القلب ، ومن خرج منه من الأطلاب ، داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، راجلهم وفارسهم .

« ولقد رأيت الرجّالة (رجالة الصليبيين) تسير سير الخيالة ، وهم يسبقون حينا ، وجاءت الحملة على الديار بكرية — كما شاء الله تعالى — وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدى العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم

---

(١) الأطلاب : جمع طلب ، فرقه من الفرسان عددها خمسمائة فارس . (مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٩٥) .

الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين الى «تل العياضية» ، فانهم استداروا حول التل ، وصعدت طائفة من العدو الى خيمة السلطان فقتلوا طست دار[1] كان هناك ؛ وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة ، رحمهما الله .

« وأما الميسرة ، فانها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها .

« وأما السلطان ، فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم : يا للاسلام . ولم يبق معه الا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ويخرق الصفوف ، ويأوى تحت التل الذى كان عليه الخيام .

« وأما المنهزمون من العسكر ، فانه بلغت هزيمتهم الى « الفخوانة » — قاطع جسر طبرية — ، وأمّ منهم قوم محروسة دمشق . وأما المتبعون لهم (أى الصليبيين) فانهم اتبعوهم الى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجعوا عنهم ، وجاؤا عائدين الى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان [2] والخربندية[3]

---

(١) طستدار : لقب فارسى مركب من لفظين ، أحدهما طست: وهو اناء يغسل فيه ، والثانى دار : ومعناه ممسك (صبح الأعشى ، ج ٥/ص ٤٦٩) والمقصود هنا ، الخادم الذى يقوم على غسل يدى السلطان .

(٢) الغلمان : مفرده غلام . وقد أطلق هذا اللفظ على من يقوم بخدمة الخيل . (السلوك ، ج ١/ص ٤٤٠/حاشية ٣) .

(٣) الخربندية : مفردة خربنده . وهو لفظ فارسى معناه : مكارى . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

والساسة منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، فان السوق كان عظيما ولهم سلاح .

« وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية ، فانهم لم يمسوا منها شيئا أصلا ، سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر ، رأوا ميسرة الاسلام ثابتة ، فعلموا أن الكسرة لا تتم ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

« وأما السلطان ، فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو ، فلما رأوا الفرنج نازلين من التل ، أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر الى أن ولوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم ، فصاح فى الناس (أى فى الجند) فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم فى عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنهم انما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا فى الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتجمعت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ، ونصر الايمان، وظل الناس فى قتل وطرح وضرب وجرح ، الى أن وصل المنهزمون السالمون الى معسكرهم ، فهجم عليهم فى الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا قد أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس (أى الجند) والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون فى القتلى ودمائهم الى خيامهم فرحين مسرورين .

« وعاد السلطان فى ذلك اليوم الى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا فى خيمته يتداركون من فقد من الغلمان ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين، استشهد : ظهير الدين أخو الفقيه عيسى . ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول : هذا يوم الهناء لا يوم العزاء ، وكان هو قد وقع عن فرسه وركبه ، فرأيته وقد قتل عليه جماعة من أقاربه ؛ وقتل فى ذلك اليوم الأمير مجلى . هذا الذى قتل من المسلمين .

« وأما من العدو المخذول ، فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم الى شاطىء النهر ليلقوا فيه ، فحزرتهم يزيدون عن سبعة آلاف ... »[1] . هذا أهم ما ذكره ابن شداد عن أولى المعارك الكبرى التى دارت بين المسلمين والصليبيين ، وكان لمظفر الدين نصيبه فيها .

أما المعركة الأخرى التى اشترك فيها زين الدين ، أخو مظفر الدين ، فقد كانت فى سنة ٥٨٦ ، وقبل وفاته بقليل . ونترك المؤرخ ابن الأثير يصفها بقلمه وأسلوبه ، حيث يقول تحت عنوان :

(ذكر احراق الابراج ووقعة الأسطول)

« كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا ، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا ، طول كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد جمع أخشابها من الجزائر ، فان

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٩٢ وما بعدها ؛ مفرج الكروب، ج ٢/ص ٢٩٢ وما بعدها .

مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر ، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية (أى المواد الكيميائية) التى تمنع النار من احراقها ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها فى العشرين من ربيع الأول ، فأشرفت على السور ، وقاتل من بها من عليه ، فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها ، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا ، فأرسل أهله الى صلاح الدين انسانا سبح فى البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق ، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم ، فركب هو وعساكره ، وتقدموا الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما ليشغلهم عن مكاثرة البلد ، فافترق الفرنج فرقتين ، فرقة تقاتل صلاح الدين ، وفرقة تقاتل أهل عكا ، الا أن الأمر قد خف عمّن بالبلد ، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر ، وسئم الفريقان القتال ، وملوّا منه لملازمته ليلا ونهارا ، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج ، فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئا ، وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها ، فأيقنوا بالبوار والهلاك ، فأتاهم الله بنصر من عنده ، وأذن فى احراق الأبراج .

« وكان سبب ذلك ، أن انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، وهو يقول : هذه حالة لم أباشرها بنفسى ، وانما أشتهى معرفتها . وكان بعكا لأمر يريده الله،

فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا ، شرع فى عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها ، حضر عند الأمير قراقوش — وهو المتولى الأمور بعكا والحاكم فيها — وقال له أن يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ؛ وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله ، فازداد غيظا بقوله وحرد عليه ، وقال له : قد بالغ أهل هـذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا . فقال له من حضر : لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله : فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره ، فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار ، فكان الفرنج اذا رأوا القدر لا يحرق شيئا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى اذا علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ، ألقى قدرا مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج ، وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج ، وأعجزت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه ؛ وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير ؛ وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة .

« فلما احترق البرج الأول ، انتقل الى الثانى — وقد هرب من فيه لخوفهم — فأحرقه ، وكذلك الثالث ؛ وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد أسفرت

وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل ، لأنهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد اما نسيب واما صديق .

« وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين ، فبذل له الأموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد ، وقال : انما عملته لله تعالى ، ولا أريد الجزاء الا منه .

« وسيّرت الكتب الى البلاد بالبشائر ، وأرسل يطلب العساكر الشرقية ، فأول من أتاه عماد الدين مودود بن زنكى — وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة — ، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، سيّره أبوه مقدما على عسكره ، وهو صاحب الموصل ؛ ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل ؛ وكان كل منهم اذا وصل ، يتقدم الى الفرنج بعسكره وينضم اليهم غيرهم ويقاتلونهم ، ثم ينزلون»[1].

أما موقعة الأسطول ، فاننا نغفل أمرها هنا ، فانها موقعة أخرى ، لم يشترك مظفر الدين أو زين الدين فيها .

وفى شهر شعبان أى فى الشهر الرابع من وصول زين الدين يوسف الى عكا ، مرض زين الدين ومات كما سبق أن ذكرنا ، فآلت اربل بعده الى أخيه مظفر الدين بتقليد من صلاح الدين .

وبولاية مظفر الدين على اربل ، توقف نشاطه فى الميدان الصليبى وقتا ما ، فانه بعد أن توفى زين الدين ، ترك مظفر الدين عكا وسار الى اربل ليتسلمها ، وكان مسيره اليها فى شهر ذى الحجة من السنة (سنة ٥٨٦) ؛ فظل مظفر الدين فى اربل

(١) الكامل ، ج ٩/ص ٢٠٥ .

يدبر أمورها ويقرر قواعدها ، ويرعى مصالح الناس فيها ، حتى جدّ في الميدان الصليبي ما اضطر صلاح الدين الى استدعائه بجنده ليعاود الاشتراك في معركة عكا من جديد ، اذ قذفت أوربا بحملتها الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا لاستعادة بيت المقدس الذى استرده صلاح الدين من الصليبيين في سنة ٥٨٣ ، فتكاثرت القوى على صلاح الدين ، فقد اجتمع عليه ريتشارد بحملته وكذلك الصليبيون المقيمون بالشام ، ومعركة عكا لم تنته بعد ، فأخذ صلاح الدين يستنجد بالملوك والأمراء المسلمين الذين لم يشتركوا معه في حروبه ، ويرسل لهم الرسائل يعرض لهم فيها حرج موقفه وضغط الصليبيين عليه ، ويحثهم على الاسراع بالحضور اليه ليعاونوه على دفع الخطر الصليبي الجديد عن عكا ، وكان مما كتبه صلاح الدين الى مظفر الدين في سنة ٥٨٧ ، الكتاب التالي يشرح له فيه ما هو عليه من الضيق ، وما عليه الصليبيون من القوة وشدة البأس ، حتى دب الخوف في قلوب كثير من مقاتلة عكا فآثروا الفرار ، الأمر الذى زاد من خوف من بقى في المدينة فعرضوا الصلح على الصليبيين ، فاشتط الصليبيون في الشروط ، فتراجع المسلمون عن التسليم ، وصمدوا للدفاع والمقاومة . كتب صلاح الدين الى مظفر الدين يقول:

« قد سبقت مكاتبتنا اليه[1] بشرح الأحوال وما نحن عليه من

---

(١) الخطاب موجه الى مظفر الدين . ولم يذكر المرجع الذى تنقل عنه هذا الكتاب ولا غيره من المراجع ، الكتاب السابق الذى أرسله صلاح الدين الى مظفر الدين .

رجاء النصر الذى هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ونازلوا الثغر واحتلوا ، والآن فان منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب ، وكثرت ثلم السور فى مواضع النقب ، وعظم الخطب واشتدت الحرب ، وأشفى البلد وأشرف ، واشتفى العدو بما فيه وأسرف ، ولما لجّ العدو فى الزحف ، واستسهل فى التطرق الى البلد طريق الحتف ، ركبنا فى العسكر اليه ، وهجمنا عليه ، لكن بسوره وخندقه محتم ، والى مطمعه البعيد من أمره مرتم ؛ ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر ، وأنهم قد أشفوا على الغرر ، فر من جماعة الأمراء من قلّ بالله وثوقه ، وأعمى قلبه فجوره وقسوته ، ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم ، وباؤا بوبال غدرهم ، وما قوّى طمع العدو فى البلد الا هربهم ، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم ، والمقيمون من أصحابنا الكرام ، استحلوا من الحمام ، وأجمعوا أنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم ، وأنهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ، ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا ، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب ، والله تعالى يسهل ما هم فيه من الكروب . ونحن — وان كنا للقوم مضايقين ، وبهم محدقين ، وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين — فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون أنهم ان خرجوا الينا فى تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ،

ولله قدر لا يرد ، وقضاء لا يصد ، وسر لا يشارك فى علمه ، وأمر لا يغالب فى حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونُجح التأميل ، وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل ، وما توفيقنا الا بالله ، عليه توكلنا وهو نعم الوكيل »[1] .

وكان من المفروض أن يسرع مظفر الدين الى صلاح الدين ليواصل معه عمليات الدفاع عن عكا ، ولكن — لأمر ما — ظل فى اربل ، ولعله كان هناك ما اضطره الى البقاء فى امارته ، كأن يكون مشغولا بتأمين حدود امارته ، أو أن يكون هناك بعض المشاكل قد اعترضته ، ولذلك نرى صلاح الدين يرسل له كتابا آخر يستعجله فيه الحضور اليه ، فقد سقطت عكا فى يد العدو بعد الكفاح الطويل والدفاع المستميت ضد هجمات العدو الهائلة ، فقد كان سقوطها بفعل خيانة بعض النقابين الذين مع حامية المدينة ؛ كتب صلاح الدين الى مظفر الدين :

« قد عُلم ما دهم المسلمين من العدو الكافر ، والطاغية الحاشد الحاشر ، وأنه ورد فى البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر ، وما قصده الا بيضة الاسلام وحوزته ، وأن الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه وعزته ، ولا شك أنه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبّنا عنها فى هاتين السنتين ، والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين الحصارين ، وأنهم كلما دبروا أمرا دمرناه ، وكلما حققوا كيدا أبطلناه ، وكلما قدموا منجنيقا أخرناه وعطلناه ، وكلما ركبّوا برجا أحرقناه ، وكلما كثّفوا حجابا خرقناه ، وكلما أوقدوا

---

(١) الفتح القسى ، ص ٢٧٩ .

نارا للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم مكر ، ولا لكيدهم مجال ، ولم يتسق فى هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم فى عـــدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل ، من فارس وراجل ، ولا نشك فى استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى ، وحسبنا أنهم بائدون ، فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم فى نهج القتال سالكون ، وهم حطب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب ، وكم بذلوا أرواحهم على حب المقبرة ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم أنهم يأتون بما فوق المقدرة . ولما دخلت هذه السنة ، أشفقنا على من فى عكا من الأصحاب والأجناد ، وقلنا هؤلاء قد بذلوا فى الجهاد ما كان فى وسعهم من الاجتهاد ، ورأينا أن نجدد للبلد البدل ، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل ، من كل ذمر مشيح[1] وكمى بطل ، فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن أيضا من دخل بذلك الجد وبتلك الشدة ، فان البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه ، ووصل العدو وعجل مراكبه ، فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية ، واتكل على الله الذى عصمته من كل واقعة وقاية ، وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام ، فى جد واعتزام ، وجد واهتمام ، وجمع لهام[2] ، ونار تعجلها العدو من جهنمة[3] وضرام ، وغرام بالواقعة وعرام ، واحتداد للحـــادثة

(١) ذمرمشيح : الذمر ، اللوم والحض معا. (لسان العرب).
(٢) اللهام : الجيش الكثير وكأنه يلتهم كل شيء . (لسان العرب) .
(٣) جهنمة : الجهنام ، القعر البعيد . (لسان العرب) .

واحتدام ، ورأس واقدام ، وناس وأقوام ، وحشد ملأت بها سفنها ، وأخلت منها مدنها ، ووصل ملكا افرنسيس (فرنسا) وانكتير (انجلترا) وقد أحكما التدبير ، وأجلبا بخيلهما ورجلهما ، وأناخا بكلكلهما ، وبركا بثقلهما ، وزحفا بجهدهما وجهلهما ، ووافوا بكل برج وثيق ، وكل منجنيق كنيق[1] . وكل آلة هائلة ، ودبابة للبلايا حاملة ، ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد ، وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد ، وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالصم ، والسور بالنقب والثلم ، وخرج من نقابى البلد من ارتد عن الدين ، وأعان نقابى الملاعين ، حتى وقعت أبدان السور وأبراجه ، وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه ، وأصحابنا مع ذلك ثابتون ، ناكبون كابتون ، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم ، وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رءوسهم ، وكشفوا وجوههم لقبل السهام ، وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام ، ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وسخاءهم ، كلما انتظموا مع العدو انتثر ، وكلما نهضوا لتلقيه عثر ، وكلما طلع اليهم ردوه بضربهم ، وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقحون ، ويكافحون ويلافحون ، وكل قد وقف فى موقف الكرام وسل نصله ، وأثبت فى مستنقع الموت رجله ، وودع للجنة فى لقاء أهل النار أهله ، فخانهم بعض الأمراء الجبناء ، وأخذ للحياة بترك

---

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل ، والجمع ، نياق ٠(لسان العرب) ٠

الحياء ، وفرّ من البلاء الى البلاء ، وحسب النجاة فى النجاء ، وهرب فى بركوس[1] قد أعده لذلك اليوم ، وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واستصحب أمثاله واستتبع ، وأبعد فى فراره وأبدع ، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأطمع أفاعى الكفر فى نهش الرقين ؛ على أن الأصحاب ، ما آذنوا بالأصحاب ، ولم يقابلوا الضراب بالاضراب ، وما زالوا يواصلون بالقواطع ، ولا يرتاعون للروائع ، ولا يريمون مقام المقامع ، ويطالبون من الأرواح بالودائع ، حتى انتقل القتال من السور الى الدور ، ومن القوارع الى الشوارع ، ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة ، وأمن أخوف وأخطر من كريهة وقطيعة فظيعة ، كل منّة لها غير مستطيعة ، ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة ، لم تكن عكاء بالممكنة للعدو ولا المذعنة ، وان ذهبت المدينة فالدين لم يذهب ، وان عطبت فالاسلام لم يعطب ، وان ملكت واحتلت فما اختل الملك ، وان سلكت ووهنت فما وهى السلك ، وانما نبه الله بها العزائم الراقدة ، وأجرى مياه الهمم الراكدة ، وبعث الحميات الناعسة ، وحرك النخوات المتنافسة ، وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره ، سيظهر عزنا بنصرته وظفره ، ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم ، آخذون بمخانقهم ، نوسعهم بالردى فى مضايقهم ، ونجذبهم فى كل يوم الى مصارعهم ،

---

(١) البركوس : مركب صغير يستعمل فى الاغارة على السفن الكبيرة فى البحر . (سيرة صلاح الدين ، ص ١٤٠/١٤١/١٤٤).

ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم [1] ، فما خرج منهم من دخـل ، وما انقطـع الا من وصـل ، وما أصـحر الا من ندبه عريسه وعرسه ، وما برز الا من واراه من بطـون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم ، ولا يرومون أن يهجروا مجثمهم ، وما أنسوا بمرابض المضارب الا لنفرتهم من مضارب القواضب [2] ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصـاف ، وآونة بالنهوض الى بعض الأطراف ، وفى كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل ، وبوارهم المؤمل ، فانا نعترضهم أين واجهوا ، ونواجههم أين اعترضوا ، ونعثرهم أين نهضوا ، ونثيرهم للموت أين ربضوا ، وربما غرتهم عكاء فطمحوا وطمعوا ، واتفقوا على المصاف واجتمعوا ، ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش ، وتعوضوا مصارع أمثالهم والثرى لهم وثير الفراش ، فان برز العدو فالمنون له بارزة ، والعزائم له مناجزة ، والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة ، والمجلس [3] أولى من ينتخى ويحتمى ، والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمى وينتمى ، ويصل بجمعه اللهام الملتهم ، وبجمره الملتهب المضطرم ، وبمجره

---

(1) المشارع : المواضع التى ينحدر الماء منها . والمشرعة ، مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . (لسان العرب) .

(2) القواضب : القضيب من السـيف ، اللطيف الدقيق . (لسان العرب)

(3) المجلس : لفظ يقصد به تعظيم المخاطب ، وهو هنا يعنى مظفر الدين (انظر عن معنى اللفظ وأصله وتطور استعماله ، صبح الأعشى ، جـ ٥/ص ٤٩٦)

المحتد المحتدم ، وبفيلقه الفالق ، ترائك العدا السافك السابك، فى نار الوغى سبائك الظبا ، الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى ، وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه ، ويستدعى من اذا ناداه أجابه وجاءه »[1] .

ومرة أخرى يتقاعس مظفر الدين عن تلبية نداء صلاح الدين، فأرسل اليه رسالة ثالثة يحثه فيها على سرعة الحضور اليه ، فانه بعد أن سقطت عكا فى أيدى الصليبيين استفحل خطرهم ، فقد بعث سقوطها فى أيديهم الحماس لاسترداد جميع البلاد التى كانت لهم وأخذها منهم ، بل انهم تطلعوا الى أكثر من هذا ، انهم على عزم الاستيلاء على ما لم يكن لهم من البلاد . قال صلاح الدين لمظفر الدين فى رسالته له :

« ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة ، فرحل على صوب حيفا واقعا فى حيفه ، باحثا عن حتفه بظلفه ، زاعما أنه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه فى قصده وزعمه ، وهو حاصل منا على صدره ورغمه ؛ وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير (انجلترا) قائدهم الى البوار ، ووافد أهل النار الى النار ، ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار ، وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم ، وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم ، ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية [2] كل نكاية فيهم شديدة ، وكل روعة لهم مبيدة ، فانهم قطعوا ساقة العدو عن

---

(١) الفتح القسى ، ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .
(٢) اليزك : لفظ فارسى معناه : الطلائع .

اللحاق بمقدمته ، وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته ، وقتلوا خيلا وخيالة ، وفوارس ورجالة ، وقدروا وتمكنوا ، وجرحوا فأثخنوا ، ونهبوا وسلبوا ، وأخذوا رءوسا قطعوها ، ووقدوا نفوسا قلعوها ، وغنموا أقمشة وأسلحة ، وحصلوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة ، ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف ، وتحكم فى فلهم السيف ، فأقاموا الى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم ، واراحة طليحهم [1] ، واثارة ماركد من ريحهم ، وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم ، عازمين على تبديدهم وتفريقهم ، وتشتيتهم أيدى سبا وتمزيقهم ، فقد تمكنت بتأييد الله الأيدى من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة ، ولأعدائنا من عبطه ، الا ونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى فى نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته ، وتروض مواحل الآمال مع أوان الديمة[2] الربيعية ديمته ، ويغلو فى سوق رواجه من الدين ما ظن أنه رخصت قيمته ، وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثأر الاسلام وقد سبيت من عكاء كريمته ، واذا تأمل عرف أن الخطب عظيم ، وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد المقيم ، وسيقتضى دين هذا الدين الفريم [3] الزعيم » [4] .

---

(١) الطليح : الطلح ، الاعياء والسقوط (لسان العرب) .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . ويقال ، انه المطر الدائم . (لسان العرب) .

(٣) الفريم : المفرم من الحياض ، المملوء بالماء . (لسان العرب).

(٤) الفتح القسى : ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

وهنا لم يجد مظفر الدين بدا من أن يترك ولايته ، ويغـذ السير مجدا بجيشه الى صلاح الدين ، فان الموقف أصبح من الخطر بمكان ، وان بلاد الشام يكاد أن يلتهمها الصليبيون من جديد ، فقد انتابتهم حمى من الحماس بحيث أصبحوا يهددون الشام كله ، فالواجب يقتضيه اذن ، أن يهمل كل شيء الا أمر الجهاد ، فجمع جيشه وأعده للقتال ، ثم خرج به من اربل الى صلاح الدين وانضم اليه ، واشترك معه فى جميع المعارك التى خاضها مع العدو ، حتى تم الصلح بين صلاح الدين وريتشارد ملك انجلترا فى شهر شعبان سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) . واذا كانت أخبار المعارك لا تشير صراحة الى اسم مظفر الدين ، الا أنه من المؤكد أنه اشترك فيها ، بدليل قول ابن شداد ، انه بعد أن تم الصلح ، سمح صلاح الدين للجيوش المساعدة له بالعودة الى بلادها ، فكان أول من عاد الى بلاده من الجيوش جيش اربل ، فانه عاد فى مستهل شهر رمضان من السنة [١] .

وكانت عودة مظفر الدين الى بلاده آخر عهده بالحروب الصليبية ، فان صلاح الدين قد مات فى شهر صفر سنة ٥٨٩ ، فخلفه أولاده واخوته وأبناء أسرته ، فكانوا أقل حماسـة من صلاح الدين فى جهاد الصليبيين ، فقد جرفتهم المنازعات الأسرية من أجل الملك والزعامة ، فلم يجد مظفر الدين مجالا للجهاد ، ومن ناحية آخرى ، دخل مظفر الدين فى مشاكل مع الموصـل ومع الأيوبيين ، وهى المشاكل التى عرضنا تفاصيلها فى الفصل السابق.

---

(١) سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٩ .

الفصل السابع

مآثر مُظَفَّر الدين

ذكرنا فيما سبق ، أن العالم الاسلامى فقد وحدته السياسية والادارية منذ العصر العباسى الثانى أى منذ أوائل القرن الثالث ، فأصبح عبارة عن وحدات اقليمية كبيرة لكل اقليم حكومته وسياسته وادارته . وذكرنا أيضا أن هذه الوحدات الاقليمية تفككت بدورها الى دويلات مدينية منذ وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى فى أواخر القرن الخامس ، وان دل هذا التفكك على شىء فانما يدل على اضطراب سياسى كبير ، وهذا الاضطراب السياسى هو الذى يميز تاريخنا العربى ، وبالتالى هو وحده الذى يحظى باهتمام المهتمين بالدراسات الاسلامية العربية ، باعتباره شرا مستطيرا أصاب العالم الاسلامى حتى أودى به ، مهملين الى حد كبير دراسة الجوانب الأخرى من تاريخنا ، كالجوانب الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، كأن ليس فى تاريخنا على طوله ، الا الجانب السياسى وحده .

ذلك أنه بالرغم من هذا التجزىء السياسى ، وفوضى الحروب التى كان يثيرها الحكام فيما بينهم من أجل الغلبة وتوسيع رقعة

وحداتهم على حساب بعضهم البعض ، نجد هؤلاء الحكام أنفسهم يهتمون اهتماما يبلغ حد الروعة بمجتمعاتهم ، ويقدمون أجل الخدمات لشعوبهم ، هذه الخدمات التى تتمثل فى الانشاء والتعمير ، واقامة المدارس ، وبناء المستشفيات والملاجىء ، ونشر العلم وتشجيع العلماء ، والاهتمام بالزراعة والتجارة والصناعة ، كل حاكم يقدم خدماته لشعبه بحسب فهمه لمهمته كحاكم ، وبحسب امكانيات دويلته ، وهذه حقيقة يسجلها الواقع التاريخى ، ولكن هذه الحقيقة ضائعة فى كتب القدماء بين خضم الأحداث السياسية والحربية التى اهتموا بتسجيلها أكثر مما اهتموا بغيرها ؛ ومع ذلك ، فانه من الممكن بشىء من الجهد ، استخلاص مادة طيبة عن الجوانب الأخرى من تاريخنا من بين أخبار السياسة والحروب .

ومظفر الدين كوكبورى ، صاحب هذه السيرة ، واحد من هؤلاء الحكام الذين انغمسوا الى حد كبير — كما رأينا فى الفصل السابق — فى السياسة والحروب ، ومع ذلك لم يهمل الشعب الذى كان يحكمه ، وانما تعرف على احتياجات الشعب فقدمها له ، ولم يهمل احتياجات مجتمعه ، فاهتم بالانشاء والتعمير ، كما اهتم بنشر العلم ، كذلك اهتم بالناحية الصحية ، فأنشأ مستشفى — أو كما كانت تسمى فى ذلك العصر بيمارستانا — جعلها دورا وملاجىء للمرضى والأيتام واللقطاء والأرامل ورصد لهم الأموال الضخمة ، ومد يد المعونة لكل فقير ومحتاج ، بل تعدى بره الى المسلمين عامة ، فبنى دارا للضيافة فى اربل ، وفتح أبوابها لكل وافد الى مدينته أو عابر سبيل ، يقيم فيها ما شاء له

أن يقيم يتناول فيها طعامه وشرابه بلا مقابل ، حتى كان عصره أبهى عصور مدينة أربل وأزهاها .

ولم يكن مظفر الدين وحده من بين الحكام الصغار الذى قام بهذه المآثر ، وانما كان هناك غيره كثيرون ، يستحق كل منهم أن يؤلف له كتابا منفردا فى هذه الناحية ، ونحن نذكر هنا — على سبيل المثال — قرينا لمظفر الدين قدم من الخدمات الاجتماعية لشعبه يقرب مما قدمه مظفر الدين ، هو بدر بن حسنويه الكردى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) ، وكان حاكما على اقليم الجبل ، فقد رصد هذا الرجل الأموال الطائلة ووضعها لخدمة شعبه والتفريج عن ذوى الحاجة منهم . من ذلك أنه كان يوزع فى كل أسبوع ، عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل .

وعشرين ألف درهم كل شهر لتكفين الموتى من الفقراء .

وثلاثة آلاف دينار فى كل سنة ، يدفعها الى الحدادين والحذائين لاصلاح أحذية من يفدون على بلاده واصلاح نعال دوابهم بلا مقابل .

وكان يرسل كل سنة مائة ألف دينار الى فقراء الحرمين الشريفين : مكة والمدينة .

وعمّر من المساجد والخانات ما ينيف على ألف مسجد وخان.

وكان اذا مرّ فى طريقه وأسفاره بمكان فيه عين ماء أقام عنده قرية .

هذا فضلا عما كان يصرفه ويرتبه من الجرايات والنفقات

والصدقات والبر والصلات على مختلف طبقاتهم ومشاربهم [1] .

فمن سير الحكام ، سواء كانوا خلفاء ، أو سلاطين ، أو ملوكا ، أو أمراء ، يستطيع الباحث أن يستخرج منها مادة طيبة لجميع الجوانب الانسانية والعمرانية والعلمية وغيرها من الجوانب وابرازها ، فتخفف الى حد كبير ، الظلام الدامس الذى يرين على تاريخنا السياسى .

وقد تضافرت عدة عوامل على تكوين مظفر الدين تكوينا طيبا كحاكم مستنير عرف احتياجات بلده وشعبه فنفذها ، وأهم هذه العوامل ، ثلاثة :

أولا : ثقافته الدينية .

ثانيا : سيرة والده .

ثالثا : ما شاهده بنفسه من مظاهر الحضارة فى الموصل وحلب ودمشق .

وفيما يختص بالعامل الأول ، وهو ثقافته الدينية ، فان مظفر الدين — كما سبق أن ذكرنا أثناء حديثنا عن نشأته — نال قسطا من التعليم الأولى تحت اشراف مجاهد الدين قايماز ، وأنه استمر فى التحصيل بعد أن أصبح أميرا على اربل بعد وفاة والده ، كذلك استمر فى التحصيل بعد عزله من الامارة واستقراره فى حران ، وقد استنتجنا مواصلة تحصيله للعلم مما عرف عنه بعد عودته الى الامارة على اربل من اهتمامه بمجالسة العلماء والفقهاء والمحدثين ، وبما ذكره عنه ابن خلكان من أنه « كان يميل الى

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١١/ص ٣٥٣ .

علم التاريخ وأن على خاطره شيء منه »[1] . ومعنى هذا أن مظفر الدين نشأ نشأة دينية فى اطارها العام ، وهـذه النشأة جعلت مظفر الدين يفهم حقيقة مهمته كحاكم ، وفهم أن الحاكم ليس مجرد رجل متسلط يخضع الناس لحكمه ثم يستغلهم لمصالحه الخاصة ومنافعه الذاتية ، وانما يجب أن يكون الحاكم كما أمر الله ورسوله أن يكون ، أن يكون خادما أمينا لمن يحكمهم ، يرعى شئونهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، وييسر لهم سبل المعيشة الحرة الكريمة ، وقد تأثر مظفر الدين فى هذا المفهوم الواضح بالقرآن الكريم والحديث الشريف اللذين يحضان الحاكم على الرفق بالرعية ورعاية مصالحهم ، واجراء العدل بينهم .

وأما فيما يختص بالعامل الثانى ، وهو سيرة والده ، فان مظفر الدين لاشك قد تأثر بالسيرة الطيبة التى تركها والده . فقد عرفنا من حديثنا عن والد مظفر الدين أنه فضلا عن أنه كان رجل حرب وقتال ، كان أيضا رجل سياسة وادارة ، وأن سيرته بين الناس — وبخاصة فى الموصل — كانت طيبة عطـرة . كذلك ذكرنا خدماته التى قدمها لشعب الموصل ، كاعتنائه بالزراعة باقامته الجسور والقناطر على الأنهار ومجارى الماء ، ومساهمته فى نشر العلم بانشائه عدة مدارس وجوامع وربط وخانقاهات[2] . فليس

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣/ص ٢٧٥ .

(٢) خانقاهات : جمع خانقاه ، وهو لفظ فارسى معناه : البيت. ثم خصص اللفظ للمكان الذى يقيم فيه الصوفيه للعبادة . (السلوك، ج ١/ص ١٨٢/حاشية ٤ — تحقيق الدكتور زيادة) .

من شك فى أن مظفر الدين كان يتردد على الموصل باستمرار حين كان مقيما فى حران ، فشاهد بنفسه آثار والده فأعجب بها ، وليس من شك أيضا فى أنه كان يسمع أهل الموصل وهم يتحدثون عن أبيه بالاطراء والحمد لحسن سيرته فيهم . وما من شك كذلك، فى أنه اجتمع بالعلماء والفقهاء الذين كانت لهم صلة بوالده ، وعرف منهم ما كان يقدمه لهم من تكريم وتقدير أدبى ومادى، أقول ليس من شك فى أن سيرة أبيه كما عرفها مظفر الدين ، كان لها الأثر الكبير فى اعداده للحكم الصالح .

وأما العامل الثالث ، وهو ما شاهده من مظاهر الحضارة فى الموصل والشام ، فالأمر المقطوع به أن مظفر الدين كان يتنقل بين الموصل وعواصم الشام وحلب ودمشق . وقد قلنا فيما سبق أن مظفر الدين تأثر بما خلفه والده من آثار وبما سمعه من سيرته الطيبة فى الموصل ، واذا كان مظفر الدين قد انعكست عليه أعمال والده وسيرته ، فقد انعكست عليه أيضا مظاهر الحضارة الشاملة فى الموصل نتيجة تضافر ملوكها وأثريائها وكبار موظفيها فى الخدمات التى أدوها للمدينة ولأهلها ، كذلك شاهد دور العلم من مدارس ومساجد يتحلق فيها الأساتذة والمدرسون من فقهاء ومحدثين ولغويين يلقون دروسهم على طلبة العلم . وليس من شك أيضا فى أن مظفر الدين كان يرتاد المجالس العلمية والأدبية التى كانت تعقد فى قصور ودور المثقفين من علماء وفقهاء ومحدثين وأدباء ، فيحضر مساجلاتهم ومناظراتهم ، فمن المعقول اذن ، القول

بأن مظفر الدين تأثر بما رآه بنفسه فى الموصل ، فوجهه هذا التأثير الوجهة الصالحة .

وما يقال عن أثر الموصل فى مظفر الدين يقال أيضا عن أثر حلب ودمشق فيه . فقد كانت حلب ودمشق يحكمهما الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى حتى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) . وكان نور الدين رجل حرب وقتال وفى نفس الوقت كان حاكما سياسيا مستنيرا ، وكان أيضا ذا ثقافة دينية عميقة ، فكان يجالس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان يهتم بالحديث بصفة خاصة حتى أنه بنى أول دار للحديث فى دمشق ويقال انها أول دار حديث بنيت فى الاسلام . وكان نور الدين مهتما أيضا بنشر العلم بين أفراد شعبه حتى أنه اهتم بالأطفال الأيتام فأنشأ لهم المكاتب ليتلقوا فيما علومهم الأولى ، كما أنشأ المدارس لطلاب العلم فى كل من دمشق وحلب ، كذلك اهتم نور الدين بالجوانب الأخرى ، كالزراعة ، والتجارة وغيرها ، بالاضافة الى ما كان يبر به فقراء شعبه فكان لا يضن عليهم بالمال . فكان مظفر الدين حين يتنقل بين العاصمتين حلب ودمشق — بعد أن التحق بخدمة صلاح الدين — يرى آثار نور الدين الانشائية ويسمع من الناس ما كان عليه من حسن السيرة وعدالة الحكم فتهزه هزا وتحرك عواطفه وتلقنه الدروس النافعة فى حالة ما اذا عاد حاكما على بلاده.

ثم عاصر مظفر الدين ، صلاح الدين الأيوبى وعمل معه واتصل به عن قرب ، ولمس بنفسه عدالة حكمه ، وحسن معاملته

للناس ، وبره بالفقراء ورعايته لهم ، وتشجيعه العلماء وتقريبهم اليـــه .

بكل هذا تأثر مظفر الدين عقلا وروحا ، فخلقت منه هذه المؤثرات حاكما مستنيرا مصلحا ، يعرف احتياجات شعبه بعد أن عاد الى امارته ، فلم يضن عليهم بها ؛ وها نحن بسبيل تبيان مآثر مظفر الدين التى يتحدث عنها التاريخ الاجتماعى العربى لمدينة اربل .

وقبل أن نتحدث عن الخدمات التى أداها مظفر الدين لمدينته اربل وسكانها فى الانشاء والتعمير ، نذكر نبذة عن جغرافية اربل وتاريخها القديم .

فمدينة اربل قديمة قدم التاريخ ، واسمها القديم يرد فى دائرة المعارف البريطانية « أربلا » bela ، وانها اتخذت هذا الاسم عن معركة حدثت سنة ٣٣١ قبل الميلاد بين الاســـــكندر الأكبر وداريوس كودومانوس (١) .

وأما فى دائرة المعارف الاسلامية ، فان اسمها القديم — كما هو مذكور فى النقوش البابلية الأشورية المكتوبة بالخط المسمارى — هو « أربيلو » ؛ أما اسمها فى النقوش الفارسية القـــديمة المكتوبة بالخط المسمارى أيضا ، فهو « أربيرا » ؛ وتتفق الدائرة مع دائرة المعارف البريطانية ، فى أن اسمها « أربلا » منذ أن حدثت وقعة الاسكندر الأكبر (٢) .

---

(١) Encyclopaedie Briiannica. Vol ، II, p. 223.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

أما فى العصر الاسلامى ، فهى معروفة باسم « اربل » ، وقد وردت عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين بهذا الاسم والنطق . فقد جاء اسم المدينة فى معجم البلدان لياقوت ، مشكولا هكذا : إِرْبِلْ، ثم يضبط الاسم بالحروف فيقول : بالكسر ، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة ، ولام .

وقد جرت عادة المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى الحرص على ارجاع تسمية الأماكن والأشياء الى أصول وأسباب ، لذلك نرى ياقوتا يعرض رأى كل من الجغرافيين الأصمعى والفراء فى سبب تسمية المدينة بهذا الاسم . فأما الأصمعى فانه يقول : اذا كان الاسم عربيا ، فهو مشتق من الربل ، وهو ضرب من الشجر اذا برد الزمان عليه وأدبر الصيف تفطّر بورق أخضر من غير مطر، يقال : تربلت الأرض ، أى لا يزال بهاربل ، وعلى هذا فيجوز أن تكون « اربل » مشتقة من ذلك . وأما الفراء فانه يقول : الريبال، النبات الكثير الملتف الطويل ، فيجوز أن تكون هذه الأرض ، اتفق فيها فى بعض الأعوام من الخصب وسعة النبت ما دعاهم الى تسميتها بذلك ، ثم استمر ، كما فعلوا بأسماء الشهور ، فانهم سموا كل شهر بما اتفق فيه فى فصله من حر أو برد ، فسقط (صقيع) جمادى فى شدة البرد وجمود المياه ، والربيعان فى أيام الصيف ، وصفر حيث صفرت الأرض من الخيرات ، وكان تسميتها لذلك فى أزمنة متباعدة ولم يكن فى عام واحد ، ولو كان فى عام واحد ، كان من المحال أن يجىء جمادى — وهم يريدون به جمود

الماء وشدة البرد — بعد الربيع ، ثم تغيرت الأزمنة ولزمها ذلك الاســم [1] .

أما المؤرخون القدامى ، فقد ذكروها أيضا بهــذا الاســم « اربل » ، ذكرها ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » وابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية فى التاريخ » ، وابن خلدون فى تاريخه وغيرهم . وينطقها أهل العراق اليوم ، « اربيل » .

ويقوم اقليم اربل على هضبة صناعية خصبة شبه مستوية ، بينما تقوم مدينة اربل ذاتها على تل مرتفع واسع فى الهضبة[2] .

وتقع الهضبة بين نهرى الزاب الصغير والكبير ، وهما نهران فى الطريق الممتد من الموصل الى بغداد ، حيث ملتقى الطريقين الآتيين من المرتفعات الايرانية [3] .

وتتوسط اربل كلا من مدينتى الموصل وبغداد ، ولكنها الى الموصل أقرب ، فهى تقع فى الجنوب الشرقى منها ، وبينها وبين الموصل حسب التقدير العربى القديم مسيرة يومين ، أو ما يساوى ٨٠ كيلو مترا من مقاييسنا اليوم ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل [4] .

ويحد مدينة اربل من الشمال جبل الأكراد ، ومن غربيها جبل « دميرداغ » ويبلغ ارتفاعه ١٦٠٠ قدم ، ومن الشرق والشمال

---

(١) معجم البلدان ، مادة اربل .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

الشرقى « درددوان داغ » ، ومن الجنوب « زرجزوان داغ » ، ومن الجنوب الغربى سهل « شمملك » المنخفض الذى يمتد الى نهر الزاب الكبير [1] . فعلى ذلك كان اقليم اربل قديما عبارة عن حوض خصيب تأتيه المياه من الجبال الأربع المحيطة به ، ويستتبع ذلك وجود مياه كثيرة وأشجار وزروع ، وهـذا ما يؤيد قول الفراء ؛ ثم ان هذا الحوض ليس مقفلا بهذه الجبال ، لأنها تنخفض فى بعض الجهات ، فاستخدمت هذه الانخفاضات كممرات الى اربل ، ومن هنا لابد أن تكون المدينة بحكم موقعها وخصبها ملتقى لطرق كثيرة ، وأهمها السهل الذى يجعل المرور بينها وبين الموصل أكثر تيسيرا .

ولهذا كانت مدينة اربل ملتقى لعدة طرق للقوافل ، فهى محطة تجارية هامة ، فطريق القوافل القديم بدأ فى بغداد مارا بكركوك ، ومن « ألتن كوپرو » الى اربل فالموصل ، وهى أقرب الطرق بين بغداد والموصل ، وكان نفس هذا الطريق فيما مضى يربط بابل بمدينة نينوى مارا باربل ، ويتفرع من اربل طريقـان يتجهان نحو الشرق والشمال ، ويخترقان ممرات جبلية وعرة ، وينتهيان الى أذربيجان ، ويمر الأول براوندوز فى الشمال الشرقى ، والآخر بسنجق خوى فى الشرق [2] .

وكانت اربل فى العصر الذى نتحدث فيـه عنها ، أى عصر مظفر الدين أو ما قبله ، كانت من الناحية الزراعية أقل خصبا مما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

كانت فى القديم ، فان الأشجار فيها منعـدمة فهى محرومة من البساتين ، ولذلك تجلب فواكهها من البلاد المجاورة لها ؛ الا أن أرضها صالحة لزراعة الحنطة ، وتنجح فيها زراعة القطن ويغزل فى المدينة ، ولقد امتدح الجغرافى الفارسى حمد الله مستوفى القطن الذى يزرع فيها فى مصنفه الجغرافى « نزهة القلوب » ، وهو — أى الكتاب — باللغة الفارسية ، وتعتمد الزراعة فى الرى على المياه الجوفية ، وذلك لأنه لا يوجد فى اربل نهر يجرى طول العام ، وانما الماء يأتيها عن طريق الأمطار فى الشتاء فقط ، فينساب فى السهل عدة نهيرات تملأ القنوات ، ثم تجف النهيرات بعد ذلك (١) .

* * *

وترجع أهمية اربل فى تاريخها القديم — كما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية — الى أنها كانت فى عصر الأكمينيين (٢) مقر معبد مشهور للاله عشتروت ، وكان هذا المعبد بمثـابة الكعبة الدينية لبلاد أشور ، وبمثابة مدينة « دلفى » بالنسبة لبـلاد اليونان الوثنية ؛ على أنها اشتهرت كذلك آنئذ بأنها كانت ملتقى طرق القوافل ، ولم تنفرد دون مدن أشور المشهورة كلها ببقائها وبقاء اسمها محفوظا على مر العصور الى الآن ، الا بفضل موقعها الممتاز الذى جعلها مركزا لطرق القوافل .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أربل ؛ معجم البلدان ، مادة اربل .

(٢) بدأ حكم الاكمينيين فى سنة ٥٥٣ ق.م. (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٢٩) .

ومدينة اربل ، التى تقع بين نهرى الزاب ، هى منذ القدم قصبة هذا الاقليم الذى يحده من الشـمال والجنوب هـذان النهران . وكان هذا الاقليم يسمى قديما باسم العاصمة ، فكان يقال له « أربليتس » Arbilitis ، أى اقليم اربل ، ثم أطلق عليه فى العصر العربى اسم اقليم الزابين . وأصل هذه التسمية هى « أديابين » Adiabene (بالدال المهملة التى انقلبت الى زاى معجمة) وهو نفس الاقليم الذى سماه الجغرافيون العـرب ، أرض اربل .

وفى النصف الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد ، قامت هناك مملكة صغيرة استطاعت أن تحتفظ باسـتغلالها طيـلة حكم الاشكانيين[1] ، كما أنه حكمها ابان حكم الساسانيين [2] حكام اسـتطاعوا أن يسـتقلوا بحكمهـا فى فترات متفـاوتة ، منهم « قروغ » الذى اتخذ حصن « ملقى » القريب من اربل مقرا له ، والذى مات شهيدا عـام ٣٥٨ م ، ابان حكم سابور الثانى [3] بسبب اعتناقه المسيحية [4] .

* * *

(١) ويعرفون أيضا بالبارثيين ، وقد حكموا من سنة ٢٤٨ ق.م الى سنة ٢١١ م . (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٣٨) .

(٢) امتد حكمهم من سنة ٢١١ م حتى سنة ٦٣٦ م (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٤١) .

(٣) اعتلى عرش فارس فى سنة ٣١٠ م، واستمر حكمه ٦٩ سنة. (ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٤٢) .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

وقد دخلت اربل فى المسيحية منذ العصر المسيحى الأول ، ثم أصبحت مركزا لحركة تنصير اقليم أديابين والأقاليم المجاورة له ، فقد أسست بها أسقفية منذ عصر متقدم ، ولم تشمل هذه الأسقفية أول الأمر الا الاقليم المحصور بين الزابين ، ومن ثم أطلق عليه أهل الشام أسقفية (حِدْيَبْ) أو أسقفية اربل أو « حَزَّة » (وهى قرية قرب الموصل) باعتبار أن هاتين المدينتين هما مقر الأسقفية[1] .

وفى بداية القرن الخامس الميلادى ، صارت اربل بطريركية ترجع اليها أشور الحقيقية بأكملها ، ولم تنفصل عن هذه البطريركية أسقفية نينوى أو أشور الا فى عهد متأخر ، لتصير بدورها أسقفية مستقلة [2] .

* * *

ثم دخلت اربل تحت الحكم الاسلامى منذ أن فتح المسلمون العراق وفارس فى فتوحاتهم الأولى ، وظلت على اسلاميتها وعروبتها الى اليوم .

* * *

وسكان هضبة اقليم اربل كلهم أكراد ، تنتشر قراهم على سطح الهضبة ، وقد استعربوا منذ أن اتخذوا الاسلام دينا واتصلوا بالعرب ، وسكان اربل ذاتها أكثرهم من الأكراد من قبيلتى الهذبانية والحكمية بالذات ، وكانت هاتان القبيلتان

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .

تتنازعان السيادة على المدينة منذ القرن العاشر الميلادى[1](القرن الرابع الهجرى) .

ويمتاز الأكراد بصفة عامة بأنهم رجال حرب وأحلاس قتال ، ظهر منهم أبطال خدموا الاسلام خدمات جلى فى ميادين الحرب وغيرها ، وما تزال سيرة صلاح الدين الأيوبى ، الكردى الأصل ، المستعرب ، يرددها الناس الى يومنا هذا .

وليس من شك فى أن مظفر الدين اصطنع جيشه الذى حارب به الصليبيين من هؤلاء الأكراد .

غير أن الأكراد يتصفون بكثرة الشغب على الحكام ، أو على السلطان كما يقول مسعر بن مهلهل الأديب ، حيث ينقل ياقوت عنه عند تعريفه بمدينة شهر زور ، أن أهلها « عصاة قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان » ، وكان مسعر يسبق ياقوت فى الزمن ، ولذلك يقول ياقوت : « هذا آخر كلام مسعر وليس الآن على ما ذكر وانما نذكر هذا ليعرف تقلب الزمان بأهله وما يصنع الحدثان فى ادارة حوادثه ونقله ، فان هذه البلاد اليوم فى طاعة مظفر الدين كوكبورى بن على صاحب اربل على أحسن طاعة » [2] ..

* * *

ومن آثار اربل الاسلامية القديمة ، مسجد يطلق عليه اسم مسجد « الكف » ، وقد أطلق هذا الاسم لوجود حجر فيه عليه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .
(٢) معجم البلدان : مادة ، شهرزور .

كف انسان ، ويقال ان هذا الكف هو كف الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، ولكن هذا التعليل باطل ، حيث توجد مساجد كثيرة فى العراق وفارس على أحجارها مثل هذا الكف [١] . ومع ذلك ، فان المساجد التى تتبارك بالكف ليست كلها شيعية ، لأن مسجد الكف القريب من بغداد ، كان مسجدا سنيا ، أنشىء لكى يضارع مسجد براثا الشيعى .

* * *

ثم دخلت اربل تحت حكم أسرة بنى بكتكين : زين الدين على — رأس الأسرة — وزين الدين يوسف ، ومظفر الدين كوكبورى ، فماذا حدث للمدينة بعد أن دخلت فى حكمهم ؟

أما أيام زين الدين على ، فليس هناك ما يشير الى أن له أثراً فى الانشاء والتعمير فى المدينة ، ولعل يده لم تمتد بالاصلاح فيها بسبب بعده عنها وقضاء حياته كلها فى مدينة الموصل حيث كان يقوم على خدمة ملوكها كما ذكرنا — ولذلك كان نشاطه الاصلاحى فى مدينة الموصل ذاتها ، وقد ذكرنا ذلك عندما تحدثنا عنه فى الفصل الثانى من الكتاب .

كذلك ليس هناك ما يدل على أن لزين الدين يوسف ، الذى خلف والده على امارة المدينة ، أى أثر فى الانشاء والتعمير فى المدينة .

أما مظفر الدين ، فقد كانت له اليد الطولى فى هذا المضمار ، وقد سجل له المؤرخون ما قام به من تعمير اربل وزيادة العمران

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اربل .

بها حتى نال اعجاب المعاصرين له وغير المعاصرين ، بحيث يقول القائلون بأن اربل وصلت الى أوج عظمتها حوالى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، وأن الانشاءات التى أقامها مظفر الدين على التل الذى تقوم عليه المدينة والقلعة أثارت اعجاب الجوابين ، فقد جعل التل من الفخامة بحيث كان الانسان يراه وهو على بعد ساعات منه ، أما القلعة فكانت لا تقل فخامة وعظمة عن قلعتى حمص وحلب المشهورتين ، وان كانت تفوقهما كثيرا فى الضخامة (١) .

فقد ذكرنا أن المدينة تقع على تل مرتفع فسيح فى الهضبة ، وكان الحكام السابقون لاربل لا يهتمون الا بالجزء الأعلى من التل حيث تقع فيه القلعة والدور والأسواق والجامع ، أى أنه كان هو الجزء المعمور من التل كله ، أما الجزء الأسفل ، وهو سفح التل فقد كان مهملا لا يعيره حكام اربل أى التفات فلما كان مظفر الدين ، اهتم بهذا الجزء الأسفل اهتماما كبيرا ، واعتنى بتعميره اعتناء جميلا ، نتيجة لما اعترى المدينة من نشاط اجتماعى قام به مظفر الدين ، فازداد عدد سكانها بمن وفد اليها من الناس من البلاد المجاورة لها بعد أن أصبحت الحياة طيبة فيها ، لما عرف عن حسن سياسة مظفر الدين وعدالة حكمه وتشجيعه للعلماء ، فأقيمت فى السفح المنازل والأسواق والقيساريات لنزول التجار الغرباء فيها ، حتى أصبح هذا الجزء مركزا لحركة تجارية كبيرة ، ثم أخذت حركة الانشاء والتعمير تمتد وتتسع حتى تخطت الأسوار القديمة للمدينة بمسافات واسعة طولا وعرضا ،

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : آربل .

فغدت المدينة أهم مدينة فى الاقليم ، ومن ثم أخذ كثير من سكان البلاد المجاورة لها يفدون اليها ويقيمون بها [1] .

وقد زار ياقوت صاحب كتاب معجم البلدان ، والمعاصر لمظفر الدين مدينة اربل فوصف ربض قلعتها — وهو الجزء الذى عمره مظفر الدين — بقوله : « وفى ربض هذه القلعة فى عصرنا ، مدينة كبيرة عريضة طويلة ، قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة أسواقها وقيساريتها الأمير مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين كجك علي ، فأقام بها وقامت بمقامه ، وصار له هيبة ، وقاوم الملوك ، ونابذهم بشهامة وكثرة تجربة حتى هابوه ، فانخفظت بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار [2] » .

وأنشأ مظفر الدين فى اربل مسجدا كبيرا ، له منارة رائعة يبلغ ارتفاعها ٥٠٣ أقدام ، أما محيطها فانه يبلغ ٤٨ قدما ، وقد نقش على مآذنها اسم مظفر الدين [3] .

مجتمع مظفر الدين :

عرفنا مما سبق ، أن مظفر الدين نشأ نشأة دينية ، وقلنا أن نشأته الدينية أهلته فى حياته العامة لأن يكون حاكما صالحا .

وقد أثرت نشأته الدينية أيضا فى حياته الخاصة ، فكان بعيدا كل البعد عن مظاهر الامارة والملك التى أظهر مظاهرهما ، الملبس

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .
(٢) معجم البلدان ، مادة : اربل .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : اربل .

الفاخر ، والمطعم الشهى ، والمسكن الفخم ، والمواكب الزاخرة بالكبرياء والعظمة . بل ان معيشته كانت أقرب الى معيشة الزهاد والمتصوفين . فقد كانت أطيب أوقاته ، هى تلك التى يقضيها بين المتصوفين فى حلقات الذكر ، وكان كثيرا ما يشترك معهم فى أذكارهم حتى يأخذه الوجد فيتمايل كما يتمايلون ويهتز كما يهتزون ، منتشيا من انشاد المنشدين وصوت المزامير وضرب الدفوف ، وكان كثيرا ما يهدى المنشد الذى يطرب من صوته وانشاده بعض ملابسه مكافأة له ، يضاف الى ذلك ، اهتمامه الشديد وولعه ولعا كبيرا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، بحيث كان يحتفل بمولده عليه السلام احتفالا بلغت روعته وعظمته مسامع المسلمين المجاورين لاربل القريبين منهم والبعيدين ، فكانوا يفدون الى اربل زرافات ووحدانا لمشاهدة هذا الاحتفال العظيم.

وكان مظفر الدين يحترم العلماء والفقهاء والمحدثين ويكرمهم ويكثر الجلوس معهم ، ويجزل لهم العطاء .

وكان من الطبيعى وحال مظفر الدين على ما وصفنا أن يمنع المنكرات من أن تجد طريقها فى بلاده سرا أو علانية ، فحرم دخول المنكر فى بلاده ، وكان يعاقب من يقترفه .

فاذا كان مظفر الدين على هذا الخلق الطيب والسجايا المستحبة، فليس من شك فى أن شعبه قد تأثر به وسار على خطاه فى الصلاح والتقوى ، فقد قيل : ان الناس على دين ملوكهم ، فاذا كان الملك صالحا صلحت رعيته خاصتها وعامتها ، وبالتالى يصلح المجتمع كله واذا كان فاسدا انكبت رعيته على الفساد مقتفين أثره فيفسد

المجتمع كله ، ولذلك فانه من المستطاع القول بأن مجتمع مظفر الدين كان مجتمعا سليما من الفساد الى حد كبير ، قائما على مبادىء أخلاقية ممتازة وسجايا حميدة .

يضاف الى هذا كله ، حسن سياسة مظفر الدين ، وتجنبه الاثقال على شعبه ، بل تيسيره على الناس معيشتهم وبره بهم ، فكان شعبه يعيش عيشة رغدة ، كل انسان مطمئن على عرضه وماله ودمه .

وكان مظفر الدين اشتراكيا بكل ما فى الاشتراكية من معنى، وقد استفاد مجتمعه من اشتراكيته فائدة كبيرة ، ذلك أنه وضع أموال الدولة وماله الخاص فى خدمة شعبه ولم يضن بها عليه . قال مظفر الدين لبعض خواصه : لما أخذت اربل ، آليت على نفسى أن أقسم مغلها (ايرادها) ثلاثة أقسام : قسم أنفقه فى أبواب البر ، وقسم للجند وما يخصنى ، وقسم أدخره لعدو يقصدنى . وبذلك يكون قد عدل فى هذه القسمة . وقد عدل فى انفاق القسم الأول عدلا تاما ، فكان ينفقه فى أبواب البر حقا كما سنعرف ذلك بعد قليل ؛ وعدل فى القسم الثالث ، فكان ينفقه فى الدفاع عن بلاده اذا طرقها مغير ، وعدل فى الشطر الأول من القسم الثانى ، فكان يعطى الجند حقوقهم أى مرتباتهم كاملة ، ولكنه لم يعدل فى الشطر الثانى من القسم الثانى فانه حاف به على نفسه ، اذ أن الذى كان ينفقه على نفسه منه قليل ، وأما الكثير فانه كان ينفقه على أبواب البر مع القسم الأول ، لأنه وجد أن القسم الذى خصصه لأبواب البر لا يكفى لاسعاد شعبه ، ودليل هذا ما يُروى

عن زوجته ربيعة خاتون ، أنها قالت ، ان مظفر الدين كان يلبس ثوبا يساوى خمسة دراهم من خام ، فقالت له : لو لبست ألين من هذا ، فان بدنك ما يحتمل الخشن . فقال لها : أيهما أصلح وأكثر أجرا ، أن ألبس ثوبا بعشرة دراهم أو ألبس ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بخمسة على فقير أو مسكين[1] ؟ ؛ وما يذكره عنه أيضا معاصره ابن خلكان بأنه « كان له فى فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل فى ذلك ما فعله ، لم يكن فى الدنيا شىء أحب اليه من الصدقة[2] » . ويقول عنه معاصره الآخر سبط ابن الجوزى : « وكان كثير الصدقات ، غزير البر والصلات[3] » . أما معاصره الثالث ، ياقوت الحموى ، فانه يقول عنه « كان مفضل على الفقراء : كثير الصدقات على الغرباء[4] » .

فمن أنواع البر التى كان يضفيها على الفقراء والمحتاجين من أبناء شعبه ، توزيعه الخبز عليهم كل يوم ، يقول معاصره ابن خلكان : « وكان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج فى عدة مواضع من البلد ، يجتمع فى كل موضع خلق كثير ، يفرق عليهم فى أول النهار[5] » .

ومنها أيضا توزيعه الأكسية ، فكان يعطى لكل فقير كسوة شتوية وأخرى صيفية فى كل سنة ، وكان ينتهز فرصة عودته

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص٦٨٢ .
(٢) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٢ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٠ .
(٤) معجم البلدان ، مادة : اربل .
(٥) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٢ .

من غزوة أو من سفرة أو من رحلة صيد ، حيث كان الفقراء يجتمعون حول داره لاستقباله وتهنئته بسلامة العودة ، فكان يكسو كل واحد منهم ومع الكسوة مبلغ من المال حسب حالة الشخص من الفقراء [1] .

وكان مظفر الدين يتخذ من المناسبات الدينية سبلا لبر شعبه وتخفيف ضيق المعيشة على الفقراء والمحتاجين وذوى العسرة ، كما يتخذها سبلا للترفيه عن الناس ، من ذلك احتفاله بالمولد النبوى الشريف ، فقد كان الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام من أهم المناسبات عنده وأحبها الى قلبه ، فقد كان حبه للنبى صلى الله عليه وسلم يملأ عليه نفسه ، ولذلك كان يحتفل بمولده كل سنة احتفالا عظيما ، ينفق فيه الأموال الطائلة حتى تصل الى كل يد ، فكان هذا الاحتفال يعتبر أعظم مواسم مدينة اربل ، حيث يستمتع فيه الشعب بكل أنواع الاستمتاع الدنيوى البرىء من مأكل ومشرب وملبس ، وترويح عن النفس بالاستماع الى الموسيقى والأغانى ، ومشاهدة الصور المتحركة (خيال الظل) الى جانب الاستمتاع الدينى ، حيث تعقد حلقات للاستماع الى سيرة النبى الكريم ، وحلقات القراء يرتلون آى الذكر الحكيم ويجودون ، وكذلك حلقات الوعاظ ، والى جانب هذه وتلك ، حلقات الذكر ، حيث يقوم الذاكرون بطريقتهم الصوفية فى حلقات يذكرون الله بطريقتهم الخاصة ، تحت انشاد المنشدين ، وألحان الزامرين وضاربى الدفوف .

---

(١) وفيات الأعيان : ج ٣/ص ٢٧٢ .

وقد انتشرت أخبار عظمة احتفال مظفر الدين بالمولد النبوى فى البلاد المجاورة لاربل ، سواء القريبة منها والبعيدة ، فكان المسلمون يفدون اليها للاستمتاع بهذا الاحتفال ، فكان يفد اليها الناس على اختلاف طبقاتهم ، الفقهاء والمحدثون والأدباء والشعراء والتجار ، حتى الفقراء كانوا يفدون اليها مع الوافدين ، لينالوا من بر مظفر الدين ، فكانت المدينة تمتلىء بالناس ، وتضيق بمن فيها طيلة أيام الاحتفال .

ومما كان يزيد من روعة الاحتفال وابتهاج الشعب ، أن مظفر الدين كان يشترك معهم فى جميع مظاهر الاحتفال الدنيوية والدينية فى بساطة ودون تكلف كأنه واحد منهم ، فكان يقف مع الشعب فى كل مكان يشاهد الألعاب وأنواع التسلية ، ويشترك مع المتصوفة والمتعبدين فى حلقات الذكر ، ويجلس فى الحلقات يستمع الى قصة السيرة وتلاوة القرآن الكريم .

وقد وصف المؤرخ ابن خلكان ، احتفال مظفر الدين بالمولد وصفا موجزا ، ولكن يتبين من هذا الايجاز روعة الاحتفال وعظمته ، فكيف تكون حقيقته لوأن ابن خلكان وصفه وصفاً كاملا؟

يقول ابن خلكان ان الاستعداد للاحتفال يبدأ من شهر المحرم من كل سنة حيث يصدر مظفر الدين أمره بالبدء بنصب قبته الخاصة ، ثم يأخذ الأمراء والأعيان فى اقامة قبابهم ، كل أمير وعين من الأعيان يقيم له قبة خاصة به يقيمها على نفقته ، فيصل عدد القباب التى تقام الى أكثر من عشرين قبة ، تمتد على طول الطريق من باب قلعة المدينة حتى باب الخانقاه المجاور للميدان .

وتصنع القباب من الخشب ، وهى قباب ضخمة عالية ، حيث تحتوى كل قبة على أربع أو خمس طبقات . ويستمر نصبها حتى أوائل شهر صفر ، حتى اذا انتهوا من نصبها ، يبدأون بتزيينها بالأقمشة الفاخرة ذات الألوان الجميلة المختلفة ، حتى اذا انتهوا من ذلك ، تبدأ فرق الملاهى تحتل أماكنها فى القباب ، فتتخذ كل فرقة مجلسها فى طبقة من طبقات القبـة ؛ فتشغل فرقة المغنين — أو جوقة المغنين كما كانوا يسمونها فى ذلك العهد — احدى الطبقات ، وتشغل طبقة أخرى ، فرقة أصحاب (خيال الظل) ، وتشغل طبقة ثالثة فرقة الموسيقيين ، وتشـغل طبقة رابعة فرقة الملاعبين ، أى أن كل طبقة من طباق القبة تشغلها فرقة تختلف عن غيرها ، حتى تشمل القبة كل أنواع الملاهى والمسليات ، وتتكرر الفرق فى القباب كلها ، وبذلك يتيسر للناس فرص كثيرة لمشاهدة أكثر من فرقة لنوع واحد من الملاهى فى كل قبة .

وما أن تستقر كل فرقة فى طبقتها فى القبة ، حتى يبدأ الناس بالاستمتاع بالاحتفال ، فيشغى المكان بالمتفرجين من أهل اربل وغيرها ممن وفد من البلاد المجاورة لها .

وكان مظفر الدين يشارك الناس أفراحهم ويختلط بهم ؛ فكان ينزل كل يوم بعد صلاة العصر الى مكان الاحتفال ويتنقل بين القباب ، ويقف عند كل قبة ، فيسمع الغناء والموسيقى ، ويشاهد أرباب الخيال وما يعرضونه من الصور والمشاهد ، ويظل يتنقل من قبة الى أخرى حتى يأتى عليها كلها ، وذلك ارضاء للأمراء والأعيان أصحاب القباب ، وترضية لمن فيها من أرباب الملاهى ،

وليشعر الشعب أنه يشاركهم فرحهم فى هذه المناسبة الكريمة ، فاذا ما انتهى من المرور على القباب ، يتجه الى الخانقاه ، حيث يكون المتصوفون مستعدين لاقامة حلقات الذكر التى كان مظفر الدين شغوفا بها شغفا كبيرا ، فيشترك معهم فى حلقاتهم ، وعندما كان ينتشى ، كان يرقص ويتواجد ويتمايل معهم . ويظـل فى الخانقاه حتى يؤدى صلاة الصبح ، ثم يخـرج بعـد الصلاة الى الصيد — وهى رياضته المفضلة — فما يزال يتصـيد الى ما قبل الظهر ، ثم يعود الى القلعة . وكان يسير على هذا البرنامج كل يوم الى أن تحين ليلة المولد .

ويستمر الناس فى الفرجة والاستمتاع بالاحتفال منذ شهر صفر الى ما قبل ليلة المولد بيومين ، وعندئذ تجمع الابل والأبقار والأغنام المعدة للذبح لاطعام الناس ، وهى أعداد ضخمة ، ثم تخرج من حظائرها الى الميدان لذبحها فى استعراض كبير ، حيث تزفها الطبول والموسيقى والأغانى ، وحولهـا الجزارون حتى يؤتى بها الى المكان المعد لذبحها ، حيث يكون الاستعداد لنحرها مهيأ ، وما أن تصل الى الميدان حتى يشمر الجزارون عن سواعدهم ويشرعون فى نحرها ، ويكون الطباخون مستعدين بقـدورهم وأوانيهم لتلقى اللحوم لطبخها مع ألوان مختلفة من الأطعمة ، وكذلك الشواءون لشى اللحوم والطيور .

ويستمر الذبح والطهو طيلة اليومين ، حتى اذا كانت ليلة المولد ، يصلى مظفر الدين صلاة المغرب فى القلعة ، ثم ينزل فى

موكب كبير الى الخانقاه ، يحيط به حملة الشموع من أمام ومن وراء ، وعن يمينه وعن شماله ، ويتوسط حملة الشموع ، بغلان أو أربعة بغال ، على ظهر كل بغل شمعة ضخمة من شموع المواكب، مربوطة على ظهر البغـل ومن ورائها رجـل يسندها ؛ ويظل مظفر الدين سائرا فى موكبه حتى يصل الى الخانقاه ، فيمكث فيها ليشترك فى حلقات الذكر ، ثم يعود بعد ذلك الى القلعة .

فاذا كان صبيحة يوم المولد أنزلت الخِلع (هدايا من الملابس) التى أعدها مظفر الدين للاهداء من القلعة الى الخانقاه على أيدى رجال من الصوفية ، على يد كل شخص منهم بقجة ، ويسيرون فى صف طويل ، كل واحد منهم وراء الآخر حتى يصـلوا الى الخانقاه . ثم ينزل مظفر الدين بعد ذلك من القلعة الى الخانقاه ، حيث يكون أعيان الدولة والرؤسـاء مجتمعين ، وحيث يكون كرسى الوعظ قد نصب فيها . وينصب أيضا لمظفر الدين برج من خشب له شبابيك تطل على الميدان ، ويوضع له فيه كرسى ليجلس عليه ويرى منه الناس واستعراض الجيش .

والميدان رقعة من الأرض غاية فى الاتساع ، يكون معـدا للاحتفال بالمولد احتفالا عسكريا ، حيث يجتمع الجيش بموسيقاه وطبوله ، ويبدأ استعراض الجيش على نغمات الموسيقى طول النهـار .

ويتنقل مظفر الدين فى البرج بين الشبابيك فيجلس آنا فى الناحية التى فيها الجيش ليشاهد استعراضه ، ويجلس آنا فى

الناحية الأخرى ليرى الناس وهم مجتمعون فى حلقات حول الوعاظ .

وفى أثناء استعراض الجيش ، يوزع مظفر الدين هداياه على الحاضرين من الأعيان ورؤساء الدولة وقواد الجيش ، وعلى ذوى المكانة من الضيوف الوافدين من البلاد الأخرى ، وكذلك على الفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والوعاظ والقراء .

حتى اذا انتهى عرض الجيش ، يكون مظفر الدين قد انتهى من الاهداء على جميع من عنده ، وفى الوقت نفسه يكون قد أعد سماطين كبيرين عظيمين ، أحدهما للعامة من أهل اربل والوافدين عليها من عامة الناس ومتوسطى الحال ، ويكون هذا السماط فى الميدان ، ويبدأ من الخانقاه وينتهى عند القلعة ، والسماط الآخر فى الخانقاه لمن عنده من ذوى المكانة من الضيوف وكبار رجال دولته .

أما سماط العامة ، « ففيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف » كما يقول ابن خلكان . وأما سبط ابن الجوزى ، فانه يقدم لنا أسماء بعض الأطعمة التى يشتمل عليها السماط رواية عن شاهد عيان ، فيقول : « وحكى لى من حضر بعض السنين فقال : عددت على السماط مائة قرش قشلميش [1] ، وخمسة آلاف رأس مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف

(١) هكذا بالمرجع الذى نقلنا عنه ، ولعله نوع من الطعام ولم نقف على كنهه .

زبدية[1] ، وثلاثين ألف صحن حلوى [2] » فيجتمع الناس على السماط فيأكل من شاء أن يأكل ، ويحمل من الطعام من شاء أن يحمل .

أما السماط الآخر ، فانه يحتوى على نفس أطعمة السماط الأول ، فيتحلق حوله الأعيان وكبار رجال الدولة وأعيان الضيوف الوافدين ، ويتناولون الطعام حتى ينتهوا منه .

ولا ينسى مظفر الدين — وهو فى غمرة هذا الاحتفال — من لم يحضر الاحتفال أو السماط لسبب من الأسباب ، فكان يأمر بحمل طعامه الى داره ، لينال من بركة المناسبة ما نال غيره ، وليشترك جميع من فى بلده فى فرحة الموسم .

ويستمر الأمر كذلك الى ما بعد صلاة العصر ، ثم يبقى مظفر الدين فى الخانقاه ، حيث تقام حلقات الذكر (وباصطلاح ذلك العصر : السماعات) حتى الصباح ، وبشروق الشمس تنتهى الاحتفالات بالمولد ، فيعود أهل اربل الى حياتهم العادية ، ويستعد الضيوف الى العودة كل الى بلده ، وحتى هؤلاء الضيوف لا ينساهم مظفر الدين فقد كان يدفع لكل فقير منهم نفقات عودته تيسيرا له [3] .

---

(١) الزبدية ، اناء توضع فيه الأطعمة . ففى ذيل مرآة الزمان (جـ ٢/ص ٣٠١) فى ترجمة الأمير لاجين بن عبد الله المتوفى سنة ٦٦٢ ، أنه كان على سماطه : مائة زبدية عادلية (نسبة للملك العادل الأيوبى) كبار فى كل زبدية منها خروف صحيح رضيع ، وقريب ثلاثمائة زبدية دون تلك ، فى كل زبدية ثلاثة طيور دجاج .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٠ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ ص ٦٨٠ .

وكان مظفر الدين يحس بما يعانيه حجاج اربل من مشقة الطريق الى الحرمين مكة والمدينة فكان يعمل على تهيئة أسباب الراحة لهم فى الطريق ، فكان يسير مع الحجاج سبيلا من الماء ، ويسير معهم مندوبا من عنده ، مزودا بكل ما يحتاج اليه الحاج فى الطريق [1] .

هذه بعض أنواع البر التى كان يقدمها مظفر الدين الى شعبه وهو بر عام يناله كل من يريده ويرغب فيه ، الا أن هناك فئات من الناس كان مظفر الدين يرى أنهم فى حاجة الى بر خاص ورعاية خاصة ، هم المرضى ، والأرامل ، والأيتام : واللقطاء ، والعميان ، فأنشأ لهم المصحات والملاجىء ، ولم يبخل عليهم فى الانفاق وأضفى عليهم من انسانيته وعطفه ما كان ينسيهم آلامهم وتعاستهم ، الأمر الذى يذكرنا بعصر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى (٨٦— ٩٦ هـ) ، الذى كان يهتم بما اهتم به مظفر الدين فى القرن السابع الهجرى ، أى بعد ستة قرون .

دار الزمنى :

والزمنى هم المرضى بالجذام ، فجمع مظفر الدين المصابين بهذا المرض الخبيث وبنى لهم دارا يقيمون فيها ، وزودها بكل ما يحتاج اليه المريض من طعام وشراب وكساء وعلاج ، ثم جعل لكل مريض خادما خاصا به يقوم على رعايته وخدمته [2] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٣ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨١ .

دار العميان :

واهتم مظفر الدين بمكفوفى البصر من أبناء اربل وغيرها من بلاده ، فان أمثال هؤلاء المنكوبين تسد فى وجوههم أبواب الرزق لعجزهم عن العمل ، فلم يتركهم مظفر الدين يتخبطون فى حياتهم أو يبذلون ماء وجوههم ويهدرون انسانيتهم بسؤال الناس ، فأعفاهم مظفر الدين من هذا كله ، وبنى لهم دارا يقيمون فيها ، وجهزها بكل ما يحتاجون اليه من مأكل ومشرب وملبس ، وخصص لكل واحد منهم أيضا خادما يقوم على شأنه وخدمته(١).

واذا كان مظفر الدين قد قام بما يجب عليه كحاكم ازاء هؤلاء المنكوبين من الناحية المادية ، فانه لم يكتف بهذا ، وانما أمدهم بانسانيته وعطفه ما أنساهم بلواهم ، يزورهم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، فيدخل على كل واحد منهم ، ويسأله عن حاله ، ويباسطه ويمزح معه حتى يمر عليهم جميعا ، ثم يهب لهم ما تجود به يده من مال ، علاوة على ما هو مقرر لهم ، فكان النزلاء يجدون من هذا العطف الانسانى ما يثلج صدورهم ويجبر قلوبهم (٢) .

دار الأيتام :

واهتم مظفر الدين بالأطفال الأيتام ، بنات وبنين ، من الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم ومن لا عائل لهم ، وحفظهم من خطر

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص٢٧٢ ، مرآة الزمان ، ج ٨ / ص ٦٨٢ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٢ .

التشرد ومفاسده ، فبنى لهم ملجأ جمعهم فيه ، وزوده بكل ما يحتاجون اليه من مقومات الحياة ، كما عيّن فيه المشرفات على تربيتهم .

ولم يقف مظفر الدين عند جمع الأيتام واليتيمات بين جدران أربعة ، وانما كانت انسانيته أوسع من ذلك وأكبر ، فقد كان يزورهم بين الحين والحين فى فترات متقاربة ويضفى عليهم من عطفه وأبوته وبخاصة اليتيمات ، فكان حين يزورهن ، كان يجلس معهن ، ويقعد اليتيمة على فخذه ويداعبها ، ويسألها عما اذا كان لها مطلب أو حاجة ، فيقول لها : ايش تريدين تأكلين ؛ ايش تريدين تكتسين ؟ فكان يلبى طلبها ويأمر بتنفيذه مهما طلبت . وكانت اليتيمة اذا بلغت سن الزواج ، كان يختار لها الزوج الذى يناسبها ويزوجها منه ، وينفق على حفلة زواجها من ماله [1] . أما الأيتام الذكور ، فالغالب أن مظفر الدين كان ييسر لمن يكبر منهم العمل ، ويقدم لهم المساعدات لاستقبال حياتهم الجديدة .

دار اللقطاء :

وفى اربل — كما فى غيرها من بلاد الدنيا — أطفال يولدون سفاحا ، نتيجة نزوة طائشة بين ذكر وأنثى ، ويكون مصيرهم القذف فى الطرقات والأماكن الخربة فتكون نهايتهم الموت المحتم، فكانت انسانية مظفر الدين أكبر من أن تترك هؤلاء الأبرياء الذين يتخلى عنهم أبواهم فيلقونهم الى حتفهم دون ذنب أو جريرة ،

(1) مرآة الزمان ج ٨/ص ٦٨١ ؛ وفيات الأعيان ، ج ٣/ ص ٢٧٢ .

فبنى لهم ملجأ زوده بالمرضعات ، فكان كل لقيط يعثر عليه ، يحمل الى هذا الملجأ ، فيسلم الى احدى المرضعات لتقوم على ارضاعه وتربيته [١] . وبهذا العمل الانسانى الجليل ، حفظ مظفر الدين أرواحا كان مصيرها الهلاك والموت .

دار الأرامل :

وامتدت عناية مظفر الدين الى الأرامل الفقيرات ، اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن وليس لهن من يعولهن من أقارب ، فبنى لهن دارا يأوين اليها ، وأعدها بكل ما يحتجن اليه من مأكل ومشرب وملبس ، وكان يتعهدهن بنفسه ، فيزورهن ويسألهن عما يحتجن اليه ، فكان يأمر بتلبية رغباتهن واستكمال ما ينقصهن [٢] .

أما نفقات مظفر الدين على هذه الدور فكانت مائتى ألف دينار سنويا ، على ما يرويه سبط بن الجوزى ، المعاصر لمظفر الدين [٣] .

***

وكان لمظفر الدين أنواع أخرى من البر ينفقها على غير أهل بلاده ، من ذلك ، بناؤه دار الضيافة فى اربل ، خصها لمن يفد الى اربل سواء للتجارة أو لمصلحة من المصالح ، أو للمسافرين الذين يعبرون اربل وهم فى طريقهم الى البلاد التى يقصدونها ، فكان مظفر الدين يلمس ما يناله المسافر من تعب الطريق ومشقته ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٨١ .

كذلك كان يعلم ما يتحمله التاجر من عناء حين يقصد بلده للتجارة، فأشفق على هؤلاء جميعا ، وعمل على التخفيف عنهم وتيسير سبل اقامتهم فى بلده والترويح عن أنفسهم ، فبنى لهم دارا سماها دار الضيافة ، زودها بكل ما يحتاج اليه الضيف فى اقامته من مأكل ومشرب وأماكن للنوم ، وألحق بالدار المطابخ لاعداد الأطعمة والأشربة للضيوف ، وخصص للدار مائة ألف دينار سنويا تنفق لهذا الغرض، فكان كل وافد يقيم فى الدار ما شاء له أن يقيم ، فكان يجد الأمن والطمأنينة على نفسه وماله . ولم يكتف مظفر الدين بهذا ، وانما كان يدفع لكل ضيف فقير يعزم على مغادرة اربل نفقة لسفره ، كل على حسب احتياجاته [1] .

***

كذلك امتد بره الى فقراء المسلمين فى الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، فان فقراء هاتين المدينتين العزيزتين على المسلمين جميعا كانوا فى حاجة الى معونة المسلمين لمحل أراضيهم وجدب بلادهم ، فكان الطعام والكساء يأتيان اليهم من مختلف البلاد الاسلامية تقربا من المسلمين الى الله ، فالمسلمون فى بقاع العالم الاسلامى المختلفة ، يكرمون أهل مكة اكراما لبيت الله الحرام ، ويبرون أهل المدينة محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لذلك كانت المدينتان المقدستان محل رعاية مظفر الدين وعنايته، فكان يرسل الى فقرائهما كل سنة غذاء وكساء بما قيمته ثلاثون

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ ص ٦٨٣ .

ألف دينار توزع عليهم ، سوى ما كان يبر به من أخنى عليه الدهر بعد عز ونعمة ، فكان هؤلاء يبرهم سرا صونا لماء وجوههم من ذل السؤال ، وضنا بكرامتهم أن تمتهن[1] .

ولمظفر الدين مأثرة أخرى فى مكة والمدينة ، وذلك أن الماء قليل فى المدينتين ، وكان الماء يقل فيهما فى موسـم الحج لكثرة الحجاج وحاجتهم اليه ، فلمس مظفر الدين ما يقاسيه أهل المدينتين من مشقة حصولهم على الماء مع مزاحمة الحجاج لهم فى مواسم الحج ، فبنى فى المدينتين خزانات لخزن ماء المطر ، حتى يتوفر لسكانهما الماء على مدار السنة [2] . كذلك كان ينفق عشرة آلاف دينار على السبيل ، وألف دينار برسم اجراء الماء الى البرك بعـرفات [3] .

***

وكان الأسرى المسلمون الذين يقعون فى قبضة الصليبيين شغل مظفر الدين الشاغل ، وكان أمرهم يثيره ويزعجه . فقد عاش مظفر الدين — كما سبق أن ذكرنا — فى عصر الحروب الصليبية، وخاض غمار كثير من معاركها بنفسه ، فكان يرى المسلمين يقعون أسرى فى أيدى الصليبيين بالعشرات والمئات . وكان قبل أن يلى ملك اربل يعجز عن مساعدة الأسرى لضعف حيلته وقلة موارده المالية ، فلما أن ملك اربل ، لم يتوان فى شراء حرية عدد كبير منهم فى كل سنة ، فكان يرسل نوابه الى الصليبيين ، مرتين فى

(١) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٣ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٣ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨/ص ٦٨٢ .

السنة لشراء حرية عدد من المسلمين المأسورين عندهم ، وقد أحصى ما كان يدفعه كل سنة من المال ثمنا لحرية اخوانه فى الدين، فبلغ مائة ألف دينار ، أما الأسرى الذين خلصهم من الأسر مدة حكمه فبلغوا ستين ألف أسير ما بين رجل وامرأة . وكان اذا نفذ منه المال ، يبيع ما عنده من المجوهرات فى دمشق ويشترى بهـا حرية الأسارى . وكان نوابه يخيرون الأسير بعد أن يطلق سراحه بين أن يعود الى بلده وأهله ، أو أن يسير معهم الى اربل والاقامة بها ؛ فمن كان يرغب منهم فى العودة الى أهـله وبلده ، كانوا يزودونه بالمـال اللازم حتى يبلغ مأمنه ، وأما من كان يرغب الاقامة فى اربل ، فكانوا يأخذونه معهم اليها ، فكان مظفر الدين يبر هؤلاء الأسرى برا كريما ، ويقوم لهـم بكل ما يحتاجون اليه من مسكن ومطعم وكساء [1] ، فحفظ هؤلاء المسلمين من التشرد والضياع ، فكان منهم من فقد أهله ، ومنهم من فقد ماله ، ومنهم من احتل الصليبيون بلاده .

الجانب الثقافى :

والى جانب هذين الجانبين ، جانب الانشاء والتعمير والجانب الاجتماعى الانسانى ، وهما جانبان عظيمان كما قد رأينا ، كان هناك الجانب الثقافى .

وليس من السهولة تقييم الحركة الثقافية فى اربل قبل عصر مظفر الدين ، وذلك لقلة ما كتب عن اربل قبل عصره ، وانما على

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨/ ص ٦٨٢ .

ضوء التراجم القليلة التى مرت بنا لبعض الشخصيات الاربلية المولد ، يؤكد وجود مدارس فى اربل ، وأن هذه الشخصيات تلقت علومها الأولى فى مدارس اربل ، ثم رحلوا الى العواصم الاسلامية يستزيدون من مناهلها العلمية ، فكان منهم الفقهاء ، والقضاة ، ورجال الافتاء ، والأدباء ، والشعراء .

وقد سار مظفر الدين على سنة من سبقه فى انشاء المدارس، فأنشأ مدرسة باسمه لتدريس الفقهين الشافعى والحنفى ، وكان يدرس فيها أيضا ، التفسير ، والحديث ، والنحو ، فنالت من الشهرة ما فاقت به مدارس اربل كلها بسبب اهتمام مظفر الدين بها وشهرة شيوخها ومدرسيها ؛ فمن الذين درّسوا بها :

محمد بن ابراهيم بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦١٠ ، وهو والد قاضى القضاة والمؤرخ المعروف ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » [١] .

كذلك درس بها أخوه عمر بن ابراهيم ، المتوفى سنة ٦٠٩ ، وهو عم ابن خلكان المؤرخ [٢] .

وبعد وفاة والد ابن خلكان ، درس بها أبو الفضل أحمد بن موسى بن يونس بن منعة ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، وقد درس ابن خلكان المؤرخ على ابن منعة هذا ، وكان يحضر دروسه وهو صغير . ويذكر ابن خلكان عن أبى الفضل ، أنه « كان اماما كبيرا

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ١/ص ٩٠ . ترجمة أحمد بن موسى ابن منعة الاربلى .

(٢) طبقات الشافعية ، ج ٥/ص ١٣٠ .

فاضلا عاقلا حسن السمت جميل المنظر » . وأنه « كان كثير المحفوظات غزير المادة » ، وكان ابن خلكان يعجب بالقائه ، فيقول : « وما سمعت أحدا يلقى الدروس مثله . وظل ابن منعة يلقى الدروس بمدرسة مظفر الدين حتى سنة ٦١٧ ، ثم سار الى الحج ، ولما عاد انتقل الى الموصل [١] .

كذلك درّس بها أبو العباس الخضر بن نصر الأربلي الشافعي المتوفى سنة ٦١٩ ، وكان أبو العباس متفننا فى العلوم ، وله تصانيف حسنة فى التفسير والفقه ، وانتفع بعلمه خلق كثير [٢] .

وعبد اللطيف بن أبى النجيب السهروردى ، ومن تلاميذه الحافظ محمد بن عبد الغنى المعروف بابن نقطة [٣] .

ومحمد بن هبة الله النحوى ، ومن تلاميذه مجد الدين أحمد ابن على بن أبى غالب الأربلى النحوى المعدل ، وقد توفى سنة ٦٥٧ [٤] .

وقد تخرج على مدرسة مظفر الدين عدد كبير من أبناء أربل ، حصلوا علومهم الأولى فيها ، ثم رحلوا الى العواصم الاسلامية الكبرى يغترفون من ينابيعها العلمية حتى وصلوا الى أكبر المراتب العلمية والأدبية ، نذكر منهم على سبيل المثال :

فمن الفقهاء : أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر الاربلى ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ١/ص ٩٠ .
(٢) شذرات الذهب ، ج ١٤/ص ١٣٣ .
(٣) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٨٦ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ١٢/ص ٢٨٧ .

المتوفى سنة ٦١٩ . وقد ولد أبو القاسم باربل سنة ٥٣٤ ، وتفقه بها على عمه أبى العباس الخضر ، ثم توجه الى بغداد سنة ٦٠٠ ، ويبدو أنه شغل احدى الوظائف بها ، ولعلها وظيفة التدريس فاستاء منه مظفر الدين — لسبب لم يذكره المرجع[1] — فاستولى على أملاكه . وظل أبو القاسم فى بغداد حتى سنة ٦٠٦ ، ثم غادرها الى الموصل وأقام بها حتى مات .

ومن المفسرين : أبو العباس الخضر بن نصر الاربلى الشافعى، المتوفى سنة ٦١٩ (وقد ذكرناه من قبل)[2] .

ومن المفتين : كمال الدين سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد الاربلى ، المتوفى سنة ٦٧٠ ، ويذكره العماد الحنبلى بأنه « مفتى الشام ومفيده » . ويقول عنه الشريف عز الدين ، انه « كان عليه مدار الفتوى بالشام فى وقته ، ولم يكن فى بلاد الشام مثله »[3] .

ومن القراء : أبو الحسن على بن عبد العزيز الاربلى ، ومن تلاميذه الامام شعلة بن محمد شارح الشاطبية ، والمتوفى سنة ٦٥٦[4] .

---

(١) نص المرجع : « ثم توجه الى بغداد سنة ستمائة ، فآذاه بتوليتها مظفر الدين واستولى على أملاكه ... » (شذرات الذهب ، ج ٦/ص ٨٦) ويلاحظ أن هناك عبارة سقطت من النص ، وهى الوظيفة التى وليها أبو القاسم .

(٢) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٨٦ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٣٣١ .

(٤) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٦٦١ .

ومن القضاة : أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ ، تفقه على والده بمدرسة اربل ، ثم انتقل بعد موت أبيه الى الموصل ، وحضر دروس الامام كمال الدين بن يونس ، ثم انتقل الى حلب وأقام عند الشيخ بهاء الدين أبى المحاسن يوسف ابن شداد وتفقه عليه ، وقرأ النحو على أبى البقاء يعيش بن على النحوى . ثم قدم دمشق واشتغل على ابن الصلاح . ثم انتقل الى القاهرة وناب فى الحكم ، ثم ولى قضاء المحلة ، ثم قضاء الشام . ومن مصنفاته فى التاريخ « وفيات الأعيان » ، وكان أديبا شاعرا [1] .

ومن اللغويين : أبو عبد الله الحسين بن ابراهيم الهذبانى الاربلى اللغوى ، المتوفى سنة ٦٥٦ ، وكان يعرف اللغة ويقرئها ، وكان محدثا أيضا . وكان الملك المعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق ، قد أمر الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغنى أن يرتب مسند الامام أحمد بن حنبل على أبواب الفقه ، فاستعان بجماعة من المحدثين ، منهم الحسين بن ابراهيم [2] .

ومن النحويين : شمس الدين بن الخباز النحوى ، وهو أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالى الاربلى ، المتوفى سنة ٦٣٩ ، نشأ باربل وتعلم بها ، ثم انتقل الى الموصل وأقام بها ، وله تصانيف فى الأدب [3] .

---

(١) طبقات الشافعية ، جـ ٥/ص ١٤ .
(٢) شذرات الذهب ، جـ ٥/ص ٢٧٤ ، مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٤٣ .
(٣) شذرات الذهب ، جـ ٥/ص ٢٠٢ .

ومن الأدباء : العلامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عمر الأربلى الحنفى الأديب . ولد باربل سنة ٦٠٢ ونشأ بها ، وتلقى دروسه الأولى على مشايخها ، ثم استكمل دروسه على علماء بغداد ودمشق — ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة القيارية بدمشق — وله ديوان مشهور ، ونظمه رائق مع الجلالة والديانة التـامة [١] .

ومن المؤرخين : المؤرخ المعروف ابن خلكان ، وقد ذكرناه من قبل فى كلامنا عن القضاة .

والى جانب مدرسة مظفر الدين ، كانت هناك المجالس والندوات الدينية والأدبية . وكانت المجالس والندوات الدينية يعقـدها مظفر الدين لتغلب نشأته الدينية عليه . يقول ابن خلكان ، ان مظفر الدين كان شديد الميل الى أهل السنة والجماعة ، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ، ومن عداهما لا يعطيه شيئا الا تكلفا ، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم الا اذا قصدوه ، فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب بره »[٢] . وكان أحب علم من العلوم الدينية الى مظفر الدين هو « الحديث » ومحبته لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام تنفق ومحبته للنبى ، ولذلك كان يكثر من مجالسة المحدثين والاستماع اليهم . يذكر سبط ابن الجوزى ، أن مظفر الدين سمع مسند الامام أحمد بن حنبل كله من المحدث حنبل بن عبد الله بن سعادة

---

(١) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٣٥٩ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

المكبر المتوفى سنة ٦٠٤ [١] ، ولولعه بالحديث أنشأ مدرسة لتدريسه فى مدينة الموصل [٢] ، وان كنا لا ندرى سبب انشائها فى هذه المدينة ولم ينشئها فى اربل ، اللهم الا أن يكون قد رأى أن الاستفادة منها فى الموصل أكبر منها فى اربل لاتساع الموصل وكثرة سكانها والمترددين عليها .

وكان لفرط محبته للنبى ، يحتفل بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام كل سنة الاحتفال الذى وصفناه من قبل . وقد حدث أن دخل أبو الخطاب عمر بن الحسين بن دحية مدينة اربل فى سنة ٦٠٤ هـ ، وهو فى طريقه من نيسابور الى خراسان ، وتصادف يوم دخوله اليها أن الاحتفال بالمولد النبوى كان قائما على قدم وساق ، فبهره ما رأى من عظمة الاحتفال وروعته ، فأقام بالمدينة أياما ، ألف خلالها كتابا فى مولد النبى سماه « التنوير فى مولد السراج المنير » وقدمه لمظفر الدين وقرأه عليه بنفسه ، ففرح به مظفر الدين فرحا شديدا ، وأجاز مؤلفه عليه ألف دينار ، وغمره بالهدايا اللطيفة والنفقات الجزيلة [٣] . وأصبح هذا الكتاب شغل مظفر الدين الشاغل ، فكان يكثر من قراءته ويسمعه الى كل ضيف كبير يفد عليه وكان يقرأه عليه بنفسه . يقول ابن خلكان ،

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٥٣٧ ، ترجمة : حنبل بن عبد الله ابن الفرج المكبر .

(٢) الموصل فى العهد الأتابكى ، ص ١٥٤ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٦ .

انه — أى ابن خلكان — سمع الكتاب على مظفر الدين فى ستة مجالس فى جمادى الآخرة سنة ٦٢٦[1] .

وكانت حياة مظفر الدين الخاصة ، كما سبق أن ذكرنا ، أقرب الى حياة التصوف منها الى أية حياة أخرى ، فقد كان يكثر من الاجتماع بالمتصوفين فى المواسم وغير المواسم ، سواء فى الخانقاه أو فى مدرسته التى أنشأها ، فكان يحضر معهم السماعات ، أى حلقات الذكر ، وكان يشترك معهم فى هذه الحلقات ، وكان يتواجد من الانفعال والحماس كما يتواجدون .

كذلك كان يجالس العلماء والفقهاء وكل مشتغل بالعلوم الدينية ، فقد كان فى اربل — فى أيامه — نخبة طيبة من هؤلاء العظماء ، أمثال : محمد بن ابراهيم والد ابن خلكان المؤرخ ، وأخيه عمر بن ابراهيم ، وأبى الفضل أحمد بن موسى بن منعة ، وأبى الخير بدل التبريزى ، والحسن الغنوى ، وشرف الدين الذى كان يشتغل بالحكميات .

واذا كانت الصفة الغالبة لثقافة مظفر الدين ثقافة دينية ، الا أنه كان يميل الى علم التاريخ ، فكان يطالع فيه ويستمع الى رواته . يقول ابن خلكان ، ان مظفر الدين « كان يميل الى علم التاريخ وعلى خاطره شيء منه »[2] . ومعنى هذا أن مظفر الدين كان يشترك فى بعض الندوات الأدبية التى كانت تعقد فى دور الأدباء وكبار رجال الدولة ممن يتذوقون الأدب .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ١٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٧٦ .

وقد كان الى جانب المجالس والندوات الدينية التى كان يعقدها مظفر الدين مع الفقهاء والمحدثين والصوفية ، كانت هناك ندوات أدبية تعقد فى بيوت الأثرياء ورجال الدولة الذين لهم نصيب كبير من العلوم الأدبيـة ، أمثـال : ابن المسـتوفى ، ومجد الدين أسعد الشيبانى ، والحاجرى الشاعر ، وغيرهم من الأدباء والشعراء .

وكان ابن المستوفى وهو أبو البركات المبارك بن أبى الفتح أحمد ، آخر وزراء اربل على عهد مظفر الدين ، وكان أديبا كبيرا يتذوق الأدب والشعر وكان محدثا نحويا لغويا عروضيا شاعرا أيضا ، وكان يعقد الندوات الأدبية فيجتمع عنده الأدباء والشعراء والفقهاء . وابن المستوفى اربلى المولد والموطن ، ولد باربل فى منتصف شهر شوال سـنة ٥٦٤ هـ ، وهو من بيت كبير كان فيه جماعة من الرؤساء الأدباء . وتولى والده وعمه صـفى الدين أبو الحسن على بن المبارك منصب الاستيفاء فى اربل ، وكان عمه هذا يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فنقـل كتاب « نصيحة الملوك » لحجة الاسلام الغزالى الى اللغة العربية ، وكان الغزالى قد ألف الكتاب باللغـة الفارسية . وقد شـغل ابن المستوفى منصب الاستيفاء فى اربل حتى سنة ٦٢٨ ، ثم عينه مظفر الدين وزيرا له . ويترجم له ابن خلكان ، فيقول : « وكان رئيسا جليل القدر ، كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل الى اربل أحد من الفضلاء الا بادر الى زيارته وحمل اليه ما يليق بحاله ويقرب الى قلبه بكل طريق ، وخصوصا أرباب الأدب ، فقد كانت سوقهم

لديه نافقة . وكان جم الفضائل ، عارفا بعدة فنون ، منها : الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به وكان اماما فيه ؛ وكان ماهرا فى فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافى وعلم البيان ؛ وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها ؛ وكان بارعا فى علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم »[1] .

وجمع ابن المستوفى تاريخا لمدينة اربل فى أربعة مجلدات ، واستعان به ابن خلكان فى تراجمه التى أوردها فى كتابه « وفيات الأعيان »[2] ، وكتاب ابن المستوفى ليس تاريخا بالمعنى المفهوم ، وانما هو كتاب تراجم ، وهو مع ذلك مفقود .

وكان ابن المستوفى يعقد المجالس العلمية ، ويتحلق حوله المشايخ الواردين على اربل فكان يقرأ عليهم بنفسه ، وكثيرا ما حضر ابن خلكان مجالسه هذه وهو صغير وسمع منه [3] .

وكان ابن المستوفى شاعرا ، وله ديوان شعر أجاد فيه ، ومن شعره بيتان فضل فيهما البياض على السمرة ، وهما :

لا تخدعنك سمرة غراره
ما الحسن الا للبياض وجنسه

فالرمح يقتل بعضه من غيره
والسيف يقتل كله من نفسه [4]

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .

وقد حدث أن اعتدى شخص على ابن المستوفى وهو عائد الى داره ليلا فوثب عليه وضربه بسكين يريد أن يطعنه فى قلبه ، فتلقى ابن المستوفى الضربة بعضده فجرحته جرحة متسعة ، فأحضر المزين وخاطها ومرخها (دهنها بمرهم) وقمطها باللفائف ، ثم كتب الى مظفر الدين هذه الأبيات يخبره بما حدث له :

يا أيها الملك الذى سطواته ... من فعلها يتعجب المريخ
آيات جودك محكم تنزيلها ... لا ناسخ فيها ولا منسوخ
أشكو اليك وما بليت بمثلها ... شنعاء ذكر حديثها تاريخ
هى ليلة ولدت فيها وشاهدى ... فيما ادعيت القمط والتمريخ[1]

وحينما وفد الشرف عبد الرحمن بن أبى الحسن بن عيسى البوازيجى الشاعر على اربل فى سنة ٦٢٨ ، وكان ابن المستوفى يوم ذاك وزيرا ، سيّر الى الحسن مثلوما[2] على يد شخص كان فى خدمته يقال له الكمال بن السعار الموصلى ، فجاء الكمال الى الشاعر وقال له : الصاحب (أى ابن المستوفى) يسلم عليك ويقول لك : أنفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيئا يصلحك ، فتوهم الشاعر أن يكون الكمال قد قرض القطعة من الدينار وأن شرف الدين ما سيره الا كاملا ، فأراد استعلام الحال من ابن المستوفى ، فكتب اليه :

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ ٠

(٢) المثلوم : عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة ، وقد جرت بهذه القطع الصغيرة ويسمونها « القراضة » ، كذلك يتعاملون بهذه القطع الصغيرة ويسمونها « القراضة » ، كذلك يتعاملون بالدينار المثلوم ٠ (وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤) ٠

يا أيها المولى الوزير ومن به … في الجود حقا تضرب الأمثال
أرسلت بدر التم عنـد كماله … حسنا فوافى العبد وهو هلال
ما غاله النقصـان الا أنه … بلغ الكمال ، كذلك الآجال

فأعجب ابن المستوفى بهذا المعنى وحسن الاتفاق ، وأجـاز الشاعر وأحسن اليه [1] .

وكان دار ابن المستوفى بمثابة صالون الأدب فى أيامنا هذه ، يجتمع عنده العلماء والأدباء والشـعراء يتناظرون ويتساجلون الشعر . وقد حدث أن أهدى مجد الدين أسعد بن ابراهيم رئيس ديوان انشاء مظفر الدين ، ابن المستوفى فى بعض الليالى طبقا فيه تفاح مخضب وسفرجل على يد غلام جميل الصورة ، وكان عند ابن المستوفى جماعة من الشعراء ، منهم عيسى بن سنجر الحاجرى، فقال كل واحد من الحاضرين فى ذلك شعرا ، فقال الحاجرى :

أهـدى لنـا المجـد تفاحا وأحمره
من خـد من حمـل التفاح مسترق
وللسفرجل من أعـلاه رائحـة
يضـوع منها لمهـديه ثنى عبـق
فظلت أعجب من حالين كيف حوى
وصف الغلام ووصف السيد الطبق[2]

وكان من يعرف ابن المستوفى من الشعراء لا يخاطبه الا بالشعر، من ذلك ، أن علاء الدين بن صالح الاربلى حاجب مظفر الدين ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣/ص ٢٩٤ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٢ .

كتب الى على بن عثمان السليمانى الاربلى الشاعر ، وكان بدمشق، فى أن يتولى علىّ الاشراف على البيمارستان فى اربل ، فرفض وكتب الى ابن المستوفى :

يا أيهـــا المولى الوزيـــر	ذو الرعـــاية والعنـــاية
ان العـــــلاء أضـــلنى	بالقـــول عن طـــرق الهـــداية
لأنى لمارســــــــــتانكم	وأقـــوم فيـــه بالكفـــاية
وانى لمحتـــــاج اليـــــه	متى أجبت الى الولاية [1]

وكان مجد الدين أسعد بن ابراهيم بن حسن بن على الشيبانى النشابى الاربلى من كبار موظفى حكومة مظفر الدين ، فقد كان يتولى كتابة الانشاء له ، وكان مجد الدين أديبا شاعرا .

وكان مولد مجد الدين باربل فى شهر صفر سنة ٥٨٢ ؛ وكان فى أول أمره يشتغل بصناعة النشاب ؛ ولما كبر سافر من اربل وتنقل فى بلاد الجزيرة الفراتية والشامية ثم عاد الى اربل وتولى كتابة الانشاء لمظفر الدين حوالى عام ٦١٥ هـ ، وظل فى منصبه حتى شهر رمضان سنة ٦٢٩ ، فقبض مظفر الدين عليه وحبسه .

وكان مجد الدين يحمل على موظفى حكومة مظفر الدين حملات عنيفة ويهجوهم هجاء لاذعا ، فقد كان مشرف ديوان اربل نصرانيا يقال له يعقوب ، فحبسه مظفر الدين لسبب ما وولى مكانه نصرانيا آخر يقال له المختص ، وغريب من مظفر الدين أن يولى على ديوانه نصرانيا ، الا أن يكون من باب سماحة مظفر الدين وبعده عن التعصب الدينى .

(١) ذيل مرآة الزمان ، جـ ٢/ص ٤٨١ .

على كل حال ، لما حبس مظفر الدين ، يعقوب النصرانى وولى مكانه المختص ، هجا مجد الدين كلا من يعقوب والمختص ، فقال :

فرحنا بيعقــوب اللعــين وحبســه
وقلنــــا أتانا ما يطيب به القــــلب
فلما ولى المختص فالشر واحـــد
اذا ما مضى كلب أتى بعده كلب[1]

وسوف نذكر هجاءه اللاذع للموظفين فى مناسبة أخــرى ستأتى فى موضعها .

ويذكر اليونينى[2] ، أن مظفر الدين صحب معه مجد الدين فى رحلته الى بغداد فى سنة ٦٢٩[3] ، فلما دخل مظفر الدين ومعه مجد الدين على الخليفة المستنصر بالله ، تقدم المجد بين يدى الخليفة وحياه بقوله :

جــلالة هيبة هـــذا المقــام
تحــيّر عــالم عــلم الكلام
كأن المنـــاجى به قائمـــا
ينــاجى النبى عليه الســلام

ثم قال نثرا : « ولو كشف الغطا لرأينا الملائكة بك حافة ، ووجدنا الروح الأمين يجدد تلاوة الوحى المنزل ، على ابن عم النبى المرسل ، ويقول هذا أكرم الخلفاء وأفضل ، وصلاة الله وسلامه يخصان الأكرم الأفضل » .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ .
(٣) انظر الفصل الثامن من الكتاب .

ولو جمـع الأئمـــة فى مكان

وأنت به لكنت لهـم امـاما

« فالله تعالى يؤيد هذه الدولة الشريفة بنصره ، ويرد كيد عدوها فى نحره » غير أن ابن شاكر الكتبى ، يذكر أن مجد الدين حيا الخليفة بهذه التحية ، فى سفارة له بعثه بها مظفر الدين اليه ، ولم يذكر الكتبى تاريخ هذه السفارة وسببها [1] .

وعلى الجملة ، كان على عهد مظفر الدين حركة ثقافية دينية وأدبية ، لا نستطيع أن نقول انها كانت حركة واسعة ، ولكنها على كل حال وصـلت الى مسامع جيرانه من البلاد المجاورة فأثارت اعجاب أهلها ، كذلك أثار اعجابهم سيرة مظفر الدين نفسه ومحبته لأهل العلم . وقد سبق أن ذكرنا أنه لمـا اتفق مظفر الدين مع عـلاء الدين قراسنقر صاحب مراغة للاسـتيلاء على بلاد أبى بكر بن البهلوان ، أن أيتغمش مملوك أبى بكر ، عاتب مظفر الدين فى الرسالة التى بعثها اليه ، وقال له فيها : « اننا كنا نسمع عنك انك تحب أهل العلم والخير وتحسن اليهم، فكنا نعتقد فيك الخير والدين .. » ، وهذا دليل على ما كان يتمتع به مظفر الدين من سمعة طيبة ، الأمر الذى دفع كثيرا من الناس الى قصد اربل والاقامة بها اقامة دائمة أو اقامة مؤقتة ، فمن العلماء الذين أقاموا فى اربل اقامة مؤقتـة ، ابن سراقة الشاطبى[2] . وقد ولد ابن سراقة بمدينة شاطبة من بلاد الأندلس،

---

(١) فوات الوفيات ، ج ١/ص ١٧ .

(٢) هو أبو بكر محيى الدين محمد بن محمد بن ابن الحسين .

ثم رحل منها الى مدينة حلب وولى مشيخة دار الحديث البهائية بها ، ثم سار منها الى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بها ، وفى سنة ٦٣٦ أو ما قبلها رحل الى بغداد فى طلب الحديث ، وأثناء عودته منها دخل مدينة اربل فى سنة ٦٢٦ وأقام بها مدة ، قرأ أثناءها على المحدث أبى الخير بدل التبريزى . ويقول عنه اليونينى المؤرخ ، انه كان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل، وكثرة العلم والجلالة والنبل ، وكان مجبولا على كرم الأخلاق وترك التكلف ورقة الطبع ولين الجانب ، بالاضافة الى أنه كان شاعرا (١) .

ومن الذين أقاموا باربل اقامة دائمة وتوفى بها ، أبو حفص(٢) قاضى خلاط ، وكان أبو حفص فقيها شافعيا ، وعالما أصوليا ، وواعظا ، وشاعرا . وكان حسن الكلام فى الوعظ والتذكير ، وله مصنفات فى علم الأصول ، وكان من محاسن القضاة وظرافهم ، وكان ذا عفاف ونزاهة ودين . ومن شعره :

وقفت وربع العامرية داثر
ودمعى ووجدى سابق متواتر
وقفت وذكراها تجدد لوعتى
وأبكى كما تبكى الغوادى البواكر

وقد أورد له اليونينى أبياتا كثيرة من هذه القصيدة (٣) .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢/ص ٣٠٤ .
(٢) هو اسحاق بن هبة الله بن صديق بن محمود بن صالح.
(٣) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢/ص ٤٠١ .

ولم يقتصر مظفر الدين فى بره وفعله للخير على اربل وحدها، وانما تعداها الى الموصل ودمشق .

فأما فى الموصل ، فقد سبق أن ذكرنا أنه بنى فيها دارا لتدريس علم الحديث ، لينتفع بها أكبر عدد من الراغبين فى هذا العلم من طلاب وشيوخ ، وقد اشتهرت هذه الدار باسم « دار الحديث المظفرية » ، نسبة الى منشئها مظفر الدين .

وأما فى دمشق ، فقد بلغه — فى سنة ٥٨٩ — أن رجلا يقال له أبو داود محاسن شرع فى بناء جامع بسفح جبل قاسيون من ماله الخاص ، ولكن بعد أن ارتفع البناء مقدار قامة رجل ، نفد مال الرجل فتوقف العمل فى البناء ، فلما بلغ مظفر الدين ذلك أرسل الى الشيخ أبى عمر شيخ المدرسة الفارسية — وكان هو الذى يشرف على عملية البناء — مالا لاتمام بناء الجامع فأتمه ؛ ثم رأى مظفر الدين أن يسوق الماء الى الجامع من مكان يقال له « برزة » ، تيسيرا على المصلين فى استعماله للوضوء والنظافة ، فأرسل الى أبى عمر ألف دينار لهذا الغرض، ولكن الملك المعظم عيسى الأيوبى — ملك دمشق — اعترض على المشروع ، لأن تنفيذه يستدعى نبش قبور المسلمين ، لأن الطريق الذى ستمتد فيه مواسير الماء كله قبور ، واقترح المعظم أن يشترى الشيخ أبو عمر بغلا وأن يعملوا له مدارا لتزويد الجامع بالماء ، ثم يشترى بما يفضل من المال مكانا يوقفوه على البغل والمدار للانفاق عليهما ، وبذلك لا يؤذى أحد من المسلمين، ففعل الشيخ ما اقترحه الملك المعظم . وقد أوقف مظفر الدين

وقوفا كثيرة على الجامع ، للانفاق منها على صيانته ، وللصرف منها على المدرسين والطلاب ، وما يحتاجه الجامع من خدمات[1]، وقد حمل الجامع اسم مظفر الدين ، فكان يعـرف فى دمشق باسم « الجامع المظفرى »[2] .

***

غير أنه برغم الخدمات الجليلة التى قدمها مظفر الدين لبلده وشعبه ، لم يعدم أن وجد قادحا يهجوه هجاء قبيحا مرا ، هو ياقوت الحموى صاحب كتاب معجم البلدان ، الذى سبق أن أبدى اعجابه به وبالاصلاحات الكبيرة التى أنشأها باربل [3] ، فبرغم هذا الاعجاب يصفه بقوله : « وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة ، فانه كثير الظلم ، عسوف بالرعية ، راغب فى أخـذ الأموال من غير وجهها ، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء ، كثير الصدقات على الغرباء ، يسير الأمـوال الجمـلة الوافرة يستفك بها الأسارى المسلمين من أيدى الكفار (الصليبيين) ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كساعية للخـير من كسب فرجهـا

لها الويل لا تزنى ولا تتصـدق[4]

وينقل ابن واصل فى كتابه « مفرج الكروب » عن ياقوت

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٥١٠ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣/ص ١٣٧ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٢١٧ .

(٤) معجم البلدان : مادة آربل .

تجريحه لمظفر الدين ، فيقول : « كان مظفر الدين ملكا جليلا شجاعا مقداما ، ذا همة عالية وبأس شديد ، الا أنه كان فيه ظلم وعسف وانجاح فى استخراج الأموال ، ومع هذا ، فكانت له صدقات دارة ومعروف كثير »[1] .

وعجيب من ياقوت وابن واصل أن يصفا مظفر الدين بالظلم والعسف لمصادرته بعض الناس ، وأن يفوتهما مغزى عمل مظفر الدين وسببه ، خاصة وأنهما قد عاشا فى عصر كانت مصادرة الحكام لطبقة خاصة من الناس تقليدا أخذ حكم القانون لعقاب من يستحق العقاب . والأعجب من ذلك ، أنهما ردا على أنفسهما اتهامهما لمظفر الدين ، فبالرغم من أنهما يصفانه بالظلم والعسف واستخراج الأموال من بعض الناس ، يذكران أوجـه صرفها ، وهى أوجه الخير والبر ، ومعنى هذا أن مظفر الدين لم يستحوذ على الأموال المصادرة لنفسه ، ولم يكتنزها فى خزائنه ، أو ينفقها على ملذاته وشهواته ، وانما كان — كما يقرران — ينفقها على أبواب الخير ، كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين ، وشراء حرية الأسارى المسلمين من الصليبيين .

واذا عرفنا أى نوع من الناس كان مظفر الدين يصادر أموالهم ، استطعنا تحديد سبب المصادرة ، فانه كان يصادر أموال المستغلين من موظفيه الذين كانوا يثرون على حساب الشعب عن طريق الرشاوى والسرقة والاعتداء على حقوق الضعفاء ، ولعله كان يصادر أيضا التجار الجشعين الذين كانوا يحتكرون

---

(١) مفرج الكروب ، جـ ٢/لوحة ٢٨٩ (مخطوط) .

احتياجات الشعب من غـذاء وكساء فيضيقون على النـاس سبل معيشتهم ، فكان مظفر الدين يصادر أموال أمثال هؤلاء الناس ويردها الى الشعب ، أى أنه كان يعيد الى الشعب حقه المسلوب .

وقد قيض الله لمظفر الدين من يدافع عنه من معاصريه وأن يفهم حكمة المصادرة على وجهها الصحيح ، وأعنى به سبط ابن الجوزى المؤرخ المعاصر لمظفر الدين ، فقد فهم هذا المؤرخ معنى مصادرة مظفر الدين أموال بعض الناس ، بل انه يحدد الناس الذين كان يصادرهم ، حيث يقول بعد أن يذكر ما كان ينفقه مظفر الدين على أبواب البر : « قلت : ومع هـذه المناقب فلا يسلم من ألسنة الناس ، ويقولون : هـذا يصادر ديوانه ودواوينه وكتابه (أى موظفيه وعماله) ويستأصلهم ، ولعله اطلع منهم على جنايات (أى خيانات) فرأى أخـذ الأموال وانفاقها فى البر والقربات أولى ، وذكروا أشياء أخر ، من ذا من ألسنة الناس يسلم ؟ اللهم غفرا »[1] .

ويمدنا اليونينى المؤرخ ببعض المعلومات عن سوء تصرف الموظفين واستغلالهم نفوذهم فيما أورده على لسان مجد الدين أسعد بن ابراهيم كاتب ديوان انشاء مظفر الدين ، وهو يعدد مساوئهم :

قد قسـمنا الديوان خمسة أقسـا
م عليهـا لكل قـول دليـل

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨/ ص ٦٨٣ .

رب حــق فلا يطـــاع ومنســو
ب الى الظـلم قــوله مقبـــول
ثم شــخص كأنه الحرف فى النحــ
و فلا فاعـــل ولا مفعـــــول
ومصرّ عــلى التحيف والظـــلم
بعيـــد عن الصــواب جهــول
وأخــو حاجـــة يمشى أحـــوا
لا لــديه ان جـــاءه البرطيـــل
أتراهـــم لــم يعلمـــوا أن كلا
منهــم عن فعـــاله مسئول (١)

وحبس وزير اربل موظفى الديوان لتلاعبهــم فى حساب الدولة ، فقال مجد الدين يهجوهم :

جمـــــاعة الديوان فى ليـــلة شــحط مظلمـــة
وقد غــدت أيدى الوز ير منهـــم منتقمــــة
لا رحــــم الله الذى يرحـــم قوما ظلمــــة

وقال أيضا :

جمــاعة ديواننا أصــبحوا وهم فى العذاب لسوء الحساب
فان يرجــو الوزير الثــواب فقتلهم من جــزيل الثواب(٢)

ومجد الدين هذا ، وان كان قد هجا الموظفين وكشف عن سوئهم ، فانه كان أيضا سيىء السيرة ، ويبدو أنه كان يقترف

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٦ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١١٧ .

من المساوىء ما كان يقترفه الموظفون من اســتغلال النفوذ ، فضلا عن أنه كان سيء المعاملة لمن يعرفه حتى كرهه النــاس وهجاه بعضهم هجاء قبيحا ، مما جعل مظفر الدين يقدم على القبض عليه وحبسه فى احدى القلاع . يقول اليونينى المؤرخ عن مجد الدين : « وكان مجد الدين من الفضلاء الرؤســاء والأعيان ، غير أنه كان مذموم المعاملة لأهل بلده ومعارفه ، لا ينصفهم فى الوداد ويتكبر عليهم ، فهجاه غير واحد بأهاجى قبيحة أضربنا عن ذكرها » [1] .

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ١/ص ١٢٤ .

الفصل الثامن

وفاة مظفر الدين

ظل مظفر الدين يحكم مدينة اربل مدة نصف قرن من الزمان حتى جاوز من العمر الثمانين عاما ، خدم فيه امارته وشعبه خدمات جليلة ، وكان أثناء حكمه مثال الحاكم المصلح المستنير الذى كرس حياته وبذل جهده لاسعاد الشعب الذى رضى به حاكما .

حتى اذا كان يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) فارق مظفر الدين الحياة[١] ، بعد أن اطمأن الى أنه وضع امارته وشعبه فى يد أمينة ، هى يد الخليفة المستنصر بالله العباسى .

ذلك ، أنه لم يقدر لمظفر الدين أن ينجب وريثا لدولته ، كذلك لم يكن هناك من يرثه من أسرته سوى عماد الدين زنكى زوج ابنته ، ولكن مظفر الدين يعلم أنه لا يصلح لحكم اربل وأعمالها ، فآثر أن يورثها للخليفة .

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٣/ص ٢٧٦ .

ويبدو أن وراثة اربل من بعـده كانت تشغله قبل وفاته بسنوات ، وأنه انتهى فى سنة ٦٢٧ الى أن يورثها للخليفة المستنصر وأنه جرت مفاوضات بينه وبين الخليفة انتهت بالاتفاق بينهما ، نستنتج هذا من خبر ذكره المؤرخ ابن الفوطى ، بأن الخليفـة أرسل الى مظفر الدين فى سنة ٦٢٧ ، رسولين هما : محيى الدين يوسف بن الجوزى ، وسعد الدين حسن بن الحاجب على ، دون أن يذكر ابن الفوطى سبب ارسالهما اليه . ثم يذكر ابن الفوطى أيضا ، أن مظفر الدين سار معهما الى بغداد فى شهر المحرم سنة ٦٢٨ ، ونرجح هنا ، أن مهمة الرسولين كانت لتقرير قواعد الوراثة مع مظفر الدين ، فلما تقررت القواعد بينهم ، سار مظفر الدين الى بغداد بصحبة الرسولين لمقابلة الخليفة ، وابلاغه رسميا ما عزم عليه توريثه مدينة اربل .

ويصف ابن الفوطى مراسيم استقبال بغداد لمظفر الدين ، فيقول : ان مظفر الدين استقبل استقبالا رسميا ، فقد خرج نائب الوزارة فخر الدين أحمد بن مؤيد الدين القمى والأمراء والقضاة والمدرسون وجميع أرباب المناصب الكبيرة ، فاستقبلوه جميعا على بعد فرسخ من بغداد ، ثم سار الموكب حتى وصل سور المدينة ، حيث كان ينتظره الوزير لاستقباله ، فلما تقابل الوزير ومظفر الدين وجها لوجه تعانقا وكل منهما راكب فرسه، وبعد أن تبادلا التحية ترجل كل منهما ليقرأ الوزير على مظفر الدين تحية الخليفة له . قال الوزير : « لما انتهى الى مقار العز

والجلال ، ومعدن الرحمة والكرم والافضال — لا زالت الأبواب الشريفة ملجأ للقاصدين ، والأعتاب المنيفة منهلا للواردين — وصولك يا مظفر الدين ، رسم — أعلى الله المراسم الشريفة وأسماها ، وأنفذ أوامرها فى مشارق الأرض ومغاربها وأمضاها — قصدك وتلقيك ، واحماد مساعيك ، اكراما لك واحتراما لجنابك ، فتقابل ما شملك من الانعام بتقبيل الرغام ، والدعاء الصالح الوافر الاتسام ، المفترض على كافة الأنام ، والله ولى أمير المؤمنين » .

ولما انتهى الوزير من ابلاغ مظفر الدين تحية الخليفة له ، انحنى مظفر الدين وقبل الأرض مرارا (حسب مراسيم ذلك العصر) ردا على تحية الخليفة له ، ثم انتظم الموكب ودخل بغداد ، فلما وصل « باب النوبى » ترجل مظفر الدين ثانية ، وانحنى يقبل الأرض تحية منه للخليفة عن بعد ؛ وهنا ترك الوزير ، مظفر الدين وسار الى دار الوزارة ، لكى يكون فى استقباله هناك .

وأما مظفر الدين ، فانه ركب بعد أن أدى التحية للخليفة ، وسار الى دار الوزارة برفقة أبى الفضل بن الناقد أحد حجاب المناطق بالديوان ، فاستقبله الوزير ابن القمى استقبالا رسميا ، ومكث معه بعض الوقت ، ثم تركه وسار وبصحبته ولده وجميع أرباب الدولة والأمراء الى دار الخلافة ليكونوا فى استقبال مظفر الدين حين يأتى لمقابلة الخليفة .

ويصف ابن الفوطى دخول كبار رجـال الدولة الى دار الخلافة على النحو التالى : دخل مؤيد الدين الوزير وابنـه وخواصه من الباب القائمى بالمشرعة . وأما الولاة والأمراء فانهم دخلوا من باب عليان وباب الحرم ، ثم انتهى الجميع الى تحت التاج على شاطىء دجـلة ، ووقفوا تحت الدار الشاطئية ذات الشبابيك .

أما مظفر الدين ، فان الوزير أرسـل اليـه الأمير ألب قرا الظاهرى وأحد خدم الخليفة الى دار الوزارة ليكونا فى صحبته الى دار الخلافة ، فسار مظفر الدين معهما فى موكب حتى وصل الى دار الخلافة ، فاستقبله من هناك من رجال الدولة ، ثم اتجهوا جميعا الى الشباك الأوسط ووقفوا أمامه ، فرفعت عنـدئذ الستارة عن الشباك ، فظهر الخليفة وهو جالس وراءه ، فانحنى الجميع يقبلون الأرض تحية له .

وكان قد نصب تحت الشباك الأوسط كرسى ذو درج ليصعد عليه من يريد أن يرى الخليفة من قرب أو يحادثه ، فلما رفعت الستارة ، صعد الى الكرسى كل من مظفر الدين والوزير وابن الناقد استاذ الدار . فلما رأى مظفر الدين الخليفة ، سلم عليه — حسب المراسيم المتبعة — وذلك بأن أشار بيده الى الشباك ، ثم تلا الآية الكريمة ، (اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ، فرد الخليفة عليه السلام ، فقبل مظفر الدين الأرض مرارا تحية له ، ثم اتبع الخليفة سلامه بشكر مظفر الدين

على زيارته ، فعاود مظفر الدين الانحناء وتقبيل الأرض ، ثم أسدلت الستارة على الشباك ، اعلانا بانتهاء المقابلة ، فأخـذ مظفر الدين الى حجرة ، حيث تسلم خِلَع (هدايا) الخليفة المعدة لمثل هذه المناسبة ، وكانت الخلعة عبارة عن سيفين وفرس بمركب ذهب . ثم عاد مظفر الدين الى دار الضيافة المعدة لنزوله بنفس الموكب ، وقد رفع وراءه صنجقان مذهبان ، والناس تسير بين يديه حتى وصل دار الضيافة ، وأما حاشيته فقد نزلوا فى عدة دور ، وأما عسكره فقد أقاموا فى مخيم أعد لهم بظاهر المدينـة .

وكان مظفر الدين فى مدة اقامته ببغداد ، موضع حفاوة كبار رجال الدولة فيها ، فأقاموا له عدة مآدب حافلة .

وانتهز مظفر الدين فرصة وجوده فى بغداد ، فزار الأماكن الدينية فيها ، كالربط والخانقاهات ، واجتمع بالصوفية والمنقطعين للعبادة ، فكان كلما زار مكانا من هـذه الأمكنة ، احتفى به وأقيمت له المآدب الفاخرة .

ثم تحدد منتصف شهر المحرم لزيارة مظفر الدين للخليفة للمرة الثانية ، وجرت الزيارة على نفس مراسيم الزيارة الأولى وفى نفس المكان ، ولما ارتقى مظفر الدين الدرج ووقف أمام الخليفة ، خاطبه الخليفة بما طابت به نفسه ، فحيى مظفر الدين الخليفة بتقبيل الأرض ودعا له ، ثم قرأ الآية الكريمة . (يا ليت قومى يعلمون بما غفـر لى ربى وجعلنى من المكرمين) . ثم أسدلت الستارة بانتهاء المقابلة ، فأدخل مظفر الدين مرة أخرى

الى حجرة الخلع ، وأهدى له كوسات [1] وأعلام ، ومنحه الخليفة خمسين ألف دينار نفقة الطريق له ولحاشيته وعشرة آلاف دينار لجنده . ثم سار مظفر الدين بعد ذلك الى دار الوزارة ، فحضر أفراد حاشيته ، فأنعم عليهم بالخلع والهدايا ، ثم عاد مظفر الدين بعد أيام الى اربل وبصحبته سعد الدين حسين ابن الحاجب عليّ ومحيى الدين يوسف بن الجوزى ليحضرا تحليف مظفر الدين أمراءه وأعيان اربل على طاعة الخليفة وتسليمه المدينة بعد وفاته [2] . ومعنى هذا أن الاتفاق كان قد تم بين مظفر الدين والخليفة على وراثة اربل ، ويؤكد هذا ما ذكره سبط بن الجوزى ، بأن مظفر الدين عندما قدم بغداد ، كان معه مفاتيح اربل والقلاع ، وذلك لتسليمها الى الخليفة ، اعلانا منه بأن المدينة والقلاع أصبحت للخليفة بعد وفاته[3] .

ولكن بعد أن توفى مظفر الدين ، حدثت أزمة تسببت عنها أضرار بليغة لمدينة اربل وأهلها ، ذلك أنه كان بقلعة اربل خادمان لمظفر الدين ، فلما اشتد بمظفر الدين المرض ، أرسلا الى كل من الخليفة وعماد الدين زنكى — زوج ابنة مظفر الدين — والملك الصالح نجم الدين أيوب ، بقرب وفاة مظفر الدين ، وأنذرا كلا منهم بأنه « من سبق الينا كانت مدينتنا عليه » ، الا أن هوى

---

(١) الكوسات : صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص . (صبح الأعشى، ج ٤ /ص٩/١٣).

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ١٩ — ٢٣ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨/ص ٦٨٠/٦٨١ .

الخادمين كان مع نجم الدين أيوب ، فأخذا يحثانه على الاسراع الى اربل لتسليمها اليه ، ولكن الخليفة كان أسرع من نجم الدين وعماد الدين ، حيث أرسل جيشه للاستيلاء عليها ، ولكن الخادمين رفضا تسليمها اليه ، وأوصدا أبواب المدينة لمنع دخول نائب الخليفة اليها ، فضرب الجيش الحصار عليها ، فدار القتال بينه وبين حامية القلعة ، انتهى بهزيمة الحامية ، واستيلاء الجيش على المدينة ودخولها فى ملك الخليفة [١] .

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤ ، مرآة الزمان، ج ٨/ص ٦٨٣ .

المراجـــع

١ ـ **ابن الأثير** : على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الجزرى .

١ ـ التاريخ الباهر فى الدوله الأتابكية (بالموصـــل) . (تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات . نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، سنة ١٩٦٣) .

٢ ـ الكامل فى التاريخ . (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

٢ ـ **ابن خلكان** : أحمد بن محمد بن أبى بكر .

وفيات الأعيان وأبناء الزمان . (تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨) .

٣ ـ **ابن شاكر الكتبي** : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى .

فوات الوفيات . (تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة سنة ١٩٥١) .

٤ ـ **ابن شداد** : يوسف بن رافع بن تميم الأسدى .

سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة ، النوادر الســلطانية والمحاسن اليوسفية . (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر . سنة ١٣١٧ هـ) .

٥ ـ **ابن العديم** : عمر بن أحمد بن هبة الله بن جرادة .

زبدة الحلب من تاريخ حلب. (مصور : دار الكتب : ٢١٠٤ تاريخ تيمور) .

٦ ـ **ابن العماد الحنبلى** : أبو الفلاح عبد الحى .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . (نشر : مكتبة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ) .

٧ ـ **ابن الفوطى** : كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادى .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابقة .(المكتبة العربية ، بغداد) .

٨ ــ **ابن القلانسى** : حمزة بن أبى يعلى الأسدى .
ذيل تاريخ دمشق (تحقيق : آمدروز · بيروت سنة ١٩٠٨).

٩ ــ **ابن كثير** : أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى .
البداية والنهاية فى التاريخ . (مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م) .

١٠ ــ **ابن مسكويه** : أحمد بن محمد بن يعقوب .
تجارب الأمم وتعاقب الهمم (القاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٥ م) .

١١ ــ **ابن واصل** : محمد بن سالم ·
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تحقيق : الدكتور جمال الدين الشيال · سنه ١٩٥٣) · ومصور بدار الكتب برقم : ٥٣١٩ تاريخ) ·

١٢ ــ **أبو شامة** : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى ·
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية · (مطبعة وادى النيل بمصر ــ سنة ١٢٨٧ هـ) ·

١٣ ــ **أبو المحاسن** : يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ·
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة · (مطبعة دار الكتب سنة ١٩٣٥) ·

١٤ ــ **أسامة بن منقذ** ·
كتاب الاعتبار · (نشر فيليب حتى · مطبعة جامعة برنستون. الولايات المتحدة · سنة ١٩٣٠) ·

١٥ ــ **دائرة المعارف الاسلامية** : (الترجمة العربية) ·

١٦ ــ **ولبر** : دونالد ·
ايران ماضيها وحاضرها · (ترجمة الدكتور عبد النعيم حسنين · القاهرة سنه ١٩٥٨) ·

١٧ ــ **الديوهجى** : سعيد ·
الموصل فى العهد الأتابكى · (مطبعة شفيق · بغداد سنة ١٩٥٨) ·

١٨ ـ **السبكى** : عبد الوهاب بن تقى الدين .
طبقات الشافعية الكبرى . (المطبعة الحسينية ـ القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) .

١٩ ـ **العراقى** : عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن .
القرب فى محبه العرب . (تحقيق : ابراهيم حلمى القادرى . الاسكندرية ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م) .

٢٠ ـ **العماد الأصفهانى** : عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب .
١ ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى . المطبعة الخيرية ١٣٢٢ القاهرة .
٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر . (تحقيق : شكرى فيصل . دمشق ، سنة ١٩٥٩) .

٢١ ـ **القلقشندى** : أبو العباس أحمد .
صبح الأعشى فى صناعة الانشا . (المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٥) .

٢٢ ـ **المقريزى** : تقى الدين أحمد بن على .
السلوك لمعرفة دول الملوك . (تحقيق : الدكتور مصطفى زيادة . مطبعة دار الكتب ١٩٣٤) .

٢٣ ـ **هنداوى** : محمد موسى (الدكتور) .
المعجم فى اللغة الفارسية . (نشر مكتبة مطبعة مصر) .

٢٤ ـ **ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى** .
معجم البلدان . (نشر الخانجى . مطبعة دار السعادة) .

٢٥ ـ **يوسف بن قزاوغلى التركى ، المعروف بسبط ابن الجوزى** .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (طبعة الهند سنة ١٩٥١) .

٢٦ ـ **اليونينى** : قطب الدين موسى بن محمد .
ذيل مرآة الزمان . (طبعة الهند سنة ١٣٧٥ = ١٩٥٥ م) .

٢٧ ـ Encyclopaedia Britannica. vol. II (Ohio, 1907)

فهرس

أعلام العرب

الكتاب القادم

رشيد رضا

الإمام المجاهد

بقلم

الدكتور إبراهيم أحمد العدوى

يصدر في ٧ سبتمبر ١٩٦٤